

رواية
سوناري
SONARI
أسماء الريس
حكاوي
HAKAWY
ساحر الكتب

إهداء

إلى مَن يعتقدون أنّ الميراث يكمُن في المال، وأنّ الأشياء من غيره إلى زوال، إلى مَن يستزيدون في التفاهات، ويتفهون الصالحات، إلى مَن نسوا أنّ الحقيقة تكمن في الذات.

استَرِقوا السمعَ لتنتبهوا للإشارات، فخلْفَ كلّ نغمةٍ تسمعها نغمةٌ لا تسمعها، وكلُّ لبيب بالإشارة يفهم.

سكــوووت!

تلك كانت صيحةَ البداية، كلمةٌ واحدة داهمت الجميع كسهامٍ غادرة في معركة خاسرة تعالت وتوالت من كلّ الجهات، خيّم الصمتُ على أرواحهم، بعدما ثبتت أجسادهم، وأَحكمتْ خيوطُ الظلام قيودَهم فشَخَصَت أبصارهم، واستَرَقَت أسماعهم، فتحسّسوا وميضَ ضوءٍ يأتي مِن هنا أو هناك، ثوانٍ وانتبهت الآذان لصوتٍ يقترب من بعيد، طنين شديد يتلحّفهم من اللامكان، وبعد أنْ أحكم الظلام الحصار، رفع السّتار، وكأنّه جدارُ قلعة تنهار، أوركسترا مَهيب جبار، الكلّ في مكانه، أبواق وطبول وأوتار، وعلى رأسهم الموسيقار، يلوّح بعصاه كأنّها سيفٌ بتّار، معلنًا بداية أسطورة حياة، تبلغ بالعقل منتهاه، تخُطُّها نغمات، بعضُها آهات والأخرى ضحكات، تقف بالحاضرين على حافة الجنون، سُلَّم يتراقصون عليه من الألم، وما الحياة إلّا ألمٌ تعزفه الألحان، سيمفونية حياةٍ ستُعزَف، وما علينا إلّا الإنصات.

النّغمة الأولــى

المجهول

صوتٌ بعيد لشبحٍ مجهول، تتبعه العقول بكثيرٍ من الترقُّب، وقدْرٍ من الخوف متبوعٍ برغبة في الهروب، آمالٌ عظيمة أو أوهام، ماهيَّتُها تتوقّف عليك، وتحقيقُها في يده هو، ولن تتدخل أنت.

(١)

١٩٣٦

قرّب، قرّب، قرّب،

قرّب شوف، واتفرّج قرّب،

وصل صندوق العجب،

الحكواتي أبو رجب،

معانا أبو زيد الهلالي،

اللّي سيفه بيلالي،

معانا عنترة العبسي،

عدوُّه يصبح ما يمسي،

كانت هذه الكلمات تزلزلُ أطراف القرية، تُخرِج الجميعَ من سُباتهم؛ كبارَهم كانوا أو صغارهم، راكضين للمتعة، مطلقين لخيالهم العنان، وبالرغم من ضجيج الأسواق لم يكن هناك صوت يعلو على صوت العجب العجاب، وحكايات التاريخ المنساب من فم الحكواتي رجب صديق الأيام، ومن بعيد يركض على صوته مشتاقًا متلهفًا لمزيد من الحكايات، يرتكز بمكانه المعتاد؛ ركن بعيد يختفي فيه عن الأنظار حاضنًا فقرَه

ينتظر يومًا يناديه فيه الصندوق كما نادى أصحاب المال، فإن كان يفتقر للمال فغِناه الوحيد في الخيال، فتخيّل ما كان يقال، فهذا عنترة المغوار بسيفه البتّار يحمي حبيبته عبلة من سواد الليالي وخداع الدهر الدوّار، وهذا أبو زيد الهلالي الذي يحارب ولا يخاف حتّى غدر الليالي، وإن اتُّهِم وحيد بالوحدة ونبذ الاجتماع بالصحبة؛ فقد كان ملاذه رسم الأحبّة كما تخيّلهم وعاش معهم حكايتهم على هذا الإطار الدوّار

طفل لم يتجاوز الثامنة سئم عقول مَن حوله، فلاذ بعقله ليخلق من خياله حياةً فريدة مستقلة، حتّى أثار فضولَهم وخوفهم، ومن هنا بدأت الحكاية ليتدخّل الآخرون في حياته، ويفرضون عليه قيودًا كانت بابًا لكشف المستور وتسليط العيون على الطفل الوسيم المتوحّد المهجور.

و من بين عيون المشفقين كانت عينٌ واحدة تنظر إليه بكثير من الرأفة والحبّ أحيانًا، ويخاف منها أحايين أخرى، يخافها ولكنه يشتاق إليها، كانت بينه وبين الحكواتي كثير من الحكايات التي تقصُّها العين ولا يشعر بها إلّا القلب، حتّى اقترب منه ذات يوم وهمس في أذنه :

- اقترَب الأوان لسماع النداء، فإن ناداك الصندوق يا بُنَي فلَبّ النداء.

ومنذ هذه اللحظة وقع وحيد أسير النداء، ينتبه ويلتقط الأصوات منتظرا تلبية النداء، ولكن كيف وهو الابن الوحيد لمُزارع تمنّى الصبيَّ، وعندما رُزِق به أصيب بحُبّ الوحدة، فغرسه أبوه عُنوة بين البشر ليعلّمه كيف يواجه الحياة، بدأ بتعليمه القرآن في كُتَّاب القرية، وأرغمه على العمل في الحقول ليشتدَّ عودُه، وما كان وحيد يقابل هذا إلّا بالمزيد من الصمت والسرعة للهروب إلى رُكنه المنزوي في البيت الطيني المعدَم لينفرد برسوماته.

ومع الجهل يزداد الخطأ، فلا طريق إلّا طَرْق أبواب المستور حيث الجانّ والأعمال والحاسد والمحسود، تطرُق الأيادي أبواب الشيوخ وتنطلق الأفواه بالجملة الاستفتاحية:

" الغيث يا شيخنا ولدي مخاوي "

لم يفهم وحيد مغزى هذه الكلمة إلّا عندما تقدم به العمر وعلِم أنّ أمَّه مَن فتحت عليه أبواب المستور ليغوص في بحورها، ينادونه قبل أن يناديهم، يعرفونه قبل أن يعرفهم، يسْتَوْلون عليه قبل أن يأذن لهم

وفي ليلة مرعبة برعدها وبرقها وأمطارها، هبّت ريح عاصف اقتلعت المحاصيل من جذورها، وأخرجت الرجال من بيوتهم، وصرخت النساء في مضاجعهن:

- سترك يا الله

حملَت هذه الريح بذورَ مرضٍ خطير طرح في أيام معدودات الموت في كلّ بيوت القرية، جثثُ الرجال ملقاة على الرمال وبين الحقول، وأصيبت معظم النساء، انتشر مرض الطاعون في البلاد وحصد معه آلافَ الأرواح ومنهم والد وحيد، وبعده بأيام والدته، وتبقّى في البيت الحزين هو وأخته يتجرّعان من الألم والاحتياج ما كان يجعلهما يتسوّلان الطعام، ومن بين تزاحُم الأحزان والمسؤولية التي أثقلت كواهِل الصغار، استولَت نغمةٌ صادرةٌ من اللاشيء، سمعها وحيد وحده، ارتجف لها قلبه وخافت منها نفسه، اختبأ مسرعًا أسفل غطائه المُهْتَرِئ يترقّب ما سيحدث، ولكنّ الصوت يعلو ويقترب ويطِنّ كطنين طبول الحرب، ترْهِب الأعداء وتثير الحماسة وتزيد الاعتداء، نظر وحيد إلى السماء وعلا صوته بكثير من الرجاء، وانتظر الانتهاء، ولكن لا شيء ينتهي لقد حلّت اللعنة وستتوالى على حياته اللعنات.

***

(٢)

رقية محفوظ

١٩٩٥

من بين ارتباكة العمل وسرعة إجراء التقارير الشهرية عن مُجمَل تحقيقات الشهر، وقفت رُقَيّة شاردةً على اللافتة المكتوبة على إحدى أرفُف الأرشيف لقسم الأحداث " تحقيقات الأستاذة رقية محفوظ "

كم كانت صغيرة وساذجة عندما خطَت أُولى خطواتها داخل هذه الجريدة منذ خمس سنوات، منذ أن كانت تحت التدريب، حتّى التحقت بها بعد التخرج، كم كانت الأحلام كبيرة والآمال عظيمة أن تنال بِفِعل قرابة رئيس تحرير الجريدة مكانةً مرموقة، ولم تكن تتوقّع أنّ ديمقراطية الرئيس ستَحِلّ عليها لتكون في النهاية "الشاويش عطية" كما أطلقوا عليها، نظرًا لكثرة تردُّدها على الأقسام ومديريات الأمن، حتّى أصبحت صديقة لكلّ المخبرين وضبّاط الأقسام، هذا ما جعلها تتغيّر من تلك الفتاة الرقيقة التي دُفِنت تحت أنقاض شخصية جادّة شديدة صعبة المنال، ذات نفسيّة محطّمة من كثرة ما تقابله من قضايا وحوادث، تحاول أن تصبغ نفسها بقليل من المزاح الخفيف الذي لا يضرّ بقوة

شخصيتها

خرجت من شرودها على صوت شابّ صغير يناديها:

- أستاذة رقية، المدير يناديكِ

فالتفتت لصاحب الصوت، هذا الشاب المبتدئ الذي يشبهها كثيرا في بدايتها فحرّكت رأسها ولملمث الأوراق من أمامها واتجهت لتربّت على كتفه:

- حدّد طريقك منذ البداية حتّى لا تتوه فيه ولا تجد طريقًا للعودة

تركتْه هائمًا بجُملتها وذهبت تطرُق باب رئيس تحرير جريدتها:

- ناديتَني أستاذ عصام؟

أومأ برأسه وأشار لها أن تجلس، وبعد أن قدمت له الملفّ المطلوب تركه بجانبه هو متأفّف، ومن دون أن يتفوّه بكلمة وجّه لها ملفًّا آخر:

- هذا قراري الذي وقَّعْث عليه للتّوّ بشأنك

ارتجفث أوصالها وشحب وجهها، فانتشلها هو من بئرٍ كانت ساقطة به لا محالة، فمن يقع في بئر الظنون لا يخرج منه سالمًا

- هذا قرار مِنّي بتكليفك للسفر إلى برلين لتغطية مؤتمر المرأة هناك، ولن أجد غيرك تليق بهذه السَّفرة

تفاجأتْ وتلجلجت واحتارت، أتفرحُ أنها ستتخلص من هذا الضغط النفسي الهائل؟ أم تحزن لأنها لا تليق للتعامل مع هذه الطبقة من المجتمع؟ أم تخاف لأنها ستتعرض لتغيير طريقتها وأسلوبها الذي اعتادت عليه؟ وبينما هي تنظر للقرار أتبعها رئيسها بكارتٍ إلى إحدى بيوت الأزياء وصالونات التجميل وقال لها: هناك ستجدين من يهتم بكِ

لا تصدق ما يحدث معها، فانتشلها مديرها من تيهها:

- كفاكِ يا رقية التعامل مع المجرمين وضباط الشرطة أما آن الأوان أن تجازَيْ على تفوّقِك كلّ هذه الفترة؟ أما آن الأوان لتعودي رقية القديمة الجميلة؟ اكتسبتِ الخبرة الكافية وحان موعد ممارستها.

وبالرغم من خوفها إلّا أنها كانت سعيدة بالفرصة وعزمت على اقتناصها، وبدأت في التحضير لها، ومضت الأيام والليالي المتبقّية للسفر على نحو مُتتالٍ؛ شراء الملابس، الاهتمام بمظهرها، محاولة تغيير أسلوبها، حتّى جاء يوم السفر، وهنا تبدّلت الأماكن لتسجِن رقية الرقيقةُ الراقيةُ الشاويشَ عطية تحت أنقاض أعوام مضت دون رجعة

انطلقت رقية في طريق الطموح ترفرف كطائر محبوس حُرّر لتَوّه فاستمتع بكلّ نفَسٍ ورَقَّة عين مُنحت له، مرّت ساعاتُ سفرها طويلةً صعبة، فأصعبُ الأوقات ساعاتٌ خالية خاوية من أيّ مَهامّ تلهيك عن التفكير في الحقيقة، يعمل فيها ضميرك على تنقية المواقف الراسخة في الذاكرة ويعيدها وكأنه يذكرنا دائمًا أنّ الخلفيّة ستظلّ سوداء مهما حاولت تلوينها، وبعد أربع ساعات هبطت طائرتها واستقرّت في أرض ظنّت أنها أرض الأحلام ولكنها كانت بداية جديدة لجَلْد الذات.

***

(٣)

مـــــــالــك

١٩٩٥

أتجوّل وحيدًا أتفقّد واجهات المحالّ التجارية، تصيبني حالة من الملل تُفقِدُني شَغَفي بكل حياتي، رفضتُ معطياتي واستبدلتُها بمعطياتٍ اخترتُها لنفسي، فشابٌّ مثلي يعيش في بلدٍ متقدمٍ كبرلين ابنًا لعالِمين وفَّرا له الكثير والكثير من المعطيات المادية، ولكنهما حرَماه من أهم معطيات حياته؛ الدّفء الأُسَري والاهتمام الأبوي لا بد أن تكون السعادة حليفَه، ولكني اختنقتُ، وعندما أصبح الأمر فوق طاقتي لم أنتظر و صرختُ؛ هدمتُ معبدهم الهائل عليهم، وهربتُ لأعيش بمفردي في بيت صغير مستقلّ أستمتع بوحدتي تُهَوّن عليّ مكتبتي التي يرقد فيها الفراعنة والعظماء المصريون وفلاسفةُ أثينا ما أعانيه، هربتُ بكتبي بعيدًا عنهم، ولأن الممنوع مرغوب فكان رفضُهم البحثَ في شجرة عائلتي المصرية وإصرارُهم على إخفاء هويّتي دافعًا لكي أمتهن مجال السياحة وأتخصّص في التاريخ الفرعوني.

ولم أكن أنا فقط من ثار على هذا الوضع، ثارت أختي كذلك ورفضت الوضعَ المهين لها والنظرَ لها بنظرة دونية لأنها كانت

مريضة متلازمة داون، ولكنها كانت جميلة رقيقة راقية، عندما اختارت لها أمها الوحدة المسببة بالتحاقها بمدرسة داخلية لإبعادها عن الأنظار، اختارت هي الوحدة الأبدية وصعدت إلى ربها تاركة الأرض وإثمها وتنعّمَث بنقاء السماء.

استرعَى انتباهي مكتبة كتب عليها " التراث القديم "، لم أعرف عنها شيئًا من قبل بالرغم من كوني مشتركًا بجميع مكتبات البلدة ، اقتربتُ من البوابة وكأن شيئًا ما يجذبني إلى الداخل، لم أجد مَن يستقبلني، أرْوِقةٌ معتمة فارغة، تضْفي شيئًا من الغموض، حاولت أن أخرج ولكن فضولي قادني للاندماج مع أرفُف الكتب وأتوه بها وأنسى سبب خوفي، وبالفعل أكثرُ الكتب والروايات المعروضة قديمة وقيّمة .

بدأتُ أشعر بريح خفيفة خلف ظهري، ألتفتُ ولا أرى أحدًا، سمعتْ أذني حفيف قدمٍ يمشي، ذهبتُ خلف هذا الصوت كالتائه أتتبّع أثره، لفتَ انتباهي تحرُّكٌ للكتب فى الجزء المقابل لي، وبسرعة حركتُ الكتب من الأرفُف التي أمام عيني لأجد من بين ظلام الغرفة عينا تنظر إليّ، نعم عينٌ فقط، عينٌ لرجل كبير في السّنّ ظهرتْ له شفاهٌ تتحرك، عينٌ وشفاه مجعَّدة وما بين ذلك فراغٌ مظلم، ارتجف قلبي واهتزّتْ أطرافي، وجَّهتُ له الحديث بصوت مرتجف:

- هل أنت تعمل هنا؟

نظراتُه الشاخصة المانحة للرهبة أطالت النظر فيَّ لتزيدني حيرة، هل ما أراه حقيقي أم هو من نسج خيالي؟ والذي جعلني أتعمّق بها لتأسرني بلمعانها، لمعانٌ مضطرب خائف من إظهار الهوِيّة وكشف الحقيقة ، في مجملها مخيفة ولكن طيّاتها تحمل كثيرًا من الحنين، تحرّكث شفتاه أخيرًا ليظهر السّوادُ منها وتهُبّ ريحٌ كريهة مصطحبة بصوت أجَشّ:

- " سوناري "

ارتسمث على وجهي علاماثُ امتعاض، وتفوَّهْثُ باضطراب:

- نعم، ماذا تقصد؟

بصوتٍ غليظ وريحٍ مقزّز خرج من فمه كرّر:

" سوناري " "سوناري"

تردّدت الكلمة في أذني، وردّدها الفراغ من حولي، تلاشت ملامحه المخيفة في ثوانٍ وحلّ الظلام ، ارتجف قلبي فحاولث الهرب، ولكني تعثّرْثُ في كتابٍ مُلقى على الأرض كاد أن يلقي بي فى هذا الظلام، رفعتُ الكتاب لأضعه على الرفّ المقابل لي، لفتَ نظري اسمه "سوناري "، كان كتابًا ذا

غلافٍ أسود، وكلماته تتلألأ باللون الذهبي، كتابٌ مظهرُه قَيّم لكلّ من ينظر إليه، وغلافُه يعطيه شيئًا من الفخامة .

اقشَعَرَّ جسدي و تلهّبَث دمائي بداخلي، كان الصوتُ ما زال يداعب أذني ، وبدون وعي حملتُ الكتابَ وحاولتُ اللحاق بهذا الشخص الغريب، توغّلْتُ بين أرْوِقة المكتبة تائهًا أتتبّع المجهول، وجدتُ شعاع نورٍ اهتديت به لبوّابة الخروج، وهناك وجدتُ موظفةً على مكتبٍ مقابلٍ للبوابة، سألتُها عن الرجل الذي كان بالداخل، نفَتْ نفيًا قطعيًّا وجودَ أيّ شخصٍ دخل أو خرج بعدي، فتعجّبْتُ، فعندما دخلتُ لم أر أيّ شخص، ولم يكن لهذا المكتب وجودٌ من الأساس، أخبرتْني أنها قابلتْني وأنا داخل، ولكنني لم أردّ عليها، فتابعتْني بكاميرا المراقبة، وشاهدتْ كيف كان تصرُّفي منطقيًّا بالداخل، لم يظهر عليّ أيُّ تصرُّفٍ غريب، لم يظهر حديثي مع أي شخص حتّى حملتُ الكتاب ونظرتُ خلفي على هذه المكتبة الغريبة لم أجد الظلام الذي رأيتُه من قبل، الأرْوِقة مضاءة، والأرفف مرتَّبة ترتيبًا مغايرًا لما رأيت.

- غزى الصمتُ ـ من الصدمة ـ كلّ كياني عدا دقّاتِ قلبي المتسارعة، وما أخرجني من هذه الحالة إلّا سؤالها هل أريد شراء الكتاب الذي بيدي أم أريد أن أستعيره، وعندما أخبرتها برغبتي في شرائه ووجهتُ الكتاب لها، تغيّر تعبيرُ وجهها

عندما رأت اسم الكتاب، نظرت لي فى دهشة غريبة ممزوجة بنظرات قلق (أحقا تريده)؟

لم أكن متأكدًا من رَدّي ولكن بالتأكيد لن أتركه:

- " نعم حقًا أريده "

حملتُ الكتاب وخرجتُ لأسير على قدميّ المرتعشتين، ولأول مرة أشعر بأن الطرقات ضيقة، والمسافات بعيدة، شعرتُ بدُوارٍ عنيف أفقدني توازني، استندتُ على أحد الكراسي في الشارع لألتقط أنفاسي، ووضعتُ الكتاب بجانبي، حتّى جاءت ريحٌ حرّكتْ صفحاتِ الكتاب تباعًا لتصدر نغمةٌ مخيفة أزعجتني، صوتٌ كصوت الهواء بداخل الأنابيب الكبيرة، نغمةٌ مضخّمة سريعة، سرعان ما توقّفتْ عند إغلاق الكتاب، ظلّتْ عيوني شاخصةً إليه من هوْلِ ما سمعتُ، ولم أعلم لماذا تخلّل الإحساس بالرعب فى داخلي وأصبح كلّ ما بداخلي يرتجف.

لم أعلم كم مرّ من وقتٍ عليّ وأنا بهذا الحال ،و لم أر مخرجًا من هذا المأزق إلّا اتصالي بصديقي ماهر الصحفي المصري، والذي حضر بعد ربع ساعة لينتشلني من تيهي، فاستقرّ بنا الحال في أحد المطاعم المقرَّبة إلينا، وبعد إخباره بكلّ ما حدث معي، لم ينتَبَهْ أيّ اندهاش، وعاد بي إلى واقعي، وأسند كلّ ما حدث معي إلى أنها حالة نفسية

لوحدتي التي أعيش بها تهيئ لي كلّ ما حدث، وبالفعل فتح الكتاب، ولم يجد به إلّا نوتات موسيقية وتاريخ كلّ نوتة، ولمن نُسِبت هذه النوتة، لم ير به أيّ شيء غير منطقي، كتابٌ بعيدٌ كلّ البعد عن اهتماماتي وقراءاتي

وبينما كان يقنعني بفرضيَّته أعلن هاتفه الجوال عن مكالمة عاجلة من مديره، يخبره بتكليفه بالسفر لتغطية مؤتمر هام في إحدى البلدات القريبة، وسيضطرّ لعدم التواجد بالغد لاستقبال صديقته المصرية التي ستحلّ ضيفة عليه الأسابيع المقبلة، وبالتالي تمّ تكليفي بهذه الاستضافة لأنه لا يأمن عليها مع غيري هنا، فهي بمثابة الأخت له، وبالطبع أنا وافقتُ لحبّي الشديد لمصر والمصريين، انصرفنا جميعًا على أمل اللقاء بعد عودته مع استمرار اتصالاتنا للاطمئنان على الصديقة المصرية، انصرف الجميع و بقيتُ أنا مع هذا الكتاب الذي لم أعرف هل حكايته انتهت مع اقتنائي له أم هي لم تبدأ بعد

***

النغمــة الثــانيــة

الحيـــــرة

متناقضات، اختلافات، متشابهات

مذبذبون بين الآهات والابتسامات

خائفون من التجارب والإخفاقات

تائهون بين هنا وهناك

مُسَيَّرون هم أم لهم حق الاختيار

بين الموافقة والرفض أم الثبات

نور خفي آت من هناك

أم ظلام دائم معتاد

(٤)

وحـــــيـــــد

١٩٣٨

أقف شاردا في قطرات المطر التي تسقط على زجاج غرفتي، فهذه الليلة تذكرني كثيرًا بليلة تغيّر فيها كلّ شيء؛ المناخ والطقس والأرض والدفء والأمان، ظهر الخوف من اللاشيء وأصبح كلّ شيء، تعودتُ عليه وأصبحت أعتاده، فبعد أن مرضتْ أختي بعد وفاة أمي وأبي، وأصبح البيت عبارة عن خلاء تلعب به ذرات الهواء أحلى السيمفونيات، وتتراقص على نغمها حُبَيْبات التراب التي أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من منزلنا المهجور، ظهر صوتٌ من بعيد يقترب كلما استرقْتُ السمع وحاولت جمْعَ انتباهي من جديد، صوتٌ أعرفه جيدًا ولكني لا أتذكره، فكانت حالتي وقتها مزرية، طفلٌ يفقد أمّه وأباه في شهر واحد، طفل يتراقص الموت على سرير أخته الوحيدة كلّ كنزه في الحياة، طفل لم يتخلّص بعد من عقاقير السحرة، ووصفات المُشَعْوذين، طفل ألبَسَته الحقيقةُ لباس الحزن والعجز، اقترب الصوت من أذني وكأنه يناديني.

"قرّب، قرّب، قرّب

قرب شوف واتفرج قرب

ناداك صندوق العجب فلبّ النداء

فيا بني لا قريب شافع ولا بعيد ناصر فالكل سواء

تذكرتُ وأدركتُ أنه عمّ رجب، نعم صديقي القديم، التي كانت نظراته معي تخبرني بكل شيء، وبحكاوي صندوق الدنيا العجيب، ابتعدتُ عنه لأبتعد عن العالم المزيَّف، أدركتُ أنّ أبطال قصصي المرسومين هم الحقيقة الوحيدة حتّى ولو كانت خيالًا كانوا بجانبي يواسونني دائمًا

ظلّ الصوتُ يناديني من الخارج، يقترب أكثر فأكثر، وأنا مقيَّد الحركة، خرجَتْ من الجدران خيوطٌ سوداء تتشعّب وتخرج من اللاشيء وتنتشر في أركان المنزل، السوادُ حولي في كلّ مكان، يتمدَّد ويزحف وينتشر، وبدأ يقتحم صفاءَ غرفة أختي المريضة، حاولتُ أن أجمع شتات نفسي وأهدّئ من ضربات قلبي المتسارعة، وبدون تفكير حاولتُ التحرك لأمنع دخول هذا السواد إلي غرفة أختي، ولكني فشلتُ واستسلمتُ، وأصبح السوادُ يجذبني لخارج المنزل كأنه أيادٍ تتشبَّث في يدي المرتجفة، فُتِح بابُ غرفة أختي فسمعتُ صراخها، وهذه الخيوط تلتفُّ حولها كالأفاعي العاصرة تحاول أن تتلذّذ بسماع صوت تكسير عظام فريستها، امتدّت

يدُ أختي طالبة المساعدة منّي، عيناها الدامعتان أصبحت تارة تواسيني وتارة تلومني وتارة أخرى تستنجد بي، أنا الطفل الصغير الذي أرَثْهُ الدنيا في بضعة شهور مالم تُرِهِ لأي شخص في سنوات، غطّى السوادُ أختي واختفت هي واختفى معها كلّ شيء من حولي، وسكتَ الصوتُ أخيرًا، وسكتَ كلّ شيء، وتلاشت الحياة، فما تبقّى إلّا صوت يناديني:

- استيقِظ يا ابني، انتهى كلّ شيء، استيقِظ أرجوك

كان المكان معتِمًا إلّا من ضوء بسيط يتسلل خلسة من أسفل الباب الخشبي المغلق لغرفة من الطوب الأحمر، صوت أمواج البحر يتسلل إلى أذني متبوعًا برائحة عفنة كريهة، رأيتُ خيال رجل عجوز ذي لحية بيضاء ليست بالطويلة ولكنها أيضًا ليست بالقصيرة، بشرتُه سمراء ممزوجة باحمرار وَجْنَتيْه، جسده نحيف نحافة مخيفة، كنتُ مستلقيًا على سرير خشن الملمس صلب القوام عبارة عن طبقتين من الطوب الأحمر بعلوّ الأرض، موضوع عليه قطعة من القماش الصوف، بدأت الصورة تتضح أكثر، فتحتُ عينيّ وبدأتُ أدرك أنه ليس بيتي ولا أعرف هذا الشخص، بدأتُ أمسك برأسي فإنها تؤلمني كثيرا، ظننتُ أني أضعتُ مع أهلي كلّ شيء حتّى عقلي، من هذا؟ وما هذا المكان؟ وأين أنا؟ هل هذا

الشخص صديق عم رجب؟ وفجأة بعد أن استعدْتُ وعيي، تذكّرتُ مشهد أختي المسكينة وهي تستغيث بي، صرخات أختي ظلت تتردد في أذني، نظرتُ إلى الشيخ العجوز بجانبي وسألته: ماذا حدث؟ وأين أنا؟

لم يواجهني بالحقيقة ولكنه أخبرني أنّ كلّ شيء على ما يرام، وطلب مني أن أستريح لأستعيد نشاطي في أقرب وقت، وفي نهاية حديثه معي ألقاني بجملته القاتلة:

- "سأذهب لجلب الطعام لك يا يونس يا ابني "

***

(٥)

مـــالـــك

١٩٩٥

كانت لحظاتي معه طويلة وغريبة، أنظر له فقط أتفقدُّه وأسرح به، تغور عيوني في خطوطه الذهبية التي يحيطها السواد من جميع الجهات، تخشى يدي لمسَهُ، فبمُجَرّد تذكري للصوت الذي يخرج منه فور لمسي له يضطرب قلبي ويغرق جسدي بالدماء الساخنة فأشعر أني أحترق، أنا الآن تائهٌ بداخل منزلي أستقلّ سريري وعلى مكتبي يستقر السوناري

البرد في هذه الليلة قارص، الهواء في الخارج يحرك كلّ شيء حتّى أنه حرّك المشاعر الساكنة، وأكبرُ دليل على ذلك نغمة غريبة خرجت من هاتفي لم أتعود أن أسمعها كثيرًا خصصتها لأمي بهاتفي الجوال ،شعرتُ أني كالطفل التائه المسكين الطالب للاختباء فى أكثر الأماكن أمانًا بالعالم، ولكني لم ولن أبوح بما تحتاجه نفسي، كانت المكالمة باردة كعادة مكالماتنا غالبًا التي تنتهي إما بردّ دبلوماسي ينهي مكالمة مزيفة، أو بمشادّة خسران مَن يحلم بالفوز بها، اطمئنان مزيّف ومشاعر كاذبة، قلقٌ لا مبرر له، ولكن على أية حال فقد تعوّدتُ على هذا، ولكني لا أتعوّد على وجود

كتاب كهذا في حياتي، ومع عاصفة هوائية شديدة تسلّلَت إلى غرفتي، حركتُ صفحاته فصدر منه هذا الصوت المخيف مرة ثانية، وتدرّج حتّى احتلّ الفراغ حولي واحتلّ الخوفُ كياني، اندفعتُ لأغلقه فوجدتُ نفسي أتصفّحُه لأجد خرائط وصفحات فارغة ولا وجود به لنوتات موسيقية، الأمر أدهشني وجعلني أفكر خارج نطاق المعقول، هل هو كتابٌ يتشكّل باختلاف حامله؟ الأمر جنوني وغير منطقي .

احتلّ الخمول رأسي عندما هدأ الصوت وغارت معه عيوني في نوم عميق، وكدتُ أصدق أنه لن ينتابني النوم في هذه الليلة وما بعدها حتّى أتخلّص من هذا الكتاب، ولكني كنتُ أسير حسب خطّة مدروسة لم أتعرف على واضعها، ولكني بالتأكيد سأصل له، كان نومي ملغّمًا بالكوابيس التي لم أتذكر منها شيئًا سوى أني استيقظت بفزع أردّد: سوناري، وعندما انتبهتُ للساعة أمامي أدركتُ أني تأخرتُ عن ميعادي المنتظر للقاء الصديقة المصرية .

النـــغــمة الثــالثـــــة

القـــــــدر

وللقدَر أقوال أخري، وربما أقوال مؤجَّلة، تنتظر الفرصة، أو تتهيأ لها الفرصة، تأتي بغتة، لا بدّ أن تستمع إليها دون انقطاع، تهرب أو تقبل هذا اختيارك وستتحمّلُه للنهاية

(٦)

بــــرلـــين

١٩٩٥

هبطت الطائرة المتوجّهة من القاهرة إلى برلين في إحدى صباحات شتاء قارص البرودة في تمام الساعة الثانية عشر ظهرا، حينها كانت السماء ملبّدةً بالغيوم، لا أعلم جيدًا هل أقبل الصباح أم أنه مازال ينتظر الإذن له بالخروج من سطوة الليل التي لا تنتهي

قادتني روحُ المغامرة وحاولتُ التغلّب بها على هذه الطفلة الصغيرة التي تصرخ بداخلي طالبة العودة لحضن الوطن، هذه الطفلة التي دحرتني سجينة الخوف لسنوات، كفاها ضعفًا واستكانة، لابد أن تستقبل مستقبلها بشجاعة وعزيمة وإقدام، خرجتُ وأنهيتُ إجراءات خروجي واستقبلتُ حقيبتي ومازال الانبهار بفخامة المكان ورُقِيّه يزيدني عزيمة وزهوًا بنفسي لأحقيّتي بهذه السَّفرة دون غيري، وللأسف صُدِمتُ عندما خرجتُ ولم أجد ماهر ينتظرني، كان الوضع محرجًا حقًا، وكأنّ ما أبهرني بالداخل أحزنني في الخارج، ولكنها طبيعة الحياة، هناك مَن ينجزون، وآخرون يخربون الإنجازات بعدم المسؤولية والإهمال

انتظرتُ كثيرًا، حاولتُ الاتصال به ولكن هاتفه مغلق، أصابني القلق ولكن احتمالات الرأفة أصبحت تراودني، ساعات قضيتها في الاحتمالات التي لا تنتهي.

وبينما أنا منتظرة أشاهد وأقارن هذا العالم المتقدم وبهاءَه بعالَمنا النامي الباهت الذي شاخت معالمه، لاحظتْ عيناي شابًا طويلًا وسيمًا أبيض الوجه واسع العينين ذا شعر أسود أملس، ملامحه لا تدل أنه ألماني ولكن به لمحة أوروبية تضفيها عيناه الزرقاوان، دخل المطار في لهفة وصار يتلفّت يمينًا ويسارًا وكأنه يبحث عن شخص تائه منه، أو يحاول اللحاق بشخص غالٍ لا يستطيع مفارقته، سأل الأمنَ وموظّفي الاستقبال عن ضالّته، ومع مرور الوقت أيقنتُ أنه يبحث عني، فتركتُه حتّى يصل إليّ، وعندما اقترب مني علمتُ أنه الشخص المنتظر، ربما أرسله ماهر بدلًا منه، كنت أجلس بجانب مخرج ركّاب طائرة القاهرة، ولذلك اقترب مني وأخرج هاتفه وسألني بأناقة لم أتعود عليها:

- لو سمحتِ حضرتك - وهو موجه لي شاشة هاتفه المحمول - هل رأيتِ هذه الفتاة بالقرب منك؟

ابتسمتُ ابتسامة ساخرة قائلة:

- نعم كانت هنا ولكنها اختفت

فأخذ يلتفت حوله وينظر بعينه يمينًا ويسارًا وأنا ما زلتُ مبتسمة فتوجّه لسؤالي ثانية:

- ولأيّ اتجاهٍ تحركتْ؟

فابتسمتُ وأجبتُه:

- اختفت مَن بالصورة للأبد

رفع حاجبيه وتعجّب ونظر إليّ محدقا، فأتبعتُه بسؤال:

- أين ماهر؟ هل أصابه مكروه؟

وعندها انبسطتْ انفعالات وجهه وارتاحت ملامحه فظهر بهاؤها:

- لا لم يصبه مكروه ولكن باغتته سَفرةُ عملٍ مفاجِئة وأوكلني باستضافتك حتّى يعود، أهلا بكِ

ظهر على مالك اللُّطف والخِفّة، ولكني بحكم خبرتي في معاملة أصحاب المشاعر المستترة، قرأتُ في عينيه قصة حزن وحيرة وقلق، كانت اعتذاراته متتالية على تأخيره، فضّلتُ الذهاب إلى الفندق على استضافته لي والتي كانت مقررة أن تكون مع ماهر وعائلته، ولكنه اصطحبني في جولة في المدينة، شعرتُ بأنه في أغلب الأحيان يتوه في خياله، يتجمّد أحيانًا إثر فكرة يشخَصُ لها بصره وتتّسِع لها حدقتاه،

كنتُ أشعر أنه يقوم بهذه الجولة فقط لإرضاء صديقه وحتّى يعطي تقريرًا قيّمًا لصديق عمره كما وصفه لي

***

(٧)

ليلــة تغيّر بها كلّ شيء

الحقيقة دائمًا موجعة، ومهما كان ألمها شديدًا فلن نتمكن من تغييرها، ولكنه حق علينا معايشتها والتعامل معها، نعم الحقيقة كانت خيالية غير واقعية ولم أصدقها أبدًا، تغير معها كلّ شيء، وأصبح الصمت عنواني، كنت أسمع ما يقال ولا أستطيع تصديقه، أشعر بأني أعيش قصة من قصص عم رجب الحكواتي مثيرة بكل تفاصيلها

كنت وحيدًا كالسابق اسمًا ومعنى، ولكني الآن لست وحيد اسمًا، هناك من يناديني يونس، مَن هذا الرجل الذي يقف أمامي؟ لا أستطيع أن أعرفه، أنا لستُ منتميًا لهذا المكان، أنا لستُ ابنك الذي تناديه، وعندما أجبرني وعيي للعودة سألتُه عمّا حدث، واصطدمتُ بالواقع، لا بل بالخيال الذي يحكيه، بالحقيقة التي لا تمتُّ لحقيقتي بشيء

- " كانت ليلة صافية جميلة يا يونس، القمر بها بدرٌ ينير طريق الصيادين ويبشّرهم بالخير الوفير، حاولتُ أن أجعل منك صيادًا صغيرًا في سن السادسة، رجلا يشتدّ عوده سريعًا ولا يهاب البحر بأمواجه وعواصفه، فاطمأنّ قلبي للطريق، فاصطحبتُك معي في رحلة صيد استغرقت ثلاثة

أيام، منعتني أمّك كثيرًا من اصطحابك، ولكني صمّمتُ أن تكون معي، كانت الرحلةُ مختلفةً والخيرُ وفيرًا وشهيًّا، وفي رحلة العودة ظهر في منتصف السماء سوادٌ أخفى ضوء القمر، وكأن خسوفًا حدث للقمر فجأة، هاج معه البحر وأصبحت أمواجه عاتية تتأرجح السفينة معها، ترتفع وتهبط والخوف معها يقتل قلوب الصيادين، نزل المطر وضرب البرقُ السفينة، ومع انشغال الصيادين في رفْعِ الأشرعة تسحَّبْتَ أنت من غرفتك لترى ماذا يحدث في الخارج، ومع اهتزاز المركب انزلقتَ بداخل المياه، البحر لم يكن رحيمًا بك، ابتلعك بثوانٍ، واختفيتَ عن مرأى الجميع، حاول الكل إنقاذك ولكن بلا أي فائدة، ذهبتَ وذهب معك كلّ شيء

كنتُ أشعر بصدق كلام هذا الشيخ الكبير، اهتزازُ صوته، وارتجافةُ جسده، ودموعهُ التي كانت تتلألأ في عينيه، جعلني أعيش الموقف معه، كنتُ أريد أن أقاطعه وأخبره أني لستُ يونس ابنه، أنا وحيد ابن مزارع مسكين في إحدى القرى البعيدة عن البحر، أنا لم أرَ البحر في حياتي، ولكني تركته وكأني أستمتع بالحديث وكأني أسمع عم رجب الحكواتي وهو يسرد عليّ قصصَه، أكمل الشيخ إبراهيم حديثه:

- وكأن البحر هاج لابتلاعك فقط، لم يكن بالشيء السهل

عليّ ولا على أمّك التي أصيبت بالجلطة وماتت بعد أسابيع، أما أنا فقد أُصِبْتُ بالخرس الذي استمرّ معي حتّى رأيتك ثانية، لم أعلم مِن أين أتيت، ولا مَن وضعك على بابي ثانية، ولكنه القدر اختطفك مني وأعادك إليّ مرة أخرى

أصبحتُ مشوّشَ العقل مضطربَ التفكير، هل أخبر الشيخ ما حدث معي؟ أم أصمت وأرى إلى أين سيأخذني الطريق؟ سكتُّ وأصبحتُ وحيدًا مجددًا مع نفسي أتأقلم مع يونس، أحبه أعتاده علّه يروق لي

***

انفصل كلٌّ من مالك ورقية على وعدٍ باللقاء في الغد، توجهت رقية لغرفتها، والذي لا يعرفه أحد أنها تخاف الوحدة، وليس مجرد خوف بل رهبة من عودة الماضي التي حاولت نسيانه، وما لم تعرفه أنّ مالكًا كان مشتّتَ التفكير و حائرًا، وبعد عشقه للوحدة واستمتاعه بها أصبح يهابها، فوحدتُه أصبحت محفوفةً بالرعب والرهبة والتفكير في أيّ الطرق سيخوض للخلاص من هذا الكتاب، أم سيخضع له ويسير على نهجه حتّى يعرف مراده، كان خياره صعبًا وكانت ليلتهما أصعب، يعلم مالك أنه كان مضيفًا ثقيلًا وفظًّا معها، ولكنه بالتأكيد سيعوضها في المستقبل عن هذا الاستقبال الجاف

استقرت رقية في غرفتها ذات الفخامة والرقيّ، وعاهدت نفسها أنها ستواجه مخاوفها ولن تعود لما كانت عليه مهما كلّفها الأمر، ومن إجهاد اليوم والسفر خلدت للنوم السريع، ولايزال مالك يتجوّل بسيارته لا يعرف وجهته ولكنه سيق إليها، ووجد نفسه أسفل منزله دون توجّه أو تفكير منه، استسلم وصعد ليقضي ليلته بجانب قدره الراقد على مكتبه، وبمجرد دخوله من بوابة المنزل شعر بريح طيب يهلّ عليه من سنوات مضت، رائحة ذكية كان يسعد صباحه بحلولها، رائحة أخته التي امتلأ بها جوّ غرفته، والتي جعلته يغفو سريعًا دون عناء و تفكير و حيرة

" كان مالك وحيدًا ينظر من اللا مكان على الصغيرة ذات الليل المنسدل على ظهرها مختتمًا بحلقة بيضاء تحكم انسيابه، يحرسها رجلان مفتولا العضلات مظلما الوجه، صرخث وهتفت بسوناري، أفزعته صرختها وحاول الاقتراب منها لإنقاذها حتّى ظهر فجأة أمامه بوجهه المظلم ووشاحه الأسود وعينيه التي تشعّ لهيبًا حارقًا، وحال بين مالك وبين الصغيرة ، والصغيرة تصرخ مستغيثة به وهو غير قادر إلّا على التصلّب أمامه"

انتفض مالك من نومه فزعًا على صوت اصطكاك الزجاج وهبوب ريح عاصف فتح نافذته وألقاه صريعًا في جُبّ

الفزع، فأسرع لاهث الأنفاس لغلق النافذة في محاولة لطمأنة قلبه، وبمجرد أن استدار شخص بصره إلى الكتاب الذي تيبّس على صفحة بعينها، فذهب يفحص الكتاب يحاول غلقه.

وفي تمام الثالثة ليلًا، هذه الساعة التي تعشقها قوى الظلام، بدأت النغمة تعزف من جديد في غرفتها، وبينما رقية تحاول تكذيب سمعها والغوص في منامها علّها تهرب منها إلّا أنها كانت تقترب أكثر فأكثر، فانتفضث لتغسل وجهها في حمام غرفتها، فرأته في مرآتها من جديد، و كعادته ظهر لها يداعب خوفها ويذكّرها بماضيها ويبعث لها برسالة واحدة، وهي أنها ليست بمعزل عنه، وبينما تتحرك شفاهه ليطلق كلمته التي تعرفها جيدًا (سوناري) كانت هي من دون تفكير تجمع أغراضها المتناثرة من غرفتها حاملة بيدها الكارت المدوَّن به عنوان مالك واتجهت للوجهة الوحيدة التي تعرفها في هذا البلد هربًا منه

وبينما هي تتوجه له كان هو يحاول البحث عن وجهته التالية بعد ما عقد النية على اتباع المسار المجبَر عليه من الكتاب، يحاول فكّ طلاسم الخريطة التي ظهرت على الصفحة الوحيدة في الكتاب

حاول مالك تصوير الخريطة من الكتاب ولكن في كلّ مرة

تظهر الصورة بمظهر غلاف الكتاب، الخلفية السوداء المطعّمة باللون الذهبي مطبوع عليه كلمة سوناري، فتوجّه للبحث عن كلمة سوناري نفسها والتي اكتشف أنها ذات أصل إيطالي وبمعنى إصدار الصوت من آلة موسيقية، وهنا تذكر النغمة التي سمعها قبل ذلك مع هذا الكتاب وربط بينهما، وعرف أن النغمة هي قطب من أقطاب حل هذا اللغز

وبينما هو يفكر في مخرج من هذا المأزق سمع صوت طرقات خفيفة على باب منزله، نظر لساعته، إنها الثالثة والنصف ليلًا، من الذي سيزوره في هذا التوقيت؟

ارتعب وارتجف واهتزت أطرافه، ترك الصوت قليلًا ربما سيختفي، ولكنه كان يتعالى ويتسارع، توجه للباب وهو متردد، فتحه ببطء ليجدها أمامه، أنفاسها متسارعة وعيونها حمراء باكية، تفاجأ بها للحظة ولكنه تدارك الموقف وأدخلها وهي تتأسّف له عن اقتحام حياته، ولكنها لا تعرف غيره في هذه المدينة

لم يسألها مالك ما بها ولكنه يعرف أنّ الغريب كالغريق، في البداية يقاوم علوَّ الأمواج وهياجها حتّى يتعوّد عليها ويألفها وتصبح له حياة

فرحّب بها وحاول طمأنة خوفها الذي يستولي عليها، ومنذ هذه اللحظة أُحكِمَتْ عليهما أقدارُهم وأصبحا بقبضة

مصيرهما الذي يُساقان إليه بمكر وهما لا يعلمان

النغمة الرابعة

إنعاش

بعد انتهاء العدد يأتي المدد

فالحياة ماهي إلّا مدد يتبعه مدد ثم مدد بلا عدد

توقُّعات لما هو آت

هربًا من ماضٍ قد فات

لم يحمل معه سوى الآهات

حنينٌ لحياة لم تُعَش

بعثًا لحياةِ قلبٍ في الأنين عاش ومات

ينتظر ولا يحتاج سوى أنفاس لينعش ما فيه قد مات

(٨)

الإســـــكـــنـــدريـــــــة

١٩٣٩

نسماتٌ لهواء البحر البارد، وأصوات الأمواج المتلاطمة، ورائحة اليود المطلّة على الأهالي من أعماق البحار، جعلها ليلة جميلة هادئة، الكل مستكين ومطمئن، مَن في منزله يستمتع بليلة دافئة، ومَن خارج بيته يشعر بالأمان والهدوء ونشوة الانطلاق .

سألته وأصابعُ يدها تتشابك مع أصابع يده وتختبئ بحضنه وهما ينظران للبحر مباشرة: هل كان الإسكندر يعلم أنه يقيم بداخل مدينة جميلة كهذه عالمًا يجمع كلّ الأجناس والأعراق؟ هل كان يعلم أنه سيبقى خالدًا يتردد اسمه على الهائمين في حب مدينته؟ أم كان ساحرًا سَحَر العالم أجمع بهذه الزمردة الأنيقة التي مازالت تتلألأ؟

كانت الطرق نديَّةً بندى البحر الممتع، حيث اعتاد الخواجة أنطوان الخروج مع زوجته سيلينا كلّ ليلة إمّا ليتراقصا مع أصدقائهما في كازينو الشاطبي، أو ليشاهدا فيلمًا جديدًا في سينما الكوزمو

يعتبر من علية القوم، فقد كان تاجر ساعات مشهورًا، يعمل أيضًا فى التحف والآثار النادرة، تزوج هو وسيلينا من ثماني سنوات في روما عاصمة الجمال، لم ينجبا إلّا ابنة وحيدة وُلِدتْ في الإسكندرية بعد وصولهما بسنة ولذلك أحبّا المدينة وتعلّقا بها واستقرّا فيها، بنى الخواجة أنطوان قصرًا غاية في الجمال على شاطئ المعمورة، واستقرا به، وأصبحت مدينتهما الثانية، بل الأولى على حدّ عشقهما لها، لم يشعرا يومًا بالغربة لأنّ الإسكندرية تشبه كثيرًا روما في مبانيها وتراثها وحضارتها.

نظر في عينيها:

- ألا تعلمين ياحبيبتى أنّ الإسكندر لم يستكمل بناء الإسكندرية ولم يرها كما هي الآن ؟

نظرت بتعجّب له:

- هذا كلام غير معقول أبدًا يا حبيبي

أكمل الخواجة أنطوان وهو ناظرٌ للبحر أمامه:

- نعم حبيبتي، لقد وضع فقط حجر أساسها وأوْكَل المهمة إلى مهندس بارع أمر بتخطيطها، فبناها على شكل رقعة شطرنج، شوارع مستقيمة من الشمال للجنوب، وكذلك شوارع مستقيمة من الشرق للغرب، ولم يكن يعلم أنها

ستكون ملتقى لكلّ الأديان، وستتقاطع فيها كلّ الأجناس، ويعيش فقيرها مع غنيّها على نفس الخطوط المتشابكة، اشترك بعد ذلك الجميعُ في تزيينها لتُهدَى للمصرين في النهاية، وها نحن سنرى إلى أي مدى سيحافظ المصريون عليها

بدأت سيلينا تنكمش على نفسها، فالوقت تأخّر، وبدأ البحر يزفر ذرّات الهواء البارد، فضمّها زوجها الأنيق بين أحضانه واتجها إلى قصرهما الذي لا يبتعد عنهما كثيرًا، وعند الاقتراب من سور القصر الفخم، لاحظ الخواجة شيئًا متحركًا أمام بوابة المنزل، ومع الاقتراب أكثر لاحظ جسم طفل ليس بالصغير ولكنه صبيٌّ في العاشرة متَمَدّد أمام المنزل، يرتجف أو ربما أغمى عليه من البرد، ملابسه مبللة، ووجهه أصفر شاحب، اقترب الزوجان منه، حاولا إفاقته دون جدوى، نادى الخواجة على حارس قصره، فقد كان الجميع داخل القصر يستمتعون بالقليل من الدفء، خرج عمّ حسن مسرعًا وهو ينظر للطفل الملقى أمامه، كانت نظراته تُشِي بشيء من الرهبة والخوف

- استرِح أنت يا خواجة واترُكه لديّ حتّى يفيق من غيبوبته وأعلم من هو

ولكن سيلينا بطيب خلُقها وحنانها أمرته:

- أحضِر الطبيب بسرعة يا عم حسن وانقله للأعلى وأسكِنْه غرفة الضيوف في الطابق الثاني، هناك أكثر دفئًا وأمنًا

حمله عمّ حسن وصعد به إلى غرفة الضيوف، وقامت الدادة فاطمة بتغيير ملابسه وتدفئته

بدأت سيلينا تشعر بشيء غريب تجاه هذا الطفل المسكين، انجذبت له انجذابًا خاصًا، بدأت تتبادل للاطمئنان عليه هي وكاميليا ابنتها التي خاضت للتوّ حربًا مع الدادة فاطمة فقط لتوافق أن تغمض عينيها وتنام

وعندما حضر الطبيب وفحص الولد جيدًا، ظهر وجود كدمات في رأسه وفي ظهره، آثار لأظافر على رقبته، وأفادهم الطبيب بأنه إمّا أنه غرق ولفظه البحر على الشاطئ، أو أنه بالفعل واجه هجومًا فقد الوعي من بعده، أحضر الخواجة ممرضة خاصة له إلى أن يفيق من غيبوبته، وبدأ بتصويره ونشر جميع الصور على المحافظات لكي يستدلّ عليه

مرّ أسبوع كامل، ولم يفق الولد، أصبح القلق سيد الموقف في منزل الخواجة أنطوان، سهرت سيلينا كثيرا تتأمل ملامحه، تستشعر مدى قلق أمه أو أبيه عليه

ماذا يحدث لهذا الطفل المسكين إذا واجه المكوث في

إحدى دور الأيتام أو الرعاية؟ بدأت تفكر في أن تتبنّى هذا الطفل ما دام أنهما لم ينجبا صبيا فليكن هو ابنهما إذًا، نبض قلبها له فأخفَتْ قرارها بتبنّيه وانتظرت ما ستؤول إليه الأحداث

وفي ليلة اجتمع فيها الخواجة وزوجته والطبيب في بهو القصر تسللت الصغيرة كاميليا إلى غرفة الصبي، وأخذت تنادي عليه وتمسح على يديه، أفاق يونس على نعومة يد هذه الصغيرة الرقيقة ذات الشعر الذهبي والبشرة البيضاء النقية النضرة وعينيها الزرقاوين وبسمتها البريئة التي أسرته، تجوّلت عيناه في المكان، السقفُ من فوقة مطليّ باللون الذهبي الراقي، الحوائط بيضاء ناصعة، الأثاث أنيق، ويكفي هذه الملاك التي تداعبه، فاختلفت إفاقته هذه المرة عن مرّاته السابقة، وبكلّ الأحوال حدّث نفسه باستحالة التخلي عنها، لا بدّ من الحفاظ عليها مهما كلفه الأمر

حدثت أشياء غريبة في القصر منذ قدومه، فقد ترك العمّ حسن حارس القصر عملَه لأخيه وأسرته وذهب هو إلى قصر مجاور لهم، بالرغم من غضب الخواجة منه، ولكنه اعتذر بأشياء غير منطقية، تجارة الخواجة ازدهرت وحصل على مزادات هامة، فبدأ قلبه يرق لهذا الطفل المسكين النائم في منزله، ويصفه كما يصف المصريون: وشّ الخير

استرعت ضحكات كاميليا ونداؤها بتومي انتباه الجميع، أسرع الأب والأم ليشاهدا ما يحدث في الداخل، وجدا الطفل قد استعاد وعيه وعاد إلى الحياة ثانية على يد كاميليا الصغيرة، يلعب معها وهي تضحك بمرح، ولكن قد اختفت حبال صوته لتعلن عن تخلّيها عنه في أشدّ الأوقات حاجة لها.

سُئل عن اسمه فلم يُجِب، سئل عن مدينته فلم يجب، سئل هل له أهل قلقون عليه؟ أشار برأسه بلا، وهنا اطمأن قلب سيلينا مبدئيًّا، واطمأن قلب الطفل الذي بدأت حياته تسلُك مسارًا آخر لم يكن بالحسبان

***

(٩)

قدر يساقون إليه

ليلة عاصفة غريبة، بداية من رائحة المطر الخانقة، ولمعان الطرقات والريح العاصف وزائرة نهاية الليل التي أبدلت الخوف أمنًا وخفّفت من حدّة توتُّر هذه الليلة.

هدأتْ رقية قليلًا بعد مشروبٍ دافئ وكثير من الأمان، حارت عيونها هربًا وخوفًا من الاستفسار عمّا حدث لها، تعلم أنها اقتحمت حياته فجأة وهي لا تعلم حتّى ظروفه، ولكنها اضطرت لهذا حتّى لا تقع ثانية في أسر الغياب، بدأت بسؤال ساذج:

- هل أجد مكانًا عندك للمبيت الليلة؟

حوّل مالك مسار الحديث وأزاح الرعب المستتر في صوتها ويطلّ من عينيها بدعابته:

- ألم يكن القرار الصائب من البداية؟ من المتضح أنك عنيدة، بالتأكيد هذا بيتك وإن أردتِ أن أتركه لك وأذهب سأذهب

خرج صوتها مهتزًّا مرتجفًا وكأنها تفرّ هاربة خائفة من وحشٍ خلفها:

- لا لا أنا هاربة من الوحدة، آسفة أستاذ مالك؛ ولكني أحتمي بوجودك، كنت خائفة للغاية في الفندق ولم أجد سواك حتّى ألجأ إليه

اختصر مالك عليها الطريق، فهو يعلم أنّ هذا منافٍ لتقاليد المصريين، فالسائد عندهم أنّ اجتماع رجل وامرأة لا بدّ وأن يصاحبهما الشيطان ليعبث بغرائزهما ويحيلهما لاتباع شهواتهما، فقدّم لها غرفته التي تحوي حمامًا خاصًا بعد أن أزال ما بها من لعنة، وقدّم لها مفتاحها واتجه هو لغرفة أخرى بعيدة عن غرفتها تمامًا وتركها لتستريح، ولم يتطرّق لسؤالها عن سبب خوفها، وترك لها حرية الإفصاح عن السبب ولم يتطفّل عليها، شعور غريب بالانتماء يجذبه إليها، ولكنه غائر في وحل السوناري، خائف من بناء علاقات شخصية لا تنبض بالحياة

نامت رقية مطمئنة لوجود مالك، لا تعلم من أين جاءها هذا الشعور بالسكينة والأمان بجانبه، وكأنه مرتحل عاد لوطنه بعد طول غياب، ولكن طبعت الأحلام على هذا السرير بمذاق الخوف والفزع، وغارت هي الأخرى في كابوس موجّه، فرأت نفسها وكأنها طائر في السماء ترى كلّ شيء بوضوح، ترى أسفل منها البحار والجبال تمرّ بسرعة رهيبة، ترى حقول خضراء يقوم مزارعوها على رعايتها، ترى مدارس

يلهو طلابها في فنائها، استقرت رحلتها فوق حديقة لقصر ضخم، بها طفلة صغيرة تلعب في البستان، طفلة لا ترى ملامحها ولكنها بيضاء قصيرة، شعرها أسود كالليل أملس طويل يغطي ظهرها، دخل شابٌّ من بعيد فهرولت الطفلة إليه كالحبيب المتلهف لإحساس الأمان بحضن حبيبه، ولكن فجأة أعترضهما شخصٌ ضخم طويل ملفح بالسواد يقف أمامها مباشرة حال بينها وبين هذا الشاب، ومن الأعلى ترى رقية الطفلة وهي تُسجَن في سور زجاجي وتصرخ ولا أحد يسمعها، تحاول رقية أن تصرخ لتنبّه الشاب ولكن يبقى كلّ منهم في حالته جامدًا لا يتحرك، وكأن الزمن توقف بهم إلّا هذا الرجل الضخم، فقد سمع صوتها، فنظر إليها فرأته وعرفته، هو من يذيقها من أهوال العذاب الكثير منذ اليوم المشؤوم ، ارتجف قلبها وبدأ الخوف يزلزل كيانها، حاولت أن تطير وتهرب منه حتّى وجدته يطير خلفها، أسرعت أكثر حتّى وصلت لسريرها الذي يرقد عليه جسدها، وفي النهاية سمعته وهو يقول ويشير إلى جسدها المتيبّس:

- (من هنا)؟

نظرت له والمسافات بينهما تزداد وهو يشير إلى الأسفل بسبابته ويقول:

- (من هنا)؟

قفزت مسرعة إلى جسدها تنظر إليه وكأن روحها تأبى الاستكانة في جسدها، وتحاول العودة لإنقاذ الطفلة، وفجأة سمعت صوتًا مضخّمًا لنغمة قذفت في قلبها الرعب، فعادت روحها مسرعة متلبّسةً بجسدها وكأنها تختبئ خلف سور ضخم تحتمي به، وعندها عاد وعيها ثانية من سباته ولا تعلم ما حدث بعد ذلك، هل صرخت؟ هل بكت؟ هل فقدت وعيها؟ لا تعلم

استيقظ مالك على صوت أنين يأتي من خارج غرفته، خرج مسرعًا ليجد رقية ملقاة على الأريكة في الخارج باكية ترتعش، تنظر إلى الغرفة بترقّب وخوف، تضع يدها على أذنها تحاول كتمها، أسرع نحوها يحاول تهدئتها، وكأنها في نوبة عصبية لا تشعر بشيء على الإطلاق، تنظر إلى الغرفة فقط، أغلق باب الغرفة وأشعل المذياع على القرآن حتّى نامت وهي على الأريكة في الخارج، وضع عليها الأغطية، وحاول إكمال ليلته على الأريكة المقابلة لها، تسرّب إلى قلبه إحساس بالذنب، ربما ما أصابها كان بسبب هذا الكتاب الراقد في غرفته، ربما أصابتها لعنة تطال كلّ من يقترب منه، حاول التفكير فيما يحدث لها، ولكن غلبه النعاس وهو أمامها، ولم يستيقظ إلّا على صوت هادئ رقيق

- مالك، استيقظ يا مالك

وعندما بدأ شعاع النور يتسرب لعينيه، وجدها بدون أي مساحيق تجميل، طبيعتها الجميلة الرقيقة، تنادي عليه بشفقة، تتأسف لتعبه معها الليلة السابقة ونومه بهذا الشكل، ولكنها لا تعلم أن الحقيقة أنه لم ينم في الليالي الماضية براحة كنوْمته هذه منذ حضورها، نعم جسده تيبّس وأصبح صلبًا صعب التحريك، ولكنه مرتاح العقل، وشتّان بين راحة الجسد وراحة العقل، فراحة الجسد تحتاج ساعة، وراحة العقل تحتاج ألف ساعة، فقال بصوته الناعس وهو مدرك لما تراه رقية:

- أعتذر منكِ عن نومي هنا، كنتِ في حالة مزرية بالأمس ولم أستطع أن أتركك بمفردك

ولكن رقية هي مَن اعتذرت:

- بماذا تتأسف؟ ولماذا تعتذر؟ أنا مَن وجب عليّ الاعتذار، أنا من خرّبتُ عليك ليلتك، ولكنها بالفعل أولى ليالي حياتي التي أقضيها وحيدة بعيدا عن أهلي، ولهذا ارتعبتُ في الفندق وحدي

وبلطف شديد بادلها مالك الشعور:

- نحن معرَّضون جميعًا لهذا الموقف، لا تقلقي، هذه هي الغربة ولا بدّ أن ندفع ضريبة طموحنا.

وعلى مائدة الإفطار اجتمع كلّ من مالك ورقية، لا يصدق مالك أنّ هذه مائدته التي هجرت لشهور، شكرها وأبدى إعجابه بمذاق الطعام بالرغم من عدم وصول البيض إلى درجة النضج الكافي، إلّا أنه قدّر تعبها، بدأت رقية في الثرثرة عن أهلها مستمدة من سيرتهم الأمان والقوة، أسرَته دموعها فألهبث بداخله نيرانًا ما زالت مشتعلة يخمدها أحيانًا بالتعوّد والنسيان، ولكنها سرعان ما تشتعل عندما يغلبه اشتياقه لدفء كان قد تعوّد عليه وظنّ أنه لن يزول.

فغلبه تصرّفٌ أحمق، فبينما هي منسجمة في سرد ذكرياتها، قبض هو بيده على مفاتيح سيارته واستعجلها لكي لا تتأخر على موعدها، ومع سكوتها فجأة شعر هو بذنبه تجاهها، وللمرة الثانية أصبح مالك مدينًا باعتذار لرقية على معاملته الفجّة معها

فاقترب منها وتأسّف لها على ما صدر منه، وبصوت رقيق حاول به تكفير ما فعله في السابق قدّم لها نسخة أخرى لمفتاح المنزل لتطمئن، اضطرت رقية إلى قبول العرض لأنها لم تجد غير هذا الحل ملجأ لها، توجّها إلى وجهتهما، كلٌّ منهما صامت ينظر للطريق، ولكنهما بالفعل تائهان بداخل دائرة ليس لها مخرج، كلّ منهما تضجّ رأسه بالأفكار وربما الذكريات وربما التفكير في أقدار لم يكونا على قدر كافٍ مِن

تحمّلها.

(١٠)

اختفاء مبهم

انحصر مالك بداخل دائرة من التّيه والتشتت، ولم ير حتّى بصيص نور لينير طريقه، تجوّل بسيارته تائهًا بدون وجهة، الطرق مشوَّشة، والفضاء ضيّق يُشعِره بالاختناق، لم يستطع الذهاب لعمله، استقرت سيارته وحدها عند شارع يقابله سلّم يعرفه جيدًا، هذا السلّم المؤدي إلى المكتبة التي اشترى منها الكتاب، وجد أنّ قدميه تتحركان بدون أدنى أوامر منه لسير طريقهما نحو المكتبة، وربما نسج عقله الخطط وأعطى الأوامر دون أن يسأل هل كان مستعدًّا لهذه الزيارة أم لا، ولكنها حدثت، صفّ سيارته وترجّل على قدميه وصعد السلم ليتضح له الشارع المقابل، تسمّر جسده عندما رأى المكتبة المقابلة وتعجّب، ليست المكتبة التي اشترى منها الكتاب سابقًا، يتذكّر أنه شارع قديم ومكتبة قديمة، سأل أحد المارّة عن وجود مكتبة أخرى هنا، كان الجواب بالنفي يهز كيانه

ذهب للمكتبة وسأل موظفة الاستقبال عن وجود أي مكتبة قديمة في المحيط، وعندما نفَت طلب منها أن تتأكد من السجلّات عن اسمه ورقم هاتفه واسم الكتاب الذي ابتلاه به القدر، لم يُكتَب شيءٌ ولم يُذكَر هذا اليوم بالأساس في

سجلّات زيارة المكتبة لأنه كان يوم إجازة المكتبة وكانت مغلقة، كلّ شيء ارتبك بداخله، انتشل بلهفة السجلات من الموظّفة، وظلّ يبحث عن أيّ شيء يثبت لها أنه على حق فلم يجد، تركها وذهب بدون أي كلمة، تاه كلّ شيء في عقله حتّى تاهت عنه خيوط التفكير

اغرورقت عيناه بالدموع، وذهب هائمًا في الطريق، لا يعرف لطريقه بداية، ولن يكون طماعًا ليطمح برؤية نهاية

دموع عينيه أعادت لذاكرته ذكريات الماضي عندما كان يحصل على درجات سيئة في أي مادة ويخاف أن يذهب لأمه ليخبرها، يعتبر هذا أسوأ يوم في حياته لأنه كان يعلم عقابها، وهو السجن وحيدا في غرفة مظلمة ليومين كاملين لا يتكلم ولا يكلمه أحد، ربما ظنت أنها بهذه الطريقة تُبَغّضُه في الوحدة، ولكنها لا تعلم أنه تعوّد عليها وأحبها، وكانت قسوتها عليه هي سبب عناده معهم في تعليمه، ولكنهم بصّروه بالجانب المظلم للنجاح، فاختار هو الجانب المضيء للفشل، اختار هو أن يفشل في نظرهم ولكن يعيش إنسانًا ناجحًا في نظر نفسه.

خانته قدماه ليجد نفسه أمام مكتبها، ربما حواسّه احتاجت لدفء الأم دون أن يشعر، ذهب إليها وعقله لم يمنعه ولم يذكّره بآلام بُعدِها، وهجْرها لابنها الوحيد، كان هناك زحام

شديد أمام بوابة مكتبها، وقف خلف شجرة بعيدة ليشاهد ماذا يحدث، لابد أن أمه توصّلت إلى اختراع جديد في مجالها.

استدار وولّى ظهره لها ولكنه ترك العنان لدمعة حرمان محبوسة بداخل عينه لتجد طريقها في السريان لتبلّل لحيته الخفيفة، ولكنها رأته، وأرسلت مساعدها ليتبعه ويناديه:

- أستاذ مالك، أستاذ مالك، دكتورة منال في انتظارك

نظر خلفه يُمَنّي نفسه باستقبال حافل، ولكنها لم تنتظر حتّى لتستقبله أمام مجمعها العلمي، بل أنهت لقاءها وذهبت تستتر خلف زجاج غرفتها في الدور العلوي، اضطر للذهاب لها، وتمنّى أن يجد معها الراحة، دخل مكتبها فوجد بيدها سماعة الهاتف تهاتف مدير مجمعها وتحاول أن تصل له برسالة مفادها أنها فقط عشر دقائق لتتحمّل مهامّ أمومتها، فقط هذا هو الوقت المسموح له مع أمه، كاد أن يغادر ولكنها أغلقت هاتفها في استئذان سريع من طالبها، ووجهت له السؤال المباشر:

- مالك، لماذا لا تريد مقابلتي؟

استدار لها قائلًا في سخرية:

- حتى لا أشغلك عمّا هو أهمّ منّي

فبادلته سخريته:

- لا تقلق يا مالك أنت تعلم أن وقتي محسوب، أقبل واجلس واحكِ لي ما للوهن ووجهك الجميل؟

لم يجد في ملامحها بالرغم من صيغة الكلام الحانية أيّ نظرة حنان أو عاطفة، مهما احتال وجهها مازالت ملامحها جامدة

ولكنه احتال عليها أيضا بردّه:

- لا تقلقي عليّ، كنت أسمع اليوم آيات عن صلة الرحم، ورفضتُ أن أكتَب من العاقّين

كان يعلم أن أمه تكره تديُّنَه بالإسلام، كان من ضمن مشاكله معها وهو صغير رفْضُه لمصاحبة غير المسلمين، ورفضه للذهاب للكنيسة، كان يختنق كلما ذهب مع أبيه في الآحاد، حتّى وجد طريقه إلى المسجد مع صديقه المسلم وأسلم، ولذلك لم يجد منها أي ردّة فعل، وقالت بكل جمود وهي تنظر إلى المفكرة أمامها:

- مالك أنا متفرغة يوم الأحد المقبل وتقريبًا والدك سيكون موجودًا، أريد وجودك حتّى نجتمع من جديد

تعجب من طلبها، فهل رؤية أهل بيتك أصبحت الآن

بميعاد؟ أراد أن يحرجها ويبرر لها رفضه برُقَيّة، حدثها أنها صديقة لماهر وأنها مراسلة لجريدة كبيرة في مصر

تحوّلت أمّه لشخص آخر أكثر عصبية، وتحركت فجأة بكرسيّها يمينًا ويسارًا، موجّهة له التعنيف المعتاد:

- ألم أنهَك مئات المرات عن معرفتك بماهر هذا وعن التحدّث بالمصرية أو التعرّف على أي شخص من هناك؟

وكانت هذه أكبر خلافاتها غير المبررة معه، نظر لها وبكل هدوء توجّه لمكتبها واستند عليه واقترب منها حتّى أصبح في مواجهة مباشرة لوجهها.

- تتذكرين جيدًا عدم اعتراضي على حديثك، و لكنك لا تتذكرين شرطي الوحيد لموافقتك الرأي، وهو أن تعوضيني أيام حرماني منك، أتستطيعين؟

اتركي هذا الشرط، بالتأكيد مستقبل البشرية الذي أهداه الله لكم أهمّ من سذاجتي وحقدي، ولكن هل لك أن تخبريني لماذا لا تريدون اختلاطي بالمصريين؟ هل لك أن تخبريني لماذا تكرهون مصر والمصريين؟ ماذا تخفون عني؟

وفي هذه اللحظة دخلت إحدى المساعدات تستعجلها لحضور مؤتمر عاجل، لملمت أمه أوراقها دون النظر له وقالت وهي تذهب وكأنه لا شيء أمامها:

- سأستمرّ في إخبارك بجملة واحدة فقط:

" لن تتحمل المعرفة، ولذلك لابد ألّا تعرف "

***

النغمة الخامسة

الفوضى

ارتباكات، اختلالات

أفكار متداخلة، وآراء متضاربة

أصوات كثيرة تهذي

تضحك أحيانًا وأخرى تبكي

تراها صامتة وهي تصرخ

هادئة وهي تثور وتغلي

تحتاج لدليل لتسير وفق المخطط والمكتوب

ولكنها في النهاية مختارة لتكون سراجًا في درب الوصول

لعالم المجهول

(١١)

تومـــــاس

١٩٣٩

المجهول شبحٌ ولود خصب لن يلد إلّا مشاعر الخوف والقلق والاضطراب، يميت بداخلك مشاعر الفرحة والاطمئنان والاستمتاع بكل لحظة كما هي، ينسج لك من الأحداث والأفكار ما يجعلك تنبذ الحقيقة وأحيانا تنبذ نفسك ويدمّر كلّ صالح بداخلك بفرضية أفكار نسجها لك خوفك من المجهول لم ولن تحدث إلّا في عقلك المحتل

تلك كانت مشاعري عندما فتحتُ عينيّ للمرة الثانية لأجد نفسي في منزل غريب وبيئة غريبة وأناس أغرب، لهجتهم بعيدة كلّ البعد عن لهجة المصريين، إحساس الطفل الذي بداخلي يجعل طيفًا من الفرحة يتراقص أمامي، فإن سمح لي القدر لأعيش حياة مثل هذه فستكون مكافأةً لي عمّا عشتُه من قبل، ولكن إحساس الغريب المتلاطم على أمواج المجهول كانت تشعرني بالخوف والقلق من القادم، وكأن مركبي تأبى أن تستقر في أيٍّ من شواطئ الأمان والدفْء وأعيش حياة مستقرة هادئة، وها أنا ذا للمرة الثانية تهبط بي سفينة القدر على شاطئ لا أعلم ما يخبئ لي ولكني الآن

أتطلع للعيش به

اكتشفتُ مع لحظات لقائي الأولى بتلك الطفلة الجميلة أن ليس عقلي مَن تحيّر فقط من أمري، ولكن صوتي أيضًا هرب مني ولم ينجُ بعد من تلك الحرب التي أوْدَت بي إلى هذا القصر، هرب وكأنه يساعدني على التفكير والترقّب، لربما كنتُ أخسر كلّ شيء عندما يفصح صوتي ولهجتي عمّا حدث معي، فيخاف مني أهل البيت ويتركونني في الشارع بلا مأوى، تركتُ نفسي لكي أسمع و أتدبر وأفكر فيما سيحدث، كنتُ بجسم طفل في العاشرة ولكنّ ما حل بي جعلني أفكر بعقل شابٍّ عشريني ناضج.

أصبحتُ تومي الطفل الأنيق بلباس جميل غير الجلباب، بذلة صغيرة وقميص وصيديرى وبابيون، أحببت هذه الحياة مع تلك الصغيرة، اعتدتُ أن استمتع بوقتي معها من الصباح الباكر حتّى أخلد إلى نومي، وكانت أحيانا تنام معي، ارتبطَتْ بي كأخ وارتبطتُ بها كطوق للنجاة، بدأتُ أحضر معها دروس اللغة ودروس الموسيقى، كنتُ أشفق عليها كثيرًا، سرقوا طفولتها وبراءتها بتلك الحركات المصطنعة لجعلها ابنة للطبقة الأرستقراطية، ولكنها كانت متمردة على كلّ هذا

ذات يوم كنتُ في غرفتي وسمعتُ صوت الأب أنطوان في شجار مع زوجته سيلينا، وهذا أول شجار أسمعه بينهما

عن رفضِه لرغبتها في انضمامي لعائلتهم وتسجيلي باسمهم، هو يرفض أن يتبنى ابنًا أخرس لن ينفعه بشيء ولن يثق به لجهله بنشأته، كان هذا بمثابة الموت بالنسبة لي، فلن أتخلى عن هذه الحياة مهما كلفني الأمر

قضيتُ ليلتي في استعادة ذكريات ليلةٍ تغيّر فيها مسار رحلتي في هذه الحياة، روّضْتُ حبال صوتي لكي تعود، حاولتُ أن أطمئنها أننا هنا بأمان وأني لم أستسلم ورفضت أن أعطي حياتي لمن لا يستحقها، ولكن تلك الليلة كانت حاسمة لكل شيء، كان أبي قد تغيّر معي منذ فترة، وكان يتعامل معي بجفاء كبير منذ الليلة التي مرضتُ بها ورفضت الذهاب معه إلى الصيد، لاحظتُ أنّ نظراته وتصرفاته تجاهي قد تغيرت، كنتُ أخاف منه أحيانًا، ولكن في هذه الليلة بالذات صمّم أن أذهب معه في رحلة الصيد، ولكنها كانت رحلة غريبة

أخذ القارب الصغير، وعندما وصلنا إلى منطقة معينة في مسافة ليست بالبعيدة عن الشاطئ توقف القارب، كان القمر مكتملًا والسماء ملبّدة بالسحب، وسمعتُ الصوت نفسه الذي كان يصاحب العاصفة التي أوْدَتْ بحياة أمي وأبي وربما أختي، ارتجف قلبي وعلمتُ أن هناك ما يخفيه الصياد عني، كان الوضع مرعبًا، سماء ملبدة بالسحب، ضوء القمر ينير

البحر بلون خافت، ضباب يعيق رؤية الموج من خلف الأفق، وهذا الصوت المتعالي المقترب، فزِع الصيادُ عند سماعه، فعلمتُ أنه يسمعه كما أسمعه، سألته:

ما هذا الصوت المرعب؟

أجاب بصوت مخيف ليس صوته، ولكن بنبرة أضخم أغلظ وأرعب:

- إنه النداء

سكتُ واستشعرتُ الخوف منه، طلبت العودة، استجدَيتُه بصوتي المتوسل إليه:

- يا أبي نحن قرب الشاطئ ولن يكون الطرح ناجحًا هنا، ولن نحصل على مرادنا، أرجوك هيا بنا لنعود، فلن أطمئن الليلة للبحر

نظر لي نظرة ألجمَتْ الطمأنينة بداخلي وأطلقت العنان لخيول الخوف لتمرح وتبرح بداخلي كيفما تشاء، وأمرني بعينه بطرح شباكي في البحر، ألقيتُ الشباك وانتظرت، ولكن أبي نظر إلي وقال:

- ألقِ بنفسك خلف الشباك

نظرتُ له في رهبة شديدة ممزوجة بخوف مضطرب

أتساءل:

- هنا يا أبي! لماذا وأنا لا أجيد السباحة كما تعلم؟ ولماذا ألقي نفسي هنا في منتصف البحر؟

أجاب بصوت يفضح خوفًا مختلطًا ببعض الرأفة :

- لا بدّ أن تلقي بنفسك هنا لكي يعود لي يونس ابني

ألقى بجملته عليّ وكأن زلزالًا شديدًا هزّ كياني، واهتزت معه السماء، وتخبّطت السحب ورعدت رعدًا شديدًا، وبدأت تعزف لحن الكبرياء والعظمة ملقية على قلوبنا شباك الرعب والدهشة، فقد تأقلمتُ أني يونس وبدأتُ في التعايش مع حياتي، وجّهتُ ثانية نظري للصياد وسألته بدهشة ممزوجة بأمل:

- أولستُ أنا يونس؟

ومع هطول المطر الشديد بدأت كلماته تهطل على أذني كجمر النار:

- منذ اليوم الأول وأنا أعلم جيدًا أنك لست يونس ولكني أردتُ أن أصدق أنك هو، حتّى أجد لنفسي سببًا للعيش من جديد، لا أنكر أنك تشبهه كثيرًا ولكنك لست هو، أنت شخص آخر لم أعرفه، ولكني الآن لا بدّ أن أستعيد ابني يونس من

بطن البحر، هم لن يعيدوه لي إلّا إذا أعدتُك لهم، أنت المراد بالأساس

صرختُ في وجهه:

- لماذا تتلاعب بي؟ أنا يونس أمامك، وإذا افترضنا أن كلامك صحيح، فمن أخذ يونس منك؟ ومن سيأخذني؟ ومن سيعيده إليك؟

قال وهو ينظر للبحر:

- ابني روحه مسجونة في باطن البحر منذ أن خطفوه مني، بالأساس هو خُطف مني لأنه شبهك، هم يريدونك أنت، يريدون روحك أنت يا وحيد، ابني رهين عندهم بسببك، أنت من يحتاجونه وليس هو،

"وحيد " أعادت الكلمة لي حنينًا لسنين مضت، ثماني سنوات أعيش وأنا وحيد

- أنت نطقت بوحيد، صحيح ؟! هذا يعني أني وحيد وليس يونس، لماذا جعلتَني أعيش أعوامًا أني يونس ابنك؟ أختي كانت تحتاجني، لا بدّ أن أطمئن عليها

وبدأتُ أنظر للشاطئ ويعلو صوتي: لا بدّ أن أعود لمنزلي وحياتي

وفجأة صاح بوجهي وهجم عليّ كأسد شرس ينقضّ على فريسته:

- منزلك هنا

وهمّ أن يدفعني إلى البحر وهو يردد:

- أنت تنتمي إليهم، أنت ابنهم

وبالفعل سقطتُ في البحر، ولكن ليس بمفردي، فقد أمسكتُ به ودفعتُه معي، وانقلب القارب الصغير بنا

هاج البحر علينا، لم أعلم غضبًا عليه أم عليّ، أم شوقًا إليّ كما يقول، ولكني تأكدت أني بريء من كل ما يحدث، عندما غرقنا وحاولتُ إنقاذ نفسي لم ألاحظ إلّا من كان يدّعى أنه أبي يغوص في قاع البحر، حاولتُ الوصول للسطح، ولكني وجدتُ مَن يسحبني إلى الأسفل، ظننتُ أنه هو، ولكني رأيته عالقًا في الغزل غير قادر على التنفس أو الصعود للسطح، نظرتُ لأسفل فوجدتُ كائنًا غريبًا يشبه الإنسان ولكنه ليس بإنسان، ربما هي عروسة البحر كما يرددون، كان الظلام سائدًا وفكري مشتّتًا، لم أدقّق في ملامحها، ولكني لاحظتُ شعرًا كالحًا طويلًا على جسم خمري عارٍ، رأس كبيرة وأنف طويل، وعيون سوداء كظلام الليل، فمّ كبير وأسنان مدببة سوداء، كانت كأنها تضحك أو سعيدة بأنها حصلت أخيرا

على جائزتها، ارتفعث وهي تمسك بي وأنا أقاوم، وأدعو الله في نفسي أن أنجو من هذا الكابوس

أدركتُ أنها حقيقة عندما شعرت بأظافرها تخدش رقبتي رافضة إفلاتي منها، حاولتُ الافلات منها، صرختُ بصوت لم يسمعه غيري، حتّى نجحتُ في الإفلات منها، وسمعتُ في النهاية اسمي مضخمًا يُنطَق من بعيد:

- " وحيييييد "

تمكنتُ من السباحة مسافة لم أستطع تقديرها، بالرغم من عدم إتقاني إياها، ولكنها غريزة البقاء في الحياة مَن قذفتْ في قلبي رغبة النجاة، وصلتُ للشاطئ والذي لم يكن بالشاطئ الذي أعرفه، كان غريبًا، ظللتُ أركض خوفًا من أن تتبعني، أُنهِكْتُ وخارت قواي عند أول منزل وجدتُه، ارتميتُ أمام هذا المنزل، ولم أعِ بعد كلّ ما حدث إلّا على يد الملاك كاميليا، استغرقتُ وقتًا كبيرًا لأستوعب ما أنا به وهل ما عايشتُه كان حقيقيًا أم خيالًا، ولكن خدوش رقبتي وقدميّ كانت كفيلة لأن أصدق ما كنت فيه، وأيقنتُ وأنا في هذا السن الصغيرة أن تحرير القيود يلزمه انتفاضة النفس ضد الخوف، الخوف هو القيد الوحيد الذي يعيق حريتنا

بكيتُ كثيرًا هذه الليلة حتّى عاد صوتي إلى حنجرتي ثانية وعلا صوت بكائي حتّى استيقظتْ سيلينا على صوتي

واتجهت لغرفتي منزعجة، حضنتي وضمتني إلى صدرها، وبحنان شديد مسحث عن وجنتيّ العبرات الساقطة، وأنا بداخل حضنها ألقيث بكلمتي الأولى فى هذا البيت:

- أرجوكِ لا تتركيني وحيدًا

سكتُّ لثوانٍ وتذكرتُ أن لعنتي يمكن أن تكون في اسمي

- أرجوكِ اجعليني توماس

قالت: ومن أنت بالأساس؟

- أنا وحيد وأحتاجك

***

(١٢)

الفوضى

تقاطعت طرقهما، وأُجبِر كلٌّ من مالك ورقية على السير معا، فولّد هذا شعورًا بالمسؤولية المتبادلة لديهما، شعرت هي بالمسؤولية تجاهه لوحدته وخلوّ حياته من البشر، وشعر هو أنه ملجؤها الوحيد وأمانها بعد أن أغلق ماهر كلّ وسائل الاتصال به، ولكنه استشعر فيها الحياة فأراد أن يخبئها لنفسه ويحافظ عليها لحين إشعار المصارحة

كان يومًا حافلًا منذ الصباح بلقاءات صعبة تطلّبت من رقية تحضيرًا لأسئلة كثيرة وتركيزًا في إجابات الضيوف وتجميعًا للتقارير وإرسالها لمقر الجريدة في مصر، فقررت أن تعود إلى المنزل مبكرًا قبل مالك لتنهي عملها وترتب فوضى المنزل الذي تعيش فيه

توجهت مباشرة لغرفتها وفتحت جهازها المحمول، كان كلّ شيء طبيعيًا لا يدعو للريبة، أنهت أعمالها وهمّت بإغلاق الجهاز، لم تجد صورتها التي ثبتتها كخلفية، وجدت صورة لغابة مظلمة ينيرها ضوء القمر، يتوسط تلك الغابة فيلا صغيرة، تتشابك فروع الأشجار لتحجبها عن الرؤية، وفي إحدى نوافذ الفيلا تقف طفلة صغيرة يسيطر عليها الخوف

استمرّت لدقائق تحدّق في الصورة والرعب يتملك منها، حتّى هاجمتها تلك النغمة من جديد وبدأت تتوغّل بأذنها حتّى لامست روحها فارتجفت وانتفضت وعزمت على المواجهة، كفاها تلك السنوات التي اختطفها الخوف وأحالها هاربة بدون مأوى

تتبّعت مصدر الصوت حتّى وصلت لمنبعه، إنه خلف هذا الباب الموصد بإحكام من قبل مالك، هل ستقتحمها وتبدد خوفها؟ لقد فعلتها وفتحت الباب ببعض الخبرات المسبقة في عالم الجريمة، كانت الغرفة مرتبة وأنيقة، من يدخلها لا يصدق أنها لغرفة رجل أعزب لم تسكن حياته امرأة قط

اشتد الصوت رنينًا بأذنها، كان كصوت الهواء الشديد فى الأنابيب المفتوحة وهو أشبه بأصوات الحيتان الضخمة، صوت كالنفخ في البوق الذي كان يعرض في الأفلام الأجنبية، بحثت عن مصدر الصوت في الغرفة بكاملها حتّى وجدته في ركن بعيد في خزينة ملابس مالك مغطّى بالشراشف القطنية.

وعندما رأته هاجمتها ذكريات الماضي وأيقنت أنها وقعت في الفخ الذي طالما هربت منه، أمسكته للمرة الثانية بعمرها، وحاولت التأكد أنه هو وليس غيره، عدوها المتربص الغادر، ولكن وعيها أنقذها منه وغاب وغابت معه ساقطة على

الأرض منكمشة على نفسها عائدة إلى وضع الجنين

انتاب مالك القلق عندما عاود الاتصال برقية عشرات المرات بعد أن أخبرته أنها في المنزل ولم يصل له أي ردّ منها، اضطرّ إلى أن يترك عمله فجأة، ولكنه شعر بإحساس مغاير، إحساس شخص يخاف على ضياع شيء ثمين في حياته، شخص اضطربت دقات قلبه واختلّ توازن حياته خوفًا من فقدانه، ومن هنا أدرك مالك أن بذور الحب بدأت للتوّ في النضوج

توجه إلى منزله بسرعة رهيبة كلّفته كثيرًا من المخالفات المرورية، دخل البيت مسرعًا يعلو صوته وهو ينادي عليها، كان كلّ شيء على وضعه لم يتغير، غرفتها خالية، فدقّ الخوف قلبه وخاف أن يحدث ما يخشاه، فأسرع لغرفته ليجدها مختبئة بداخل نفسها في وضع الجنين، غائبة عن الحياة إلى عالم أنقى، وهذا الكتاب الملعون يرقد بجانبها

حاول إفاقتها ولكنها لا تستجيب، أسرع بحملها وركض بها ليضعها بحرص في سيارته وذهب إلى المشفى القريب من منزله، وهناك أعطوها محاليل لتحاول استعادة وعيها، ظلت رقية ليلة كاملة على حالها تحارب وعيها لكي لا يعود إلى الواقع، تريد أن تغيب في عالم ربما وجدت به الاطمئنان والسكينة، ولكن تلك الأدوية والمحاليل أجبرتها على العودة

ومنذ تلك اللحظة علم مالك أنه وجد القطب الثاني لحل هذا اللغز المقتحم حياته، لا بدّ أن يصارحها فور عودتها، لا بدّ أن يسيرا معا في هذا الطريق ليعيدا لحياتهما قليلا من الأمان، ولكن رقية كانت تدرك أنها ضعفت أمام قرارها بعدم الاستسلام لخوفها، وأنها انهزمت من هذا العدو الخفي الذي يترعرع بداخلها، تأكدت ظنونها وأن مالك هو جندي لخادم هذا الكتاب، وأن الكتاب أحكم قبضته عليها لينهي قصتها التي لم تكتب لها نهاية، توهمث أن هذا هو سرّ غموض مالك الخفي، السكوت الدائم، الردود الباردة، الحديث القليل، وكأن قرار التخلص منها لم يصدر بعد

وعندما تنتهي أي جملة وتبدأ جملة جديدة يضطر الكاتب لوضع نقطة وينتظر لبدء سطر جديد، يترك مسافة خالية فاصلة بين الجملتين، وهذا ما حدث معهما، كلٌّ منهما أنهى ضجيج أفكاره ووضع نقطة فاصلة مختتمة لها، نهاية منطقية تعتمد على سلسلة أفكار متتالية استغرقت أكثر من أربع ساعات، عندما توصلت رقية لطريقة الهرب من مالك وعندما أيقن مالك أن رقية لها علاقة وثيقة بالكتاب الذي أدى بها إلى هذه الحالة

وعندها بدأ السطر الجديد في الحكاية ليستكمل كلٌّ منهما

حكايته، اقترب مالك من رقية التي ارتجف قلبها خوفًا منه، فالشك مستنقع عميق يلغي كلّ المشاعر الحقيقية، ويضع أمامك معطيات هو فقط من نسجها في عقلك، لتنتشر وتتوغل وتسيطر على كيانك، تردد مالك فيما يريد أن يفعله ولكن مشاعره هي من خانته، وتلهفت للمس يدها، وبالفعل وضع مالك يده على يد رقية ليطمئنها أنه بجانبها، وعندها أخذت رقية القرار ببدء الخطة، فتحت عينيها فجأة فتفاجأ مالك بسرعتها وعينيها الشاخصة التي نظرت له بترقب، ولكنه فرح ونادى الطبيب ليتفحصها

تعاملت مع مالك بالإشارات لأن صوتها أبى أن يخرج، لاحظت تغيره تغيرًا تاما، بعد أن كان مالك الشاب الغامض الصامت ذا التصرفات المبهمة، أصبح خفيفا ضحوكا، تصرفاته كلها حب ومودة، وهذا ما زاد من شكّها فيه، لاحظ هو الآخر تغيرها معه، بداية من نظرتها التي كانت كالسهام ترشقه غضبًا وخوفًا وشكًّا، إلى ذعرها الشديد عندما سمعت نغمة في التلفاز تشبه نغمة السوناري، فأيقن أنها هي من ستعاونه للتخلص من لعنته

تجرأ مالك عندما حدث ذلك أن يحكي لها ما حدث معه من الكتاب مستفتحًا حديثه :

- رقية، أنا لا أعلم ماذا حدث لكِ في غرفتي، ولا أعلم

ماهي علاقتك بهذا الكتاب، لكن تأكّد لي أن ما يحدث معك شيء مخيف ومرعب جعل حالتك تزداد سوءًا، لكن ما أودّ أن أخبرك به أني مرغم على تحمُّل هذا الكتاب المزعج الذي جعل حياتي جحيمًا منذ أن ظهر بها ، ومعنى حالتك هذه أنك تعرفين قصة هذا الكتاب، فكوني معي لأنتهي منه

ومع نظراتها الموحية بالتخوين استدعى مالك جميع الوسائل للتوصل لماهر فهو الأمان الوحيد الذي سيعيد لها السكينة والهدوء

***

النغمـــة السادســـة

الـــحـــقيـــقـــة

الحقيقة ليست الحقيقة، تائهون بين ماضٍ أليم ومستقبل مؤلم، هادئون ينتظرون قدرهم بصمت ملغّم بالأماني، فهل سيستمر الهدوء أم سيتراقصون كالدُّمَى ينزفون الألم؟

(١٣)

توماس

١٩٥٠

ولدتُ من جديد على يد السيدة العظيمة سيلينا، ميلاد جديد تمامًا ولكنه حرب جديدة لاستيلاء أفكار ومعتقدات غريبة وبذور جديدة في أرض بالأساس قد زرعت من قبل، كان لا بدّ من عملية تجريف شاملة لما زرع من قبل، ولكني استسلمت وأنا من جرّفْتُ ما زُرع في خلال سنيني العشر السابقة، واستسلمت لأنْ أكون توماس بكل سهولة ويسر

كبرتُ بينهم وأدّيتُ دور توماس بإتقان شديد، كنتُ أحاول تعويض ما فاتني من استقرار وحياة تائه بها، كبرتُ وكبرت كاميليا، يدى بيدها، منعتني أمي سيلينا أن أمارس طقوسهم الدينية أو أن أكون مثلهم، لأنها كانت تعلم أني مسلم، ولكني كنت من حين لآخر أتسلل من المنزل بمفردي لأذهب للجامع الكبير لأصلى وأسمع دروس الدين هناك، وتخرّجتُ من معهد الموسيقى والفنون، علاقتي مع أبي أنطوان لم تكن جيدة، دائمًا يعاملني بجفاء شديد، لا يحاول أن يتقرب مني، ولو حاولت أنا التقرب نهرني بشدة، كنت أعلم السبب ولكني تغاضيت عنه، واكتفيتُ بسيلينا وكاميليا أن يكونا عائلتي،

صداقات جديدة وراقية، حياة مترفة، فقط ما يؤرقني هي كوابيسي التي ما زالت تذكرني بالماضي

حتى جاءت ليلة لم تكن إلّا بداية لمأساة جديدة أعيشها، كنت أسهر في تلك الليلة مع كاميليا في غرفتها نناقش رواية لكاتب جديد اسمه نجيب محفوظ تسمى عبث الأقدار، كانت أولى رواياته، وكانت تدور حول الصراع بين الإرادة الفردية وحتمية القدر، وبعد نقاش استمرّ كثيرًا أعلنت الساعة العاشرة، وهي ساعة النوم المخصصة لنا، لم أستطع النوم حيث إن مجريات الرواية جعلتني أقف على حقيقتي التي حاول القدر أن يغيرها لينسج رواية لم تكتمل بعد، كان القمر مكتملًا ، فأردتُ أن استكمل الرواية في الحديقة على ضوء القمر، توجهتُ إلى الحديقة، استندتُ على أريكتنا المتحركة، وبدأت أقرأ، وعندما وصلتُ لدرجة تركيز عالية، واندمجتُ في الرواية، إذا بهمسٍ يأتي من مكان بعيد خلف غرفة الخفير، توجهتُ إلى هناك وقد خلعت حذائي حتّى لا يسمعني أحد، ظننت أنه لص، ولكني فوجئت بأبي ومعه رجل يحمل صندوقا خشبيّا مستطيلا طويلا، أخذه في الخفاء ونظر أبي يمينًا ويسارًا، وأيضا نظر أسفله، واتجه نحو الأرض الخضراء المزروعة من أسفل قدميه، وأمسك بطرف حبل مدفون بالأرض ورفعه لينفتح باب حديدي مغطّى بطبقة من الحشائش الصناعية، ليظهر درج هبط عليه

أبي والرجل لداخل الأرض، وسحب الرجل الغطاء من فوقه بإحكام شديد حتّى لا يظهر لهما أثر

كان الفضول يقتلني وربما قتلني بالفعل، شتتني التفكير حتّى التجأت لغرفتي واختبأت خلف نافذتها أراقب ذلك المكان حتّى يخرجا منه، لم ألاحظ خروج أيّ شخص من المكان ذاته، راقبتُ كلّ ليلة المكان لأرى ماذا يحدث حتّى عرفتُ أنه يقابل هذا الرجل كلّ ليلة في تمام الساعة الثانية عشر ويدخلان من هذا الباب ولم أر مكان خروج الرجل ولا ميعاد خروجه

ظل الشك يساورني والفضول يقتلني، بحثث بداخل قبْو الفيلا المخصص للغارات عن أيّ مخرج لقبو آخر فلم أجد، حتّى انتهزتُ فرصة عدم وجود كاميليا بالبيت حيث كانت في حِنّة صديقتها، أمي في المشغل وأبي فى جاليري الخاص به وتناولت الشاي المزوّد بالمنوّم مع خفير البيت

وأصبحتُ بمفردي تمامًا في المنزل، توجهتُ لمكان الباب وحاولتُ إيجاد الحبل المدفون الذي يفتح الباب الحديدي، وبعد محاولات البحث الكثيرة وجدته، نزلتُ إلى الأسفل لأجد سلمًا طويلًا مؤديًا إلى غرفة مظلمة تماماً، حاولت البحث عن أي مفتاح لأرى ماذا تحوي الغرفة، تعرقلتُ قدماي بأشياء لم أتوصل إلى ماهيتها، ولكن ما سمعت إلّا اصطكاك

أوانٍ نحاسية، حاولت جاهدًا أن أفتح النور ولكني ما استطعت الوصول لأي مفتاح، وفجأة سمعت صوتًا قادمًا من أعلى وكان صوت أبي أنطوان ينادي على الخفير عبد الغفار، فتح الباب ففتح معه شعاع من نور يضيء لي المكان، لم أدر ماذا أفعل ولكني بسرعة وجدت خزينة من حديد اختبأت خلفها، وكلّ ما يذهلني وما أفكر به هو ما رأيته بازغًا أمامي، بريقٌ لا يوجد مثيله لأشياء نحاسية وربما ذهبية، آثار كثيرة، أوانٍ وكؤوس ذهبية، أشياء من الواضح أنها قيّمة وباهظة الثمن، يغلب عليها الطابع الروماني، هبط أبي وأغلق الباب عليه وأخذ يردد:

- "هلمّ مملكتي، لن أتركك للمصريين، أنت من حقي أنا ومن حق أجدادي "

تذكرتُ حينها أحاديث أصدقائي عن جماعة الطليان الذين يسرقون الآثار الرومانية القديمة ويبيعونها أو يحتفظون بها حتّى ميعاد تسليمها للخارج، ما كان صعبا عليّ تصديقه هل هذا أبي الذي كنتُ أمَجّد عصاميّته وكان لي المثل الأعلى؟

انتظرت حتّى يخرج أبي فقط، عاينتُ المكان بطرف عيني أثناء وجوده، كان يرتب أشياءً ما في مكان بعيد بالقبو، وإذا بالرجل المصاحب له دائمًا يهبط إلى القبو، يحمل بيده حقيبة أخرى مماثلة لما كان يمسكها من قبل، حقيبة مستطيلة،

حاولتُ أن أسترق السمع، سمعته يقول إن هذه القطعة ليس لها بديل في العالم كله، هذه القطعة وجدت غارقة في قاع البحر المتوسط، ومعها أوراق مازالت محتفظة برونقها وكأنها كتبت في الحين واللحظة، لا يعرف أين غرقت وكيف وصلت للمكان الذي وجدت فيه، ولكن كان معها ورقة تقول إن هذه الآلة هي الوحيدة من نوعها بالعالم،وإنها مسحورة، وإن مَن يعزف اللحن المرافق لها تُفتَح له أبواب المستور، ويعيش مدحورًا بين أيٍّ من الأبواب سيفتح، أبواب الخير أم أبواب الشر، أبواب الحظ أم أبواب النحس، تسلّمها أبي وأخفاها في مكان لاحظته جيدا، زاد شغفي بالآلة وخصوصا لشغفي الشديد بعالم الموسيقى والآلات

ارتفعتْ أصوات صافرات الإنذار تنذرنا بحدوث غارة قوية، قفز قلبي خوفًا، ولكني اعتدتُ الغارات، ولكن أبي لم يتمالك نفسه، وتوجه مباشرة إلى باب الخروج السحري المخبوء خلف الصناديق، دخل أبي ومعه الرجل زاحفين على أقدامهما، أبدى صديق أبي استياءه من بوابة الخروج، وأبدى أبي استعجاله للحاق بزوجته التي كانت في المنزل وحدها، كان صوت أبي كأنه في مكان مكتوم، يتردد ويصدر صدًى مضخّمًا

عشقتُ حبّ أبي لأمي سيلينا، حالة الارتباط بينهما كانت

تثير أمنيات خفيّة بأن أعيش حالة حب مماثلة، روح واحدة ولكنها بجسدين لأن جسدًا واحدًا لن يتحملها ولن يحتويها، ترك أبي كلّ شيء خلفه، ثروته وأشياءه الثمينة، هرول وتركها لكي يطمئن على أمي، وبعد أن تأكدتُ من خروجهما، بدأت أتجول في المكان الذي نسى أبي إغلاق إضاءته، وبالفعل لم يثِرْني كلّ ما حولي من آثار مسروقة، كلّ ما همّني هذه الآلة المسحورة

وضعتُها على الكرسي المجاور لي، وفتحتها لأعرف ماهيتها، فتحتُها لأتعجّب من أجمل الآلات التي أحببتُ عزفها منذ أن التحقت بمعهد الموسيقى، آلة البوق وهي من آلات النفخ الموسيقية الممتعة لي، موضوعة في صندوقها وبجانبها ورقة عبارة عن نوتة لمعزوفة

اشتدّت الغارة ونسيتُ أمر كاميليا التي كانت في انتظاري، أخذتُ الصندوق معي وأغلقت كلّ شيء وأعدته إلى مكانه الأصلي، وفتحت باب الخروج، لأجد أنبوبة طويلة ممتدة وبنهايتها انحناءة، دخلتُ فيها زاحفا على ركبتيّ، حاولت التحرك محافظًا على الآلة التي في يدي، فربما وجدت كنز حياتي وأنا لا أعلم، انتهيت من هذا الأنبوب إلى نهاية منحنية ثم إلى أنبوب آخر أصغر بنهايته باب عبارة عن غطاء لفتحة هذه الأنبوبة، فتحتها وتدحرجتُ منها إلى غرفة

سفلية ضيقة، استغربتُ تهوية المكان بالرغم من خلوّه من أي فتحات تهوية، وبأحد أركان هذه الغرفة سلم يؤدي إلى باب علوي، وارتفعتُ حوالي عشر درجات حتّى فتحت الباب ووجدت النور، اكتشفتُ أن باب هذه الغرفة يؤدي إلى غرفة قديمة في منزل صغير مجاور لمنزلنا، قال أبي ذات يوم إنه مسكون بالجانّ، وكلّ مَن يحاول إعماره يؤذَى بمن يسكنه، كانت غرفة فارغة من أيّ أثاث، فتحتها وتوجهت للخارج، وجدتُ نفسي في حديقة منزلنا ولكن في مكان حذرنا أبي كثيرًا من الاقتراب منه، دخلت المنزل، كانت الغارة ما زالت مستمرة والأنوار مظلمة، أسرعتُ إلى غرفة الهوايات التي لم يدخلها غيري وكاميليا والخادمة التي كانت تهتم بها، واختبأت بها، لم أعلم هل أختبئ من الغارة، أم أختبئ من واقع لم أرِد معايشته، أم أختبئ من حقيقة أبي المغرضة وحقيقة شرائه لبيت صغير حتّى تكتمل كذبته علينا، رأيت الآلة أمامي، ترددت كثيرًا في عزف المقطوعة ولكني عزفتها وأنا لا أعلم أيّ الأبواب ستفتح لي

ومع بداية العزف هدأت الغارة، و لكن صرخة سيلينا جعلت جدران البيت تهتز معها، شعرتُ بخوف شديد عليها، فمنذ أن علمتُ أنها حامل وأنا أخاف عليها، مع أني بدأت أشعر بخوف شديد يهدد وجودي في المنزل إذا كان الجنينُ صبيًّا، مع احتمالٍ كبير بِبُعْد كاميليا عني نهائيًا عندما تعلم أني لست

شقيقها، تنامَى إلى سمعي أيضًا صوت عويل، فتركت كلّ ما بيدي وذهبت مسرعًا لأرى ما كنت لا أتخيل أن أراه يومًا

انتفض قلبي عندما رأيتها ملقاة على الأرض تسبح في بركة دماء انفجرت من جسدها أمام الدرَج المؤدي إلى غرف القصر العلوية، اقتربتُ منها، نظرتُ في عينيها وحاولتُ الإمساك بيدها، ولكنها كانت لا تنظر إلّا على باب الفيلا وكأنها تنتظر كاميليا، هي فقط تتطلع إلى نظرة أخيرة من زهرة عمرها، أسرعت إليها وحضنتها وضممتها بداخلي ضمة قوية، وحاولت أن أعوضها بإحساس الأمان الذي بادلتني به من قبل وكأنه دَيْن لا بدّ أن أوفّيَه لها، كانت تنظر لصورة كاميليا الكبيرة بحنين مؤلم، وبعدها غابت عن الحياة، صرخ أبي صرخة الموت، نهاية مأساوية لسيدة فعلت الخير الكثير منذ أن احتضنت طفلًا تائهًا في بيتها وأرشدته لطريق يعيش به حياة كريمة، سيدة لم يعرفها الناس إلّا بناصرة المساكين والفقراء ومكلومي الحرب والتائهين

انتهت مراسم العزاء، لم أهتم بأيٍّ منها ولكني فقط اهتممت بكاميليا كنت بجانبها دائمًا، أريد أن أكون أوّل من تراه عندما تعود من غيبوبتها، خائف أن يراها أنطوان قبلي فلم تُرِحْني نظراته لي من بعد موت سيلينا، وأعلم أنه نوى طردي من جنتي التي أعيش بها، الخوف يملأ قلبي ونغمة الآلة ما زالت

بأذني لم تغب عني منذ ذلك اليوم المشؤوم

في اليوم الرابع من العزاء دعاني أبي وأنا بجانب كامليا بواسطة أيوب الخادم إلى مكتبه، اهتز قلبي خوفًا، وارتجفت قدماي وأصبحت حرارة جسدي كالنار الموقدة، حذارًا مَن يقترب مني فسيحترق وسأحترق معه، حياتي تمضي أمامي كصور كما تخيلتها دائمًا تدور بسرعة رهيبة، توقفت بَكَرَةُ الصور عند باب مكتبه، وأصبحت ناقصة، ستكتمل بدخولي، طرقتُ الباب طرقة مهتزة ودخلت إليه، أعتقد أن ما رأيته كان كفيلًا لإنهاء الحوار من قبل بدايته، كان على كرسي مكتبه معطيًا وجهه للنافذة من خلفه ينظر إلى الحديقة، ولكني رأيت آلة البوق التي سرقتُها من مخزنه ملقاة أمامه على المكتب، وهنا أدركتُ أني طُرِدتُ من الجنة

- " توماس اذهب "

كلمة أنهت الحديث قبل بدايته

- أبي أتأسف، لن أتحمل ترك كاميليا على هذه الحالة ولأين أذهب؟ لا أعلم لي مكانًا سوى هذا البيت "

هنا التفت لي بكرسيه، عيناه حمراوان كجمر النار، وجهه أصفر كليمونة ذبلت وتغير مذاقها، نظر لي بغضب وسألني:

- أتعلم لماذا أعطتك سيلينا اسم توماس؟

فأجبته بخضوع:

- لا يا أبي

فأردف:

- هذا الاسم لابني الذي كنت أحلم أن تنجبه لي سيلينا، وعندما أسقطتك الأقدار على منزلي سرقتَ اسم ابني، وسرقت حلمي في ابن يحمل اسمي ويرث بحب كلّ ما أملك، أنا لم أحبك طوال عمري وأنت تعلم ذلك، دائمًا أشعر بداخلي بجفاء منك، لم أوافق بك إلّا من أجل سيلينا وكاميليا، وكنت أشعر من داخلي أنك ستكون السبب في نكبة لهذا البيت، كنتُ دائمًا أراقبك، وحدث ما كنت خائفًا منه، أنت تعلم أن هذه الآلة تحمل لعنات، وبالرغم من ذلك عزفتَ لحنها وكانت أولى لعناتها هي موت سيلينا، ولن أنتظر أن أرى موت كاميليا أمامي بطريقة بشعة كموت أمها، اذهب بسرقتك بعيدًا عن حياتنا واتركني أحافظ على الباقي لكاميليا واطمئن عليها

- بابا لو سمحت اسمعني

أكمل الخواجة أنطوان بدون توقف:

- تكريمًا لروح سيلينا لن أتخلى عنك، ستأخذ معك مبلغًا

كبيرًا، وسأضع لك مثله في البنك، وهذا مفتاح لفيلا روما، اذهب لروما، ستنتظرك الدراسة الجامعية هناك، أرجوك ابتعد عن مصر، اقطع كلّ علاقتك بها، اقطع كلّ علاقتك بكاميليا، كلّ ما ستطلبه مني سيكون مباحًا لك إلّا كاميليا، ابتعد عنها، سفينتك ستغادر صباح الغد، والوقت المتبقي لك هنا يكفيك لتحضير حقيبتك، ولا تنس أن تكتب لكاميليا رسالة أخيرة تخبرها أنك حصلت على المنحة التي كنتَ تنتظرها ولا بد أن تسافر حتّى لا تفقدها وتضيع منك، ولا تترك هذه الآلة هنا واحذر منها، فقد فتحث عليك أبواب الظلام

سافر توماس وبقيت كاميليا طريحة الفراش أسبوعين تقاوم العودة لحياة خالية من الأحباب، كانت تتمنى أن ترى توماس وتبكي بحضنه، ولكن كلّ شيء اختلف وبهتت الحياة واختفت بهجتها، حاولت التأقلم على غياب سيلينا وتوماس، وعاشت لتسعد والدها الذي غلبته الحياة وأصبح نصف إنسان يعمل نهارا ويشرب ليلا ويبكي طول الوقت، فاستسلمث هي الأخرى للحزن والتزمت غرفتها في هذا البيت الصغير الذي انتقلا إليه بعد إغلاق القصر نهائيًا، تداعب ذكرياتها بصندوق للصور قديم يعيد لها بعض الابتسامات المستعارة

ومرت السنوات ولا شيء يحدث إلّا مزيدٌ من البعد وذرف

كثيرٍ من الدمع، حتّى تقدم لها مهندس ايطالي شاب، فارع الطول، أزرق العينين، حلم لكل فتاة ببهائه يخطف عيون الطامعات، ولكن كاميليا لم تكن تحلم بمثله، حلمها يتمثل في توماس ومَن يشبهه، ولكنها وافقت وبالرغم من رفضها لكثير من طباعه الإيطالية المختلفة عنها، فنصفها المصري دائما يطغى على أصولها الايطالية إلّا أنها أتمت الزواج بدون مراسم حلمها، دموع أمها ، نظرات الغيرة في عين توماس ووصيته لزوجها بالعشرة الطيبة وتهديده له عند إغضابها، تنازلت عن كلّ شيء، فما عاد للفرح مكان بقلبها، ففي حياة كلٍّ منا لحظات فارقة لن تعود الحياة بعدها لما كانت عليه، تجبرك الحياة على السير في طريق ربما لم تخترهُ أنت، ولكنه اختارك وأجبرك على اتباعه ولابد أن تصل لنهايته

***

النغمـــة السـابعـــة

بدايـــة جـديـدة

طرق تقاطعت وتشابكت

آمال تهاوت وتحطمت

ماضٍ أليم يطارد

وجروح قديمة تنزف

وقبل الهروب تسابقت النبضات

لتعطي معطيات

لبداية جديدة ربما تكون الملاذ

من ماضٍ قاسٍ ومستقبل مبهم ونهاية العذاب

(١٤)

العشاء الأخير

طرق باب الغرفة في صباح اليوم الأخير لخروج رقية من المشفى، ليعلن عن زائر طال انتظاره ولكنه أتى في النهاية ليؤكد شكوك رقية وأنها وقعت في شباكه، دخل ماهر معتذرًا منها على غيابه، أشاحت بوجهها عنه ورفضت الترحيب به، أعذاره لن تغير من شعورها ولن تحيدها عن فكرتها، فأرادت أن تعطي لنفسها وله فرصة أخيرة، لأنها لا تريد أن تصدق أنه خائن، ولا تريد أن تسقطه من قائمة الأمان الخاصة بها

بدأت رقية تصدر أصواتًا بسيطة، لتوهمهم أنها بدأت تتعافى، يُعَدّ ماهر شاهد عيان على معاناة رقية في السابق، فهو يعلم كلّ شيء عنها، وساندها في فترة كانت فيها أقرب للسقوط والضياع، مجرد ظهور هذا الكتاب ثانية في حياة رقية، ستُفتح معه جروح مَرّ على غلقها سنوات، ولكنها ما زالت قابلة للنزيف مرة أخرى، ولذلك لم تشفع له رقية غيابه وهي مَن وافقت على السفر مطمئنة لوجوده

اختنق مالك مما يحدث بعد أن تغيرت رقية معه، مع إحساسه باتهامها له في كلّ نظرة من نظراتها، السر الذي تخيل أنه أخيرا لم يعد سرًّا، وأنه وجد أخيرًا مَن يشاركه

فيه، أصبحت هي الأخرى سرًّا لا بدّ من اكتشافه، أصبحت رقية بعيدة كلّ البعد عنه، هو يفكر في الاقتراب وهي تفكر في الهروب، هو يتوسل للتلاقي وهي تستنجد بالفرار

قرر ماهر مساء اليوم التالي أن يحضر عشاءً أنيقًا في بيته لمالك ورقية، ولكن في عدم حضور زوجته وابنته ليحميهما من لعنة هذا الكتاب، خرج هو ليشتري لوازم البيت، وسافرت زوجته وابنته لأم زوجته في مقاطعة قريبة، فرأت رقية أنه الوقت المناسب لتنفيذ خطة هروبها، وبالفعل فقد جهزت حقيبتها مسبقًا وأوراق سفرها وخرجت مسرعة من المنزل، تاركة خلفها ما تظن أنه عشاء اللحظات الأخيرة، عشاء ستقع فيه أسيرة لهما، لم يكن خيار استمرار رقية فى عملها في هذا المؤتمر قائمًا، كلّ ما تريده الآن حضن أمها وأمان أبيها وضحكات أختيها، تحتاج أن تشعر بأمانٍ غاب عنها في هذه السفرة، عن روتين كسرته وظنت أنها بكسره ستستريح ولكنه أحرقها بشظاياه، وأدمى قلبها وعقلها وجسدها

اتجهت مباشرة للمطار، حجزت تذكرة العودة ولكنها تفاجأت أن الطائرة المتجهة للإسكندرية ستقلع بعد ست ساعات، حتّى التي ستقلع إلى القاهرة ستتأخر، لم يكن لديها أي خيار بديل سوى الانتظار

وبعد لحظات من دخول ماهر لمنزله، علا صوته باسم رقية،

أمسك هاتفه وهاتف زوجته التي لم تعرف عنها شيئًا، هاتف مالك فلم يعرف عنها هو الآخر أي شيء، ولكنه أخبره أنه سيبحث عنها في مقرّ عملها وفي الفندق، وبالفعل بدأ مالك بالبحث عنها في كلّ الأماكن المقترحة والمتوقع تواجدها بها، لم يكن لها أثر، دقات قلبه المتزايدة أثرت على تلافيف عقله، خوفه عليها ومن ضياعها منه لم يجعله يدرك أن رقية بعد ما حدث لها لن تسمح لنفسها أن تستمر هنا مهما كلفها الأمر من خسارة عملها

تأكّدا من مكانها وأسرعا إلى المطار بعد أن استفسرا عن الرحلات المتجهة إلى مصر، ولم يجدا أيًّا منها قد أقلع بعد، فاطمئنا اطمئنانًا نسبيًّا، دخلا المطار مسرعين لافتين انتباه ضابط الاستقبال، فتوجه مالك مباشرة للمكان الذي التقى به رقية لأول مرة، وبالفعل كانت هناك، وعندما رأتهما رقية من بعيد يسألان عنها حاولت الاندساس بين ازدحام المسافرين وابتعدت، ولكن لاحظها مالك في اللحظة المناسبة، كانت تنظر خلفها، وعندما رأتهما يتبعانها أسرعت، وعندما لاحظت اقترابهما هرولت، لم تعلم لأين تذهب، أين تختبئ؟ وممن تهرب؟ هي تجري فقط، وعندما انقطعت أنفاسها توقفت فجأة لتنظر خلفها، لم تجد أيًّا منهما، ولكنها وجدت نفسها في مكان مهجور خارج المطار، مبانٍ قديمة ربما مطار قديم أو موقف سيارات قديم، يوجد كراسي انتظار قديمة

متهالكة، ركعت على ركبتها محاوِلةً التقاط أنفاسها واستعادة توازنها، ولكنها وجدت قدم رجل توقفت أمامها فجأة، نظرت للأعلى لترى مالك وقد احمرت عيناه وشحب وجهه، وهو يسألها وصدره يعلو ويهبط:

- لماذا؟ لماذا تهربين مني؟ ماذا فعلت لكِ حتي تهربي مني؟

التفتت للخلف لاقتناص فرصة الهرب من جديد، ولكنه ولأول مرة في حياته يتعامل مع امرأة غير أمه بهذه القسوة، أحكم قبضته على يديها، جذبها له جذبة قوية جعلت المسافة بينهما تتقلص حتّى أصبحت أنفاسهما تتلاقى

ما زالت هي بيد مالك ولكن هو من جعل المسافة بينهما كافية ليخرج كلماته:

- كلّ ما أطلبه منكِ سبب كافٍ للهرب بعد تعلقي بكِ، بعد حُبّك الذي غيرني، بعد اقترابي منكِ واقترابك مني، كلّ ما أطلبه سبب، وبعدها سأدعك تهربين كيفما شئت

أبعدت رقية يده بالقوة، وهي تنظر في عينيه بتحَدٍّ وأردفت بشجاعة:

- لأنك مجرد خادم لسيدك المختبئ بالكتاب، أنت مجرد أداة لإيقاعي في براثنه ومن ثَمّ التلذذ بقتلي، اعتقدتُ أنك إنسان حرّ، ولكنك أصبحت في عيني إنسانًا كاذبًا مخادعًا

مدعيًا الصلاح وبداخله شرّ دفين

أردفت غاضبة:

- حتى أخي الذي اخترتُه بإرادتي خانني معك، وذلّلْتم الظروف للإيقاع بي، عمل بالخارج لماهر، نغمة غريبة بالفندق، ظهور شبح السوناري في مرآة المرحاض، كل ذلك لألجأ لك في النهاية، لأقع في شباكه من جديد، انتهز فرصة سفري وابتعادي عن أهلي ليهاجمني من جديد، لا يكفيه ما فعله بي في الماضي، لا يكفيه ما حرمني منه، طاردني حين أردت أن أحلق بأحلامي وأنساه، لم أعلم ماذا يريد مني ولكني لن استسلم لأيٍّ منكم

وضعت رقية يديها خلف ظهرها وتجولت بعصبية يمينا ويسارا، توقفت فجأة واتجهت لمالك الذاهل مما يسمع ويرى

- وإن صدقتُ تبرير وجود هذا الكتاب عندك وتبرير أخي ماهر غير المنطقي، وأنكم أبرياء من كلّ هذه التهم، لماذا إذًا سيؤذيكم سفري؟ طلبتَ مني طلبًا ولم أستجب لك وهجرتك، لابد أن تفهم أنه رفْض، وأني لم ولن أريدك، لا أعتقد أني أخطأت عندما منحتُك ثقتي ولكنك مَن أساء استخدامها فوجب عليّ الرحيل

نظر مالك لرقية في ذهول وهي تبرر أعذارًا لا تدل إلّا على

خوفها الشديد، ورعبها من فكرة رؤية الكتاب ثانية، وقال لها بنبرته الحانية الرقيقة:

- رقية، من الظاهر أنكِ لم تنتبهي لحديثي من البداية، أنا كلّ ما طلبته منكِ أن تسمعيني وتسمعي ماهر وبعد ذلك تقررين، لقد سبق وأن نوهت لكِ إذا اخترتِ السفر سافري وأنا من سأساعدك عليه، ولكني لا أفهم أبدا سببًا لثورتك هذه، ولا أعلم عن ماذا تتحدثين

أظهر مالك قوة لم تكن نابعة من داخله، ودحر الطفل الصارخ المتوسل لها بعدم الرحيل أرضا بداخله، وبعد هدنة صغيرة اتخذت لالتقاط الأنفاس رفع فجأة رأسه لها:

- اذهبي يا رقية، اهربي، عودي إلى أمانك، مهما قيل لكِ الآن فلن يعيدك إلى رشدك، و لن تصدقينا مهما حدث، وأنا سأعود إلى قدري، سأحرقه، حتّى وإن أصابتني لعنته سأتحملها، ولن أفرض نفسي عليكِ، ولن تريني ثانية، ولكن قبل أن تذهبي لا بد أن تعلمي أني بريء من كلّ تهمك لي، أقسم لك بحق وحدتي وما أعانيه في حياتي أني بريء، أقسم لكِ بسعادتي بكِ وبحبك الذي بدأت زهرته تنمو في قلبي أني بريء وأحبك

تجاهلت رقية كلّ ما يقال، اعترافه أمامها كان كالنسيم العابر، مرّ وعبر ولم يترك أثرًا، نظرت في ساعتها، لقد اقترب

ميعاد الإقلاع ووجب عليها الاختيار، فاختارت الذهاب ، ولكن قلبها حاصرها في جملته:

- أنا بريء وأحبك "

صوت أقدامها ما زال يقرع طبول الخوف في قلبه، هل سترحل بالفعل؟ هل سيعود لوحدته بعدما تعود على وجودها معه؟ قلبه وعقله في صراع، قلبه يقول ستعود وعقله يعيده وحيدًا حزينًا غريقًا في بحار الخيبة والاشتياق والمجهول من جديد

ومع توقف صوت أقدامها، ابتسم قلبه ابتسامة الانتصار ولكن رفض عقله تقديم التهنئة ووقف شاردا، أيحدث ما يتمناه هذا القلب المسكين؟ أم سأنتصر أنا لأدحره مهزومًا؟ ومع اقتراب صوت الخطوات تراجع العقل مدحورًا حزينًا وارتعش القلب فرحًا بالانتصار

عادت رقية لتجلس بجانب مالك، انتظر حديثها ولكنها لم تتكلم فبدأ هو بالحديث

- كنت صغيرًا مبهورًا بالأضواء والتفاف الأصدقاء، وكثرة المال، كانت الحقيقة تُزَيَّن ببهاء، وتخفي في طياتها النفاق والوحدة وعوز المشاعر والنقاء، وعندما انطفأت الأضواء ومثلت عليهم خلو الجيوب من المال، وابتعاد الأهل العلماء،

ابتعد الجميع وظهرت الحقيقة، فعدت للاجتماع، جمعت كلّ من نافقوني في احتفال يظهر عودة الأحوال فابتسم الجميع حتّى آبائي الأعزاء، ووقفت أمام الجميع أطهّرهم من النقاء وأفضح حقيقة الأصدقاء، وذيلت حفلتي برجاء

- "أرجو من الجميع التقدم بإدلاء الحاجات، لقد قدمت لكم خدمة لن تكرر، هذا أبي وهذه أمي يعدونكم بالوفاء، أما أنا سأذهب بعيدا عنكم جميعا، ولن أصطفي منكم إلّا الأخلاء

تنهد مالك ونظر لرقية، وجد عيونها تلمع بالدموع وهي ما زالت تنظر للأمام وقد زالت علامات الحدة وارتخت ملامحها، فاطمأن وأكمل:

- أنا طفل تربيت بين عائلة سُلّطَت عليها الأضواء في برلين، أمي دكتورة عظيمة وأبي مهندس أعظم، أعظم ما صنعاه هو اسمهما وثروة ضخمة يحلم بها أي شاب، أي شاب في مكاني كلّ ما عليه أن يفكر كيف يصرف الأموال، لكنني لم يكن حلمي الثراء، كان حلمي الوحيد الدفء والصفاء، تربيت على يد الخادمة الفلبينية التي كانت تعاملني بلطف لأنها تعلم أن البيت مليء بكاميرات المراقبة، زملائي بالمدرسة يعاملونني بلطف لأنهم يعرفون اسمي ونسبي، حتّى عندما يجتمع الأهالي في احتفالات التخرج لا يحضر أيٌّ منهما بل يرسلان مديرة مكتبهما، حتّى حين رزقني الله

بأخت صغيرة غاية في الجمال والرقة، كانت لي صديقة وحيدة حرماني منها بادعاء الاستشفاء والتعلم المتخصص، كانت مصابة بمتلازمة داون ولكن متميزة، كانت حلمًا جميلًا اختفى من حياتي قبل أن ينضج، كانت أشجع مني، رفضت قرار انفصالها بمدرسة داخلية، وصعدت إلى خالقها، قبل أن أشبع منها

انحنى مالك ليضع رأسه بين كفيه وتنهد وكأنه يحاول التخفيف عن عقله ويربت على حنايا ذاكرته وعندما تراجع أكمل:

- طلبتُ منهما أن أغادر برلين، وطلبت عنوان جدتي بمصر، حيث إنني لم أرها منذ وقت بعيد، شكلها محفور بذاكرتي، وحينها فقط علمتُ بغضهما لجذوري واقتلاعهما لها بوحشية وكراهية، لا أعرف سبب هجومهما عليّ حين أردت ذلك ، كان الأمر غير منطقي، طالباني أن أنسى أني مصري، وأن جذوري هناك قد جفّت، لم أصدق وانفصلت عنهما وانفصلا عني، لم أسمع صوت أبي منذ زمن، وأمي تُرضِي أمومتها باتصال باهت كلّ فترة

انتفض مالك من الألم، تتجمع الدموع بعينيه، ورقية تتابعه وهوينظر لها:

- تخيلي يا رقية، ما اهتم به أبي هو مظهره أمام الصحافة،

ولكن مشاعري لم تكن ذات قيمة لديهما

هدأ قليلا عندما أفرغ طاقات حزنه وجلس ثانية:

- ولذلك أنا وحيد كما تعلمين، ماهر فقط هو من بقى معي لشخصي، هذه هي حياتي باختصار، حتّى وجدت هذا الكتاب قبل يوم واحد من لقائك، لم يكن صمتي ضِيقًا منكِ، ولكنه فقط خوف على هذه البذور النقية التي زرعت بقلبي أن تتلوث بمعرفة حقيقتي فأرى قربك المزيف المسبب، وذلك لأني عشقتُ اهتمامك بي، وخوفك عليّ، أحببتُ حبك لعائلتك، أحببتُ عائلتك وارتباطك بها، وجدتُ بعيونك إعجابًا بشخصي، ولذلك أحببتك، القرار بيدك، إما أن نواجه الكتاب معًا، وإما أن نحرقه ونحاول مزاولة حياتنا إذا استطعنا نسيانه والتخلص من لعنته

مدّ يده تجاه رقية ونظر في عينيها نظرة ألجمَتْ كلّ مشاعرها وسألها:

- "هل ستذهبين معي أم سأبقى هنا وحيدًا مع حبك والكتاب"؟

أزاحت رقية عينيها عن عينيه الزرقاوين، ونظرت لجانب المطار، فأعاد هو يده وظهرت عليه أولى علامات اليأس والخيبة، تنفست نفسًا عميقًا اعتقد أنه أتى من زمان بعيد

- عشرة أعوام مضت على ما حدث، كنا نعيش حينها في الإسكندرية أنا وأمي وأبي وأخواتي البنات وأخي الكبير الوحيد في منزل جدي، هذا المنزل هُجر فترة من الزمن، وكنا نعلم أن جدي قد باعه لمالك الفيلا المجاورة له، لكن عندما توفى مالك الفيلا وأصبح المنزل مهجورًا أعاده أبي من مالكيه بثمن باهظ جدًا، كنا نعلم أن هناك جزءًا مشتركًا بيننا وبين الفيلا المجاورة وهو القبو السفلي، وهذا القبو كان مغلقًا بباب حديدي قديم يصعب فتحه، في هذا التوقيت انتشر خبر أن منازل الاسكندرية كلها بنيت على آثار رومانية ليس لها مثيل، وعندما علم أخي بهذه الإشاعات قرر فتح هذا القبو والبحث به، كان شابًا يحلم بالثروة والمال، حتّى يخرج من بوتقة الفقر ويحقق أحلامه، ولكنه لم يكن يعلم أنه سيدفع حياته ثمنًا لتهوره

انقبضت علامات وجهها وقبضت على يدها:

- أحضر الشيوخ من كلّ مكان لفتح هذا الباب ومحاولة استرضاء حراس الباب لفتحه، ولكن كلّ محاولتهم فشلت، مع تأكيدهم أن هذه الفيلا بها كنوز لا تعد ولا تحصى، ولذلك أُمِّنَتْ بأشدّ حراس الجانّ، لا يستطيع خادمهم استرضاء الحراس ليبتعدوا عن البوابة، مبالغ ضخمة دُفِعَتْ لفتح هذا الباب الذي لم يفتح أبدا، بدأ أبي يعنّفه على إصراره الواهم،

وأنه يحتاج إلى هذا المال لتعليم أخواته البنات واستكمال تعليمه، ثار أخي ولكن أبي اتفق معه أن ينسى هذا الكنز نهائيًا ويخطط لحياته تخطيطًا آخر

صمتت قليلا ثم تابعت:

- ذات يوم وبينما نحن مجتمعون نشاهد التلفاز، علا صوت التكسير في أساسات المنزل في الأسفل من جديد، علا الصوت أكثر، فاتجهنا جميعا لتفقُّد ما يحدث، شاهدنا أخي وهو يضرب ويضرب بمعوله حتّى خارت قواه ودميت يداه ، من شدة صلابة الباب، ولكنه في النهاية تمكن من فتح الباب الحديدي، فرحتُه كانت عارمة زلزلت أرجاء المنزل، لم أر أخي بهذه الفرحة من قبل، أخيرًا فتح باب أحلامه، برق الذهب في عينه، لم يكن ذهبًا ولكنه كان وهمًا، ولعنةً أصابته وأصابتنا بقية حياتنا، أسرع أخي بالدخول، فطالبناه بالانتظار حتّى يخرج الهواء السام من الغرفة المغلقة لسنين كما يحدث في التوابيت الفرعونية، ولكنه تعجل وذهب ليجد درجًا هبط عليه، حتّى وجد رمالا، بمجرد أن لامست قدماه سطح هذه الرمال سحبته، حاول أخي التشبث بالدرج، صرخ واستغاث بنا، ذهب أبي وأمسك بيده وحاول رفعه، ولكنه في ثوانٍ اختفى عن عيوننا، أخي اختفى عن نظري ولكن بسمته كانت آخر ذكرياتي معه

سقطت دمعة وحيدة على وجنتيها وتنهدت وكأن الألم يختنقها:

-اتصل أبي بالنجدة والإسعاف، حاولوا إيجاده ولم يستطيعوا، فالرمال المتحركة تبتلع كلّ من يقترب منها، وفوق كلّ هذا لاحظنا أنها تعلو وتعلو حتّى وصلت إلى حافة البوابة الحديدية، أغلق ضابط الشرطة الباب بسرعة قبل أن تبتلعنا الرمال وتخرج إلينا، وكتب في محضره أنّ الشاب فقد في رمال متحركة مجهولة المصدر، أصيبت أمي بشلل نصفي، أختي فقدت النطق، وأختي الصغيرة لم تكن تدرك شيئًا مما يحدث، كان من الواجب أن يظل أبي متماسكًا حتّى لا تنتكس عائلتنا بسقوط عمودها الأساسي، ولكن أنا فقط مَن كنت لا أصدق وكنت على يقين تام بعودة أخي، حاولنا بشتى الطرق أن نفتح باب الفيلا التي بجانبنا رغم معرفتنا الكبيرة بأشباح تلك الفيلا التي تظهر ليلًا، أصوات الموسيقى والصراخ والضحك، ولكننا اعتدنا عليها، بوابة هذا البيت لا تفتح أبدًا، ليس هذا فقط ولكن كلّ من يحاول فتحها يصاب بلعنة لا تبقيه على قيد الحياة سوى أيام

اختنقت رقية وبدأت تفرك أصابعها بعصبية:

انتظرته أمام بوابة الفيلا كل يوم، الجميع كان يكذّب خروجه وأنا الوحيدة التي كنت أعلم أنه سيخرج، كما

حلمتُ ـ وأنا أحلامي تحقق دومًا ـ أن أخي سيخرج من هذا الباب مسرعًا مذعورًا، انتظرتُ أيامًا وأيامًا استمرت تقريبًا خمسة أيام، كنت أنهي عملي فى المنزل وأقضي حاجة أخواتي وأمي، وأترك المنزل وأتوجّه للفيلا أنتظر، وفي اليوم الخامس، سمعتُ أزيز الباب الحديدي القديم يفتح، وإذا بجسد أخي البالي يُلقَى ومعه كتاب، أخي لا يفعل شيئًا إلّا أنه كان ينظر للكتاب، أخي ذو الستة عشر عامًا أصبح عجوزًا ستينيّ الوجه والشعر، الوجه مجعّد، والشيب كسا رأسه، والجسد نحيل كأنه لم يذق طعامًا في حياته، اقتربتُ منه ولم أصدق أنه أخي

وفجأة انهارت رقية ودمعت عيناها، وارتجفت يداها، قاطعها مالك:

- يكفي يا رقية إلى هذا الحد حتّى لا تزداد حالتك سوءا

نفت بحركة رأسها وأكملت:

- ناديت على أبي وأمي وأخواتي:

جابر عاد يا أبي، غمرت السعادة الجميع واستعادت أمي وعيها وأختي عادت لها ابتسامتها، ولكنه ظل على حاله، لم نعلم ماذا حدث معه أبدا حتّى الآن، كنت أدخل عليه فأجده منزويًا فى ركن الغرفة خائفًا ضامًّا يديه وركبتيه إليه

ظنًّا منه أنه في أمان هكذا، ينظر فقط إلى الكتاب، وذات مرة دخلت عليه أحاول أن أخرجه من هذا الحال، أمسكت الكتاب، قلبته في يدى وهو ينظر لي في ذعر، محاولًا إخافتي من الكتاب موجهًا لي أوامر بعينيه أن أتركه، لكني عاندته، كنت أريد أن أوضح له أنه مجرد كتاب مثل كلّ الكتب التي فى منزلنا، حاولت فتحه لم يفتح، صرخ بي لأول مرة منذ أن خرج من تلك الفيلا:

- ابتعدي عن هذا الكتاب تمامًا، اخرجي واتركيني وحدي

دخلث أمي وأبي بعدما سمعا صوته ليطمئنا أنه بالفعل عاد إلى وعيه، حاولث تهدئته ولكن لا سبيل لذلك، كلّ الطرق فشلت وكأنه تحول فجأة إلى وحش كاسر سينقض على فريسته إذا اقتحمت خلوته، تركناه يهدأ، حاولنا الاتصال بالطبيب لإعطائه مهدئًا، وعندما جاء الطبيب فتحنا الغرفة على أخي

صمتث واضعةً يدها على وجهها وانتفضت من جلستها وكأنها تحاول التنفس:

- كان أخي معلقًا مشنوقًا في سقف الغرفة، جسده يتدلّى منسابًا في الفراغ، ورقبته مائلة على جسده، حاولث أن أعثر على الكتاب بعد ذلك، لم أجده في أي مكان، اختفى اختفاءً سريعًا، ومن بعدها أصِبْتُ بحالة نفسية، كنت أحاول قتل

نفسي دائمًا لأني حمّلْتُ نفسي سبب ما لاقاه أخي، أنا من جعلته يسعى وراء كشف الحقيقة، أنا من واجهته بالكتاب، ولأن هذا منطقي دائمًا، مواجهة مخاوفي وعدم الهروب منها، لأن الهروب مجرد مضيعة للوقت، مهما هربت ستواجه، كلّ الطرق ستؤدي بك إلى المواجهة، ولكني منذ أن رأيت موت أخي أمام عيني وأنا أندم كلّ الندم على هذا الاعتقاد وتجنبته تمامًا في حياتي، وأيقنتُ أن الهروب نجاة من مصير مؤلم، وكلما زاد الخوف زادت فرصة نجاتك، قانون أنا لست مقتنعة به تمام الاقتناع، لكن بدأت في تطبيقه وإقناع مَن حولي به، و في النهاية اتخذتُ من الهروب قانونًا لحياتي

حاول مالك الاقتراب منها عندما لاحظ اختناق ألفاظها ودموعها التي فى عينيها وارتجافة يديها، أمسك يدها وغيّر من وضعه حتّى ركع أمامها على ركبتيه

- أعدك يا رقية أني سأواجه معك كلّ مخاوفك، لن أتركك وحيدة، سأكون بجانبك دائمًا، سأكون سندك، وإذا أذنتِ لي سأكون نصفك الثاني، وسأعوضك عن كلّ ما مضى، سأكون ظلك وسأحميكِ من أي ظل آخر يحاول لمسك

أزالت رقية يدها من يده وقالت:

- أعتقد أننا مصابون بلعنة هذا الكتاب، نتخلص منها أوّلًا، وبعدها نفكر في كيفية إكمال حياتنا

***

(١٥)

روما

١٩٦٠

عشرة أعوام مضت على آخر لقاء لي مع كاميليا وكل ما يشغلني في هذه الفترة سؤال واحد لم أدرك إجابته قط " من أنا "؟ أنا توماس أنطوان أم وحيد أم يونس، أعيش بغربة مستمرة، غربة الوطن، وغربة النفس، غربة الوطن يُعتاد عليها لأني أعتقد أن الوطن هو الأرض التي تحتضنك، تعطيك أحلامًا محققة تعطيك حياة كريمة من حقك الاستمتاع بها أينما تكن هذه الأرض، ولدتَ بها أم لم تولد، كلها أسباب والنتيجة لا بد أن تتمثل في معطيات لا تتحمل التجزئة أو التقليل منها، لكن غربة النفس هي الأشد إيلامًا أن تعيش لا تعلم شيئًا عن أصل روحك أو منشأ نفسك عن منبت جذرك، تائه بين حاضر معلوم وماضٍ مجهول، حينها لن تسعك أرضٌ أو يحتضنك وطن طالما أنت لم تحقق الأمان لنفسك

لكني وجدتُ في النهاية أن وحيد هذا الطفل الذي ما زال يعيش بداخلي هو المسيطر على جسد توماس وحياة يونس، وجدتُ أن الأصح أن أعيش بجسد توماس وما له

من إنجازات وامتيازات، وقلب وحب وحيد للوحدة وحبه لرسوماته المتحركة، أعيش هنا على ذكرى سنوات أمضيتُها مع كاميليا، ذلك الملاك الذي أنقذني ورعاني وأمدني بقوة ما كنتُ أستطيع العيش بدونها، ذلك الملاك الذي لوثته لعنتي وحولته إلى ملاك حزين مكلوم يحارب الحياة بنفس خائرة حزينة، خابت ظنونها في أقرب ذويها فعاشت وحيدة محاولة بناء حياة ولكن على أسس منهارة في معركة لم تكن يومًا أيًّا من أطرافها

تذكرتُ ليلة هروبي وتركي لها وكلام أبي أنطوان وتوبيخه لي الذي جعلني مضطرًّا لترك كامليا وحيدة وسط مجتمع لم أكن قد دربتها على العيش به بمفردها، ولم أكن علمتها أن تعتمد على نفسها، ربما كنت خائفًا من فكرة تخليها عني، ولكني في النهاية مخطئ، مخطئ لاطمئناني الزائد، لاعتقادي أني تمتعت بأمان وكنت بمنأى عن لعنة أصابتني في الصغر بسبب الجهل، ليتها رأت دموعي التي سالت على يديها وأنا أقبّلها قبل سفري، نحيبي وتوسّلي إليها، اشتياقي لرؤية عينيها قبل سفري، ليتها شعرت بي وبأنيني وآهات صدري لتركها، ليتها علمت كم أحبها وكم أحتاج إليها

ولكني ما كنت لأذهب دون أن أوضح لها ولو حتّى بالكذب حقيقة تركي لها، ولأننا ما زلنا نحتفظ ببعض أسرارنا

ونتواصل عبر أفكارنا فقد تركت لها رسالة وكنت على يقين أنها ستقرؤها عندما تستعيد وعيها الغائب عنها منذ موت أمها، وبدأت أتأكد أن هذا الملاك لا يمكن أن يجتمع مع من تجتمع فيه لعنات الأرض جميعها

ركبتُ السفينة المتجهة إلى روما هذا الصباح، كان مشهدًا مهيبًا، أقف أعلى السفينة، بجانبي حشد من المسافرين، دموعهم تودّع من يقف على رصيف الميناء، كنت أتمنى أن أشعر مثلهم، أن يكون هناك من يودعني بحرارة، أن يبكي على فراقي، أن يتمسك بي كي لا أسافر، ولكني بالفعل أودع الفراغ، أودع اللاشيء، أودع سنوات التيه والغربة والمرارة والاختباء بداخل شخصية لحماية نفسي من شخصياتي السابقة، سأصطحب أعدائي لأخوض حربًا وحدي، إن خسرت فسأخسر وحدي، وإن فزت فسأفوز لنفسي

بعد أن أبحرتْ السفينة وأصبحت بمنتصف البحر، علم البحر بأني هنا، فتأكد لي كلام الصياد إبراهيم أن البحر يريدني ويشتاق أن يبتلعِني أنا، ولكني لم ولن استسلم أبدًا دون أن أعلم من أنا، تعرضتْ السفينة لعاصفه قوية، كادت أن تغرق بمن فيها، كلّ شيء مضطرب، أصوات الناس تستغيث، البحارة يلقون الأوامر، القساوسة يناجون الرب، والشيوخ يدعون الله، الأطفال يبكون، وأنا في غرفتي أعلم

جيدًا أني عندما أظهر للبحر سيأخذني وينتهي كلّ شيء وتهدأ العاصفة فأنا المقصود، كان بيدي الاختيار أن أخرج وألقي بنفسي وأرحم من يستغيث بالخارج، أو أن أتركهم وأستكين وأدعو الله مثلهم لأتخلص من هذه اللعنة، بدأت أقرأ وأستحضِر تعاليم أمي آمنة وما حفظته لي من قرآن، واستحضرت كلمات سيلينا لي عندما كانت تقول إن الدين هو السند للروح والجسد والنور وقت الظلمة، وعلى حسب الالتزام ستكون القوة، كنت أشعر بالأمان والسلام وأنا أقرأ القرآن، وكلما قرأت القرآن هدأ البحر، يعلو صوتي به فيهدأ أكثر، وكأني أروّض وحشًا كاسرًا، عاد البحر صافيًا وهدأت العاصفة، واستقر كلٌّ في غرفته واحتمى بأبوابها واستكان حتّى وصولنا لميناء روما، وكانت تلك البداية التي اعتقدت سابقًا أنها النهاية

توجهتُ إلى عنوان منزل الخواجة أنطوان في روما، قصر جميل، صغير نوعًا ما، مليء بالزخارف والرسومات اليونانية، رائحة سيلينا وكاميليا بها، فكاميليا زارت روما مرة واحدة فقط قبل هبوطي على بيتهم واقتحامي لحياتهم، استقبلتني السيدة إلينا وزوجها فليبوس مديرا خدم المنزل، مارستُ حياتي العملية، ونسيتُ أمر الآلة القابعة بغرفتي، كنت أتلهف لأي أخبار تأتي من الإسكندرية، مرّ شهر.. شهران وصندوق بريدي فارغ من أي رسائل، بدأت أنشغل بدراستي وتعمقي

في عملي، حتّى جاء يوم كنت أتناول فيه قهوتي الصباحية في حديقة الفيلا، وإذا بعامل البريد يضع رسالة في صندوق بريدي، انتفض جسدي وارتعش قلبي، وأصبح يسرع الخطى كي يشتم رائحة كاميليا التي يموت اشتياقا واحتياجًا إليها، استلمتُ الرسالة وذهبتُ مسرعًا إلى مكتبي ووصيتُ بعدم إزعاجي، وانفردتُ برسالتي التي انتظرتها كثيرًا، فتحتها وقرأت:

- لن أقول سلامًا ولا تحية، فلا سلام ولا تحية على من باع العهد وخلف الوعد وفضّل البعد عن القرب، لا سلام ولا تحية على من عاش بالعقل وغلّفه القلب بأجنحة الحب، لا سلام ولا تحية على من خان القلب واستهان بالعقل، فأصبح غريبًا ليس له إلّا الذكرى، ولكني سأسألك سؤالًا وحيدًا مثلي؛ كيف لك أن تعيش كلّ هذا دون أن تسمع صوتي؟ دون أن تطمئن عليّ؟ ألا تعلم أني لا أستطيع العيش بدونك؟ ألا تعلم أن كاميليا وتوماس شخص واحد لا يتجزأ؟ كيف لك أن تفعل ذلك وأنت تعلم بأني لا أحتاج الآن إلّا إليك بجانبي؟ كيف علمت أني الآن أعيش براحة دون أن أبكي كلّ يوم قهرًا وظلمًا لما شعرته من قسوة القدر وظلم الأيام لي؟ توماس وسيلينا كيف يغيبان عني فجأة؟ هربتَ مني وأنت تعلم جيدًا أني ما كنتُ أتركك تذهب وحدك، كنت سأذهب معك أينما تكون، تمنيتُ من قلبي لك النجاح، ودعوت بعقلي

أن تعود سريعًا حتّى لو كان ذلك بسبب فشلك، تمنيت لك النجاح والفشل في آن واحد، منذ متى وكان تحقيق أحلامك بالسفر؟ منذ متى وأنت تسعى للغربة؟ ألم تعدني أنك لن تتركني مهما حدث؟ الآن وقد نكثت عهدك، هل سأصدقك بعد ذلك؟ تمنيتُ أن أعيش حياتي مثلك غير مبالية بمن حولي، جرّبتُ ولم أنجح، اعتزلتُ كلّ من حولي وأصبحت أنا وأنت وسيلينا وصور كانت تجمعنا تحكي عن أيام سعيدة كنا نعيشها، عن ضحكات أمضيت عمرى بها وكنت أظنها لا تنتهي، ولكنها انتهت وانتهى بي الحال في غرفة صغيرة في بيتنا الصغير في منطقة سموحة معكم وذكريات لن تنسى وجرح لم يندمل بعد، فهل تعتقد أني أستطيع أن أنساك؟ تركنا القصر، ما عاد يحمينا من ذكرياتنا، أبي أصبح سكيرًا، يتأخر كثيرًا وأحيانا لا يأتي، كنت أخاف في البداية من وحدتي ولكني تعودت عليها وأصبحت قوية مثلما تريد، كنت أنوي عدم الكتابة لك أبدًا، ولكن لا أدري متى وكيف كتبت لك وبدأت برسالتي، أكتب لك كلّ يوم ما حدث معي في مذكرة زرقاء لن تقرأها إلّا إذا كنت هنا، ولكني الآن أعتقد أن قلبي هو من يريد الاطمئنان عليك بعد أن انقطعت أخبارك عني وعن أبي، غضبي منك ما زال قائمًا، ولكن سيلينا تأتي كلّ يوم تناديك في منامي وأنا أدير لك ظهري، فهل لديك تفسير لهذا المنام؟ وفي النهاية سأرسل لك تحياتي

كاملیا أنطوان

التي كانت أختك

وبالرغم من أسلوبها الجامد الممزوج بحنان وخيبة أمل، ما هزني من داخلي إلّا الكلمة الأخيرة، ما معنى أن تقول: التي كانت أختك؟ هل فضح أبي سري وأخبرها بالحقيقة؟

حضّرتُ الورقة والقلم كي أردّ على رسالتها برسالة، سأفهم منها ما يحدث معها:

- بعد سلامى وتحياتي وقبلاتي الحارة

في البداية سأصف لكِ حالتي عندما استلمت رسالتك، هل تعلمين أني يوميًا كنت أنتظر ساعي البريد بشغف ولهفة؟ كنت كالغريق الذي يلتمس شطًّا ليرسو عليه، عندما وصلته رسالتك تنفس وعلم أنه على وعد بالحياة مرة أخرى، كنت أشتاق لك، وبالرغم من قسوة رسالتك؛ قرأتُ الحنان الذي يطلّ من بين السطور، لا أصف قدر الألم الذي أصابني من جملتك الأخيرة، ماذا تعني جملة التي كانت أختك هذه؟ أنت أختي وما زلتِ أختي وستبقين أختي حتّى يشيب الرأس، لا تتخيلين مدى ألمي وأنيني الآن، ولكني أتفهم غضبك وأريدك أن تعلمي يا صغيرتي أن الحياة لن تعطيكِ الفرح دائمًا، وأن القدر سيضع أمامك مواقف لا بد من تحملها

وتجاوزها، وحينها لا بد أن تحتفظي بقيمة الأشخاص في قلبك، حتّى لو اختلفت أماكنهم وتغيرت أدوارهم، كوني ذات العقل المستوعب والقلب العطوف، عندها ستكون قلوب كلّ من حولك ملكك، لا بل ستملكِين العالم بأجمعه، واعلمي أني بجانبك، إن لم أكن بجسدي فسأكون بروحي، سأكون برسائلي التي أعدك بأنها لن تنقطع، أعدك أنك ستجدينني يومًا أمامك دون سابق إنذار، حينها سيكون لك الحق في رد ما فعلته بكِ كيفما تشائين، تأقلمي يا كاميليا ولا تجعلي العالم بغرفتك، اخرجي للعالم مع صديقاتك وتجنّبي ما كنتُ أنهاك عنه، سأنتظر رسالتك وأخبارك وادعى لي بالتوفيق

توماس أنطوان

الذي ما زال أخاك

استمرت الرسائل بيننا، كانت تحكي لي عن يومها، وكنت أحكي لها عن يومياتي في الجامعة التي بدأتُ فعلًا أتفوق فيها، حضرت الماجستير والدكتوراه

بحثتُ عن لغز السوناري وعلمتُ أن هذه الآلة وجدت في البحر في صندوقها الأصلي الذي سرق ولم يستدلّ على مكانه، كتب عليه:

" احترس ولا تغترّ ولا تعجب بموسيقى غيرك حتّى لا

تلتقى النهايات وتتكرر الأنشودة "

فهمتُ أن اللعنة لم تكن في الآلة، كانت في النوتة المصاحبة للآلة، ولذلك عملتُ عليها وأخفيتُ نوتتها الأصلية وغيرتُ فيها، ومن هنا كانت شهرتي في روما بتلك الآلة التي تجلب السعادة لمن يمتلكها، توهمتُ أني انتهيتُ من لعنة من اللعنات التي تحوطني، تمتعتُ بنجاحي الذي أبهر الجميع، وأصبح توماس أنطوان علمًا من أعلام الموسيقى الإيطالية

***

النغمـة الثـامنـة

انـطلاق

وتر مشدود، وعضُد متمسكٌ بالقوس

نفوس متأهبة وعيون شاخصة

وجهت الأنظار وسيرت الأقدام وما تبقى غير الإقدام

منتظرين لحظة البداية

بداية انطلاق السهام

سهام القدر التي ستصيب الهدف

هدف ضبابي مجهول

رؤيته ستصيب النفوس بكثير من الذهول

ولكنه القدر نسير إليه بإرادة الوصول

وعند الوصول نتمنى أن تزول

(١٦)

الإقــــــدام

ما زالت رقية صامتة هادئة، ثلاثة أيام مرت على محاولة هروبها، بقيت حبيسة غرفتها، لم تتكلم مع ماهر أبدًا ولو حتّى بكلمة، كلما دخل عليها غرفتها ليحضر لها الطعام وجدها شاخصةً تنظر للساعة التي أمامها، حاول التحدث معها كثيرًا، في كلّ مرة يحاول أن يظهر لها حقيقة موقفه وسوء ظنها به، يحاول أن يستفزها بالكلام، حتّى أمها عندما تتصل لا تريد أن تتكلم معها، فيعتذر لها بالانشغال، هي فقط تفكر، هي الآن حرة في اتخاذ قرارها، هل تسير وحيدة مع اثنين شرخ الشك علاقتهم؟ مع كتاب أدى لنهاية حياة أخيها؟ أم تسافر وتنهي هذه المعركة المحسومة نهايتها؟ انتابها إحساس بالضعف والهوان والهزيمة، انعدام الثقة في الوصول لنهاية ترضيها، حسمت شأنها وقررت أن تسافر إلى أمها وإلى أبيها، إلى حصن حمايتها وأمانها الوحيد، وألّا تتركهم بعد ذلك أبدا، حتّى نامت هذه الليلة هادئة، عقلها أعطاها إجازة لتستريح من الحيرة والاضطراب

عندما فتحت عينيها ورأت ماهر وزوجته عند رأسها خائفين عليها تصرخ نظرات القلق في عيونهما، عرفت منهما

أنها كانت تبكي وتصرخ باسم رفيف أختها الصغيرة، تكرر كابوسها، ولكن تجسدت الصغيرة بشكل رفيف أختها، ومن بعيد يظهر رأس صغير مختبئ يتلصص خائفا مما يحدث، إنها سيلا ابنة ماهر الصغيرة، ابتسمت رقية لها ودعتها إلى أحضانها لتستمد الأمان والبراءة من هذه الطفلة التي لم تلوثها الحياة بعد، رفعت رقية عينها إلى ماهر وطلبت منه الاتصال بمالك وأخْذ ميعاد منه ليلتقوا خارج المنزل ومعهم الكتاب، في النهاية اقتنعت رقية أن مواجهة مخاوفها أقصر طريق للتخلص منها مهما كلفها الأمر

ذهب مالك إلى المطعم المختار، مطعم فاخر كما يحلم دائمًا بجلسة رومانسية به وبمن يحب، انزوى مالك في ركن بعيد وحاول فتح الكتاب ولكنه مغلق تمامًا متيبس، وضعه بمكانه في حقيبته، وانتظر ماهر ورقية، مرت نصف ساعة ولم يصلا أو يتصلا، بدأ يشك في احتمالية إلغاء الميعاد من قِبل رقية، اتصل بماهر، كان هاتفه مغلقًا، ولكن عادت روحه التائهة لجسده عندما رآها أمامه، تدفع باب المطعم برزانة ورقة وهدوء كملكات تعوّدْن على أصول الإتيكيت، هي أساسًا لا تقارن عنده بملكات الكون، هي جميلة فحسب، لم تتخلّ عن صلابة ملامحها، ظلت جامدة حتّى سألته مباشرة: أين الكتاب؟

نظر مالك لها وقد اعتلى القلق تعابير وجهه، مدّ يده في حقيبته وأخرج الكتاب ووضعه في منتصف المنضدة، وُجِّهَتْ نظراتهُم له، وساد الصمت دقائق، وأغرق التوتر أجسادهم بدماء ساخنة، ونبضات قلوبهم المسموعة، أما هي فتحاول يدها اليمني طمأنة اليسرى، تأمرها بعدم الارتجاف، تأمرها بأن تواجه وتتخلى عن ضعفها، تأمرها بالهمة للثأر

لاحظ مالك حربها، فتجرّأ لمحاولة لمس كفها المرتجف في محاولة بائسة منه لطمأنتها، ولكنها سحبت كفها وردعته بنظرة غاضبة، بادر ماهر بفضّ هذا الاشتباك الصامت بفتح الكتاب مستخِفًّا به:

" هذا هو ما يرعبكم، بسم الله "

اقترب منه، لمسه، حاول فتحه ولكنه على حاله، متيبسٌ منتظرٌ لحظة الخضوع، وحينها انطلق مالك بالإفصاح عن حالة الكتاب منذ لمسته رقية في بيته، ظلت الحيرة على وجوههم حتّى نظر مالك ورقية إلى ماهر، ربما هو السبب

فهم ماهر أنهما يريدان أن يبتعد، ربما لا يريده الكتاب معهم، ابتعد ماهر وانتظر بسيارته، وبعد غياب ماهر عادا ينظران للكتاب ثانيًا وحاولا فتحه، لم يفتح أيضًا، سرحت رقية في خطوطه الذهبية، وتذكرت ماهر وحديثه معها عندما كانا في الطريق إلى المطعم منذ قليل، وكيف وصف

لها شعوره بتفاهة مالك عندما ارتعب من كتاب لم ير فيه إلّا نوتات موسيقية، وأنه مجرد كتاب موسيقى لا يمتّ للأدب بصلة، ولم يتخيل أن هذا الكتاب قتل أخا رقية، وجعل حياة رقية ومالك مثل النار المتأججة تهدأ قليلًا وتشتعل كثيرًا، ولكنها في النهاية نار محرقة، نظرت رقية سريعا لمالك وقالت:

- ماذا كنت ترى في الكتاب يا مالك؟

وصف لها أنه كان يرى خرائط فقط، ومع فتح الكتاب دائمًا كان يسمع نغمة مرعبة

باغتَته متذكرة:

- " وأنا رأيت في صغري وصفًا لأماكن وقصور، سمعت أيضًا نغمة، فلا بد أن لتلك النغمة صلة بالكتاب "

سكتت قليلا وهي تنظر للكتاب، وفجأة رفعت عينها لتنظر لمالك، وأخبرته:

- هذا يعنى أن ماهر له علاقة أيضا بالكتاب

تساءل مالك بتعجب:

- ماذا تعنيين يا رقية؟

أردفت:

- هو الوحيد الذي يرى نوتات موسيقية في الكتاب، وبالتأكيد هذه النوتات لها علاقة بالنغمة الموسيقية التي نسمعها

ساد الصمت لثوانٍ يفكر كلاهما في هذه الافتراضية، أخرج مالك جهازه المحمول الجديد واتصل على رقم ماهر وطلب منه الحضور معهما

حضر ماهر والقلق يعتلي وجهه، هو لا يتمنى أبدًا أن يكون جزءا من هذه اللعنة التي رأى تبعتها في حياة رقية ومالك، أراد أن يهرب منها فتبعته، وجّه كلامه لرقية:

- ماذا حدث حبيبتي؟ هل أصابك مكروه؟

حركت رأسها بالنفي وأشارت له أن يجلس، سرد مالك عليه ما افترضاه، واقترحا عليه أن يبقى معهما، فمن الظاهر أنه جزء من تلك الأحجية التي لا تكتمل إلّا بوجوده، احمرّ وجه ماهر وبدا عليه القلق، هو يخاف على حياته، على بيته، على بنته الصغيرة، ولكنه أجبر على الموافقة وأشار إلى الكتاب

- " وماذا بعد ذلك؟ ماذا سنفعل مع هذا الكتاب؟

نظرت رقية للكتاب طويلا وسرحت في تداخل خطوطه الذهبية المنسجمة مع خلفيته السوداء، لا بدّ أن تلك الخيوط

الذهبية تخفي سرًّا، تخفي قيمة، تعودت رقية أن تلاحظ ما يختبئ خلف السطور، اطمأنّ قلبها أو ربما هي من تحاول طمأنة قلبها بأن خلف كلّ هذا السواد بريق ذهب يلمع ويتلألأ، يحاول هذا السواد إخفاءه، اعتدلت في جلستها وتأهبت، حركت كفها المرتجف الخائف لأول مرة على الكتاب، وأفرغت ما في نفسها بكلمة واحدة "ويجا "

التفت ماهر ومالك لها وقال ماهر:

- ماذا تعنين؟

نظرت لماهر وتكلمت مفسرة لكلمتها:

- هناك لعبة خرجت للنور منذ فترة في بعض أفلام هوليود لا تتحرك إلّا إذا وضع لاعبوها أيديهم عليها، وبعدها هي من ستوجههم إلى أجوبة استفساراتهم، وأعتقد أن هذا الكتاب يقودنا لنفس البداية، وهي وضع أيدينا عليه ليشعر بنا

بادر ماهر بوضع يده أوّلًا، ونظر مالك لرقية، فوضعت يدها وأسرع مالك بوضع يده، دقائق وحدث مالم يتوقع، دبّت الروح بالكتاب واهتزّ تحت أيديهم، انتفضوا وأبعدوا أيديهم عنه، توقفت اهتزازته بمجرد أن ابتعدوا عنه، ولكن صدورهم ما زالت تنقبض، بدأت الخيوط الذهبية التي تتوارى خلف سوداه في رسم حروف وكلمات، أخرج مالك سريعًا ورقةً

وقلمًا وبدأ في تدوين ما يكتب:

- "حقيقتكم ستعطيني القوة، وحقيقتي ستعطيكم الحياة، الفرصة لثلاث بثلاث، والنهاية لمن أراد "

انتهى الكتاب من كتابة الكلمات الافتتاحية للغز، واحتلت الدهشة الوجوه الثلاثة، لم يعطهم الكتاب فرصة للتفكير، فتحت أولى أوراقه وظهرت كاملة، في اليمين نوتة موسيقية صغيرة وتحتها اسم موسيقار تلك النوتة، وفي الجانب الأيسر خريطة مكتوب أسفلها وصف لمكان

قصر الحنين

" غرفة مغلقة لمشاعر منسية، يغلفها الزمان بباقات من الدموع، ذكريات بعيدة، أنين مستمر، وجرح نازف، رغبة جامحة للدموع بغزارة، جدران تغلفها الحقيقة بستائر سوداء، إذا دخلتَه أيقنتَ بعدم الخروج، فستترك هنا روحك وإذا خرجتَ تمنيتَ البقاء للأبد، منه يبدأ كلّ شيء، ومنه ستعود للحقيقة "

كلمات لم تزِدهم إلّا حيرة، أمسك ماهر برأسه، نهض من مكانه واستقام، أمسك بمفاتيح سيارته وقال وعيناه حائرة خائفة:

- لن أدخل في هذه اللعبة، أنا عندي من أخاف على حياتي

من أجله، ابنتي من سيربيها من بعدي إذا دخلت ولم أتمكن من الخروج؟ ما هذه الألغاز؟ تعالوا معي نحرق هذا الكتاب، وينتهي كلّ شيء ونعود لحياتنا من جديد وننتهي من كلّ هذا القلق والحيرة

قامت رقية وحاولت تهدئته وربتت على كتفه وقد زادها موقفه أمانًا أنه لا يعلم عن الكتاب شيئا من قبل، قلقه الزائد على ابنته وبيته يوحى لها بأنها بأمان معه، طمأنته بصوت منخفض:

- اهدأ يا أخي حتّى تفهم ما توصلتُ له من هذا اللغز، وبعدها قرر الطريق الذي ستسلكه لتطمئن على حياتك

استجاب لها وعاد ليجلس متأهبا، قالت رقية وهي ناظرة للكتاب:

- ما شعرتُ به الآن يا ماهر أن هذا الكتاب لا يريد لنا الشر، هذا الكتاب يريد أن نصل لمراده الذي بالتأكيد سيكون خيرًا له، وأعتقد لنا أيضا كما يتضح خلف سطور اللغز، لأنه إذا كان مراده الضرر كنتُ أنا أول مَن نلث عقابه

رد عليها مالك:

- وأخوك وما حدث له؟

أردفت رقية:

- من المتضح أن لعنة هذا الكتاب تصيب كلّ من يقترب منه، ربما تمرد أخي عليه وعلم سره ولم ينصع له ولذلك آذاه، وربما يريد الآن أن يصل بنا إلي حل لغز موت أخي والأحلام والنغمات التي نسمعها وأسرار أخرى لكاتب هذا الكتاب ليخفيها لميعادها

حاول مالك أن يحلّل حالة رقية الغريبة، فإما أنها تخطط لحيلة جديدة لجعلهما يصدقان أنها بالفعل اطمأنت لهما وللكتاب حتّى تجيد خطة هروبها، وإما أنها إنسانة إيجابية تفكر بعقلها وتحاول استخلاص الخير الكامن في الشرور الظاهرة، ولكنه يرجح الحيلة، فالخوف يحفز دائمًا مناطق التحايل بداخل العقل، ماهر لم يفكر إلّا في خوفه على استقراره وحياته التي نسى بها كلّ ما يخفيه في منطقة النفايات بداخله، ورقية بدأت تشك بنظراتهما وتشعر بكشفهما لها، فحاولت أن تغير دفّة الحديث بما لا يكشف خطة أرادت أن تتقن نسجها، فأتقنت غزل خيوطها وعقدت في النهاية طرفها لكيلا ينفرط، وأردفت:

- هذا لا يعني بالتأكيد أن خوفي وقلقي تلاشى، هناك كثير من الأسئلة ما زالت تعصف بداخلي، مثلًا لماذا اختارنا الكتاب وجمعنا كلًّا من مكانه؟ ولماذا نحن بالأخص وليس

غيرنا؟ ولماذا ظهر لمالك بالأخص؟ وأين هي المكتبة التي اختفت إذا افترضنا صحة ما أخبرنا به مالك من قبل؟

ولتعقد آخر عُقَد حيلتها نظرت لمالك نظرة أشعرته بفقدان الأمل في خضوعها ولين قلبها نحوه، وأكملت:

- وهذا لا يعني أني وثقت بكما وخاصةً مالك وأن له صلة بكاتب هذا الكتاب

جملتها الأخيرة كانت بمثابة الفتيل المشعل لكل نيران مالك الخامدة، وبداية لانفجار بركان غضبه مما يحدث، ضرب مالك بيده المنضدة أمامه مما استرعى انتباه من حوله:

- كفى! حتّى هنا وكفى يا رقية! تحملتُ نظراتك واتهاماتك، أصبّر نفسي وأعلقها بأمل أنك ستفهمين وتشعرين بي وتعلمين ألّا علاقة بيني وبين هذا الكتاب، أنتظر لتشعري كم أحتاج للأمان أكثر منكما، على الأقل لديكما من يخفف عنكما خوفكما ويضمكما لتشعرا بالأمان بداخل حضنه، ولكن أنا وحيد أعيش معه في بيت واحد، أستيقظ يوميًا وأحمد الله أني ما زلت على قيد الحياة ولم يتخلص مني بعد، كفى يا رقية، إن لم تستطيعي أن تشعري بي فعلى الأقل لا تظلميني

كانت الكلمات قاسية على مالك قبل أن تكون قاسية على

رقية، طريقته وسحابة الدموع التي جعلت عينيه الزرقاوين أكثر جاذبية أشعرَتْها بمعاملتها الدونية معه وقسوة مشاعرها تجاهه، أشعرَتْها أنه يحتاج فعلًا لمن يحتوى مشاعره، ولكن من عيوب شخصيتها أنها إن منحت الأمان لشخص وقابله هو بالغدر أو ضرب القلق علاقتهما بقيت حذرة منه إلى أن يثبت عكس ذلك بالبرهان والدليل القاطع، فلذلك كان من الصعب عودة رقية بسهولة إلى طبيعتها معه

نظر ماهر ومالك للخريطة في الكتاب محاولين فكّ رموزها، ولكنها باللاتينية، فخطرت نفس الفكرة فى أذهانهما، وفي نفس اللحظة تكلما وأفصحا عن اسم " وائل حسين "، حرك مالك رأسه بالموافقة، وأخرج هاتفه وأخرج رقم هذا المدعو وائل حسين

استفهمت رقية:

- من المدعو وائل حسين؟

رد ماهر عليها باختصار يعرفها عليه: إنه مدرس مساعد في جامعة ميونخ في علم الجغرافيا، وهو صديق لهما من الجالية المصرية الموجودة هنا، اتصل مالك به، كانت طريقته في التحدث معه توحى لها فعلًا بصداقتهم الطويلة، وقد قصد أن يفتح السماعة الخارجية ليستمعوا جميعًا

بعد السلام والتحية وتبادُل جمل الاستقبال المحفوف بالسعادة لسماع الأصوات بعد فترة انقطاع، أخبره مالك بأنه ستصل له رسالة بعد نصف ساعة على بريده الأليكتروني بخريطة مطلوب تحديد مكانها بالضبط، وبعدها حاول مالك تصوير الخرائط كالسابق ولكن هذه المرة ظهرت كاملة في الصورة، وهذا ما أكد للجميع أنهم يسيرون على الطريق الصحيح لحل اللغز

أرسل مالك له الخريطة بعدما انتقلوا لمنزل ماهر حيث الكمبيوتر الخاص برقية، وانتظروا الرد الذي وصل في خلال عشر دقائق، والذي أفادهم بأن الخريطة موجودة في روما عاصمة إيطاليا في منطقه تسمى أرديا تبعد عن العاصمة حوالي٣٥ كيلومتر

***

(١٧)

كـــاميـليـــا

١٩٦٠

كنتُ دائمًا أسمع مقولة أن من ضحك كثيرًا بكى أيضًا كثيرًا، الآن صدقت مقولة المصريين عندما يضحكون كثيرًا: " اللهم اجعله خيرًا "

كنت أتعجب كثيرًا منهم ودائمًا أنعتهم بالمتشائمين، ولكن هذه هي الحقيقة التي أعيش بها الآن، أكثر من خمسة عشر عامًا كنت أضحك فقط، لم أعلم معنى الحزن أو الانكسار، لم تعرف الدموع طريقًا لعيني، كنت الطفلة المدللة، الشابة المتباهية بجمالها ونسبها وحسبها ومالها، ولكني لم أتذوق طعم الحزن إلّا عندما تجرعت معنى الافتقاد

أسوأ شعور في الحياة هو حقيقة امتلاكك لكل شيء، ولكنك تشعر أنك معدم من أي شيء، فقير تحتاج لمن يشفق عليك، فقدتُ أمي في حادث لا يمكن إلّا أن أصفه بالمبهم، وفقدتُ أخي في حياة لا أعلم كيف ومتى ستجمعنا ثانية، وفقدتُ أبي بداخل دائرة الحزن التي لم نخرج منها بعد، وتزوجتُ ممن لا أقتنع به زوجا، أقضي معه بقية حياتي،

كانت هناك اختلافات كثيرة بيننا بالرغم من كونه يتعامل معي بلطف، ولكني كنت أرى تعاليه وتباهيه بنفسه، كان من الطليان المتعصبين، يتعامل مع من هم أقل منه بطريقة دونية أكرهها، تزوجت منه دون أي شيء، حتّى دون أن أطلب فرحًا وزيجة لابنة مثلي، كنتُ أرفض ذلك تمامًا، طلبتُ منه أن نقضي شهر الزواج في روما وبالطبع حتّى أتمكن من مقابلة توماس، ولكنه رفض رفضًا شديدًا بالرغم من معرفتي بحبه الشديد لها، زرتُ فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ولكني انتهيت إلى أن استقرْرتُ في القاهرة

ولأنه لا يعلم أني كسمكة تعودتْ أن تعيش بالماء، كنتُ دائما أختنق، كنت أشعر دائمًا بالضيق والحزن والاختناق بها، ولكني حاولت أن أجعل منزلي مقر متعتي، اعتنيتُ كثيرًا بأندريه زوجي، حاولتُ الانخراط بمجتمعه المليء بالسهر والخروج والسفر وحفلات السمر مع أصدقائه، ولكني كنت محتفظة بطباعي المصرية المكتسبة

فأنا شرقية الطباع أوروبية المظهر، أغار عندما أراه يتعامل مع صديقاته، وعندما اعترضت على تماديه وعدم وجود حدود بينهم عنّفني وقال إنهن هنا من قبلي وهو يعرفهن منذ زمن ولا يسمح لي أن أغير طريقة تعامله معهن، لم تستمر مواكبتي لحياته كثيرًا، جاء ذلك اليوم الذي جعلني أندم كلّ

الندم أني تزوجت وأصبحت ملكًا لرجل

بدأت ألاحظ بعض التصرفات المتطاولة من أحد أصدقائه، دائمًا يتبعني بعينه، تغيرتْ معاملته معي منذ فترة، اهتمام زائد، لمس باليد، ومهاتفته لي دائمًا في توقيت عدم وجود أندريه في المنزل، لاحظت تعامُل أندريه مع زوجة هذا الرجل المتعدي لأي حدود، تغيرتُ مع أندريه، وبدأتُ أعتزل تلك الحفلات وأرفض الخروج والسهر معه

جاءني ذات يوم معتذرًا عن كلّ ما حدث، مقسِمًا لي بتغيره، يريد فقط أن أذهب معه هذه الليلة لبيت صديقه هذا لأنه يقيم احتفالًا كبيرًا على شرف مناقصة العمر كما أطلق عليها أندريه، رفضتُ واعتذرتُ له، وسببتُ اعتذاري بأننا نمتلك الكثير ولا تهمّنا هذه المناقصة، توسلتُ إليه، أجبرني على الذهاب معه عندما هددني بعدم رؤية أبي ثانيًا، وفي الطريق طلب مني أن أتعامل هذه الليلة فقط بلطف مع صديقه هذا حتّى يوقّعا على عقد الشراكة، لم أكن أعلم أن هذا العقد سيشمل شراكة لجميع أملاك أندريه، حتّى أنا!

حاولتُ أن أتعامل بلطف، كنتُ بين الحين والآخر أذهب للبرندا حتّى أشتم رائحة هواء نظيف غير ملوث برائحة النفاق والخطيئة، خطفتني نجمة تسطع وحيدة في السماء، شكوتُ لها حالي، أوصيتُها أن تذهب لتوماس وتخبره كم أنا

مشتاقة إليه، كم أحتاجه بجانبي، وحينها شعرتُ بيد تلمس ظهري وتحتال من بين أجزاء ظهري الذي لا يغطيه فستاني، ظننت أنه أندريه، شعرتُ بلمسة تخيلتُ أنها حب، ولكنها كانت سرقة للحب، التفتُّ وأنا أقول:

- أندريه هيا بنـ...

فوجئت وقتها أنه ليس أندريه، إنه صديقه اللزج الذي لا أعيره أي اهتمام في الحفل، ابتعدتُ عنه، اقترب هو، كلما ابتعدت اقترب، نظرتُ لباب البرندا وجدته مغلقًا بالستائر، أنا الآن منعزلة تمامًا عمَّن بالداخل، أردتُ أن أصرخ، وضع يده على فمي، توقفت خطواتي، فكلّ شيء هنا متواطئ معه، وقف حائط بوابة غرفة مطلة على البرندا حائلًا بيني وبين الهرب، قاومتُ اقترابه مني، دعوتُ الرب أن يخلصني منه، ناديت على أندريه، كيف تركني في هذا الحال؟ همس صديقه في أذني:

هو الآن منشغل اتركيه، لا تقلقي راحته، هو الآن يوقع عقد الشراكة، دعيني أوقّعه أنا أيضًا

قلقتُ على أندريه، تخيّلتُ أنه آذاه ليأخذ مني ما يريد، أحاطني بيده، حاولتُ الإفلات منه، ضربته على وجهه، وحينها تحول، لا بل ظهر على حقيقته، أمسكني بشدة من شعرى وجذبني إلى داخل الغرفة، دفعني إلى ركن الغرفة

كي لا أجد مفرًّا منه، وحاول الانقضاض عليّ ولكني دافعت بأقصى ما أوتيت من قوة

توسلتُ إليه أن يتركني، لاحظتُ بابًا جانبيًّا آخر غير الذي أدخلني منه إلى مصيدته، صرخت وقاومته وناديت باسم زوجي، توقف فجأة وجذبني من يدي إلي نافذة سرّيّة في الحائط:

- " وددتُ أن أجعلك تشاهدين زوجك وهو مستمتع"

فتح لي هذه النافذة المطلة على غرفة جانبية، رأيت ما لم أتخيل أن أراه، زوجي وزوجته في حالة لا يمكن أن تصفها كلماتي، ربما تترفع أن تصف مشهدا كهذا، أوضح لي هذا الدنيء أن هذه ليست المرة الأولى ولا بد من إتمام آخر بنود العقد المبرم بينهما، وهو التبادل عن طيب خاطر

لم أصدق ما أراه، كانت صدمة حياتي أن أرى مَن تركتُ معه كلّ شيء وتوسّدتُ حضنه كلّ يوم في هذا المشهد، وفي لحظة صدمتي وضعفي انتهز هذا الوحش اللحظة وانقضّ عليّ، لم يصل إلى مراده مني، ولكنه وصل لشيء آخر، اقترب من لفظ أنفاسه الأخيرة بعدما دفعته بعيدًا عني في لحظة ضعفه بكامل قوتي حتّى اندفع وارتطمت رأسه في طرف منضدة زجاجية مدبب، جرحتْ رأسه وسال دماؤها، استطعتُ بعدها الهروب من الغرفة، حاولتُ أن أخرج

بين مَن في الحفلة ولكن ملابسي تمزقت، أنقذتني سيدة تخدم في هذا المنزل عطوفة، ربما أشفقث عليّ، أعطتني معطفي لأغطي ما انكشف من جسدي وأذهب سريعًا قبل أن يلاحظ مَن في هذا المنزل شيئًا، ولكني أعتقد أن أمامهم الكثير حتّى ينتبهوا، فعقولهم مغيبة وقلوبهم مطموس عليها، خرجتُ أركض في الطريق هائمة على وجهي، لا أعلم وجهتي أين أذهب، لم أجد إلّا محطة القطار لأتجه إلى أبي مباشرة دون المرور على بيت ذلك الوغد، ركضتُ كثيرا لا أعلم لأين ومِن مَن، لم يكن لي أصدقاء فى القاهرة مثل ما لي في الإسكندرية، وكذلك لم أكن على دراية بالطرق، لذلك ضللت الطريق، ولكني فقدت الوعي في منتصف الطريق

وعندما فتحتُ عيني وجدت ما لا أحب أن أراه، أول الوجوه التي رأيتها كان وجه أندريه، وكان أبي بجانبه ووالدته في الجهة اليسرى، تعجبت من اجتماعهم، وسألت عن مدة استغراقي في هذه الحالة

نظرت لأبي وحاولت أن أتوسل إليه بعينيه ليأخذني من هذا المستنقع، كانت الابتسامة ساطعة على وجوههم جميعًا، بادرتني والدة أندريه بمباركة لم أعلم سببها:

- " مبروك يا حبيبتي، نشكر الرب على عطيته، وستكون مضاعفة عندما يأتي حفيدي يضيء حياتنا "

تعجبتُ من الكلمة، نظرت لأبي الممسك بيدي اليمنى:

- " حفيدي"؟!

نظر لي أبي وضحك وأومأ برأسه بالإيجاب، وهنا سمعت صوته، صوت ذلك الرجل الذي سقط من نظري إلى أعمق مستنقع على وجه الأرض

- مبروك ياحبيبتي أنت حامل

رفعتُ حاجبي وتعجبت:

- حامل؟!

نظر لي لأول مرة في حياتي معه بهذه القسوة

- نعم أنت حامل وعن قريب ستنجبين الطفل الذي تمنيته دائمًا لقد استجاب الرب لدعواتك "

هذه الكلمة تتمناها أي أنثى في العالم، أي أنثى لأي كائن حي تتمنى أن تحتضن ابنها في أحشائها، أن تشعر به ينمو بداخلها، ترى النور عندما ترى عينيه، إلّا أنا، نعم تمنيتها كثيرًا ولكن قبل هذه الليلة بالتأكيد، أنا الآن لا أتمنى من حياتي إلّا أن أخرج من هذا المستنقع بأمان

طلب أندريه من الجميع حينها أن ننزل لتناول الإفطار معًا في الحديقة الخاصة بالمنزل، خرج الجميع وبقيت أنا

وهو فقط في الغرفة، أغلق الباب واتجه إليّ، شعور بالغثيان أصابني عندما اقترب مني وأصبح بمواجهتي، أظهرتُ اشمئزازي منه، وابتعدتُ بجسدي عنه، وحاولت أن أتحرك وأترك له هذا المضجع الذي تلوث باعتلائه إياه، وتفوَّهْتُ بما أردتُ أن يخرج من فمي:

- " لا بدّ أن أخرج من هنا، أنا لا أريد أن أعيش معك، طلّقني لن أستطيع النظر إليك "

استطعتُ حينها أن أعتدل وأتهيّأ للنهوض فكانت قدماي على الأرض، اقترب مني وحاول أن يلمس شعرى وقال لي ولهجة الخبث متجلية بصوته:

- "يمكن أن نهدأ لكي نستطيع التفكير في حياتنا وما سيأتي"

أبعدت يده عني ونطقتُها ثانية:

- أنا سأذهب للبابا وأطلب منه الطلاق أو سأطلب الانفصال أنا لا أريد الزواج ثانيًا "

ضمّ شعرى المنسدل على كتفي وجذبه بقوة لأسفل، حتّى تحركتْ معه رأسي للخلف، وانزوى جسدي على السرير وأصبحتْ قدماي معلقة في الهواء

وتفوّه بمخطّطه المنحطّ قائلًا:

- إذا فعلتِ هذا سأذهب له بشهود على قيامك بالزنى ولن أعترف بهذا الطفل، وعندها لن يستطيع الخواجة أنطوان المتدين إلّا أن يقتل ابنته الوحيدة ليتخلص من عاره، وسأكون أنا البريء المتهم بخطيئة لم أرتكبها، حتّى وإن لم يقتلك أبوك سيقتلك ابنك الذي سيحمل خطيئة أمه الزانية مدى الحياة، يكفيكِ ما فعلتِه بالرجل في بيته، أضَعْتِ عليّ الصفقة، ولن أنسى لكِ هذه الخسارة أبدًا"

نظرتُ باحتقار لهذا الشيطان المالك لحياتي، واحمرت عيناي واغرورقتا بالدموع، فترك شعري بقوة وهو يدفعني حتّى ارتطم رأسي ارتطامة خفيفة بالسرير، وأصدر الأوامر وهو متوجه إلى باب الغرفة:

- اغسلي وجهك واغتسلي وسأنتظرك بالأسفل ولا تنسي أن تكوني سعيدة أمام الجميع، أعلم أنك تحبينني ولا تريدين أن أحرَم من ابني "

واستدار ليغلق الباب بعد أن أصبح خارج الغرفة وقالها ثانية ونظرة الخبث في عينيه:

- أم أنه ليس ابني؟

نظرتُ له وأطلقتُها وأنا ألقي الوسادة في وجهه:

- أكرهك

بكيث بحرقة، صرخث صرخة مكتومة لم يسمعها إلّا ابني الذي بداخلي، والذي قُدّر له أن يعيش آلامي قبل أن يولد، أنا أتعلّم الآن العيش كغزالة بين قبيلة الأسود، فكلّ ما عليها أن تتعلم كيف تنجو بحياتها وهي تسأل نفسها كلّ ليلة من سينقضّ عليّ الآن؟

وما زال العذاب يعشقني، فاليوم الذي يولد فيه ابني، يرحل فيه أبي، رحل بسبب حادث سيارة، حينها أطبقت أبواب الجحيم على حياتي، وأسرتني سجينةً لحزن مدفون في أعماقي لا أريد الهرب منه، اعتدتُه وكدتُ أتلذذ بمذاقاته المختلفة، وأعتقد أنه كذلك سرّه العيش معي، كنت أكتب يوميًا لتوماس، ولكن لا أرسل إليه ما أكتبه، لا أعلم لماذا، ربما كان رفقا به، أو غضبا عليه، ولكني لم أرسل إليه

جاء ابني إلى الدنيا، انشغلث به، أنستني ضحكاته ما أنا فيه، سكنث جروحي وأصبحت دقات قلبه كترياق يعيد الحياة لقلبي، حياتي كانت بين اعتنائي بابني وعبادة الرب، أحاول فيها تكفير ذنوب ربما ارتكبتها بالخطأ وأعاقَب عليها الآن، ذنوب جعلت حياتي جحيمًا، حياة وحيدة مليئة بالآثام التي لا أستطيع التعايش معها، أو البوح بها، آلام تئن كلّ ليلة عند عودة زوجي مخمورًا يتمايل، تفوح منه رائحة الرذيلة

والفجور، ما زالت آثار خيانته مطبوعة على وجهه، ولكني ما زلتُ أمَنّي نفسي بصلاحه وعودته لي نادمًا مقسمًا على عدم عودته لآثام ارتكبها، لم أكن قبيحة المظهر ولا سليطة اللسان، أحاول أن أرضيه وأن أظهر دائمًا له بمظهر يجعله يتمنى أن يقترب مني، أتمنى أن يترك كلّ شيء ويبدأ من جديد معي ولكنه رفض، أتمنى أن يعيش ابني في أسرة مستقرة يتذوق الحب من أبويه ليستطيع إعطاءه لمن حوله كما تذوقتُه من أبي وأمي، ولكن للأسف قُدّر لطفلي أن ينشأ في عائلة مفككة

اكتشفتُ أن أبي قبل وفاته قام بعمل توكيل لزوجي بإدارة تجارته إذا حدث له شيء، تعجبتُ من هذا التصرف لأبي، لماذا لزوجي؟ ولماذا لم يكن لتوماس ابنه؟ شككتُ في طريقة موت أبي، لأن هذا التوكيل كتبه أبي قبيل موته بثلاثة أيام فقط، هل أندريه من قتله؟ كذبتُ نفسي، لماذا يفعل هذا وهو يمتلك ثروة كبيرة لا يستهان بها؟ تعايشتُ مع الأمر حتّى أستطيع أن أثبت شكوكي، انتقلنا للعيش في الإسكندرية من جديد ليستطيع هو الاهتمام بميراثي كما أوهمني، انتقلنا إلى قصر طفولتي وشبابي وأيضا قصر أحزاني، هنا اجتمعنا ومن هنا تفرقنا، قصر المعني وضده، قصر تصرخ جدرانه بالألم، كنت أظن أننا سننتقل للعيش في قصر أندريه المغلق في الإسكندرية، ولكنه أراد وصمم أن نقيم فى قصري، كان من الصعب عليّ أن أقيم فيه ثانية،

وبالرغم من عِلْم أندريه بكل ما حدث، وعلمه بمدى حبي لهذا المنزل، وبمدى ألمي فيه، شعرتُ أنه يريد هذا، يريد أن أعيش مزيدًا من الألم، وربما عشقني وأنا أبكي فصارت عنده عادة، ولكني حاولت أن أجدد القصر، غيّرتُ ملامحه وجعلته بيتا ينضح بالحياة من جديد

حاولتُ العودة إلى صديقاتي، إلى حياة كنت اعتدتها، ذهبتُ إلى كنيستي التي تعلمت بها الإنجيل، وتعاليم الدين السمحة، صارحتُ الأب بخطيئتي واعترفتُ بكل شيء، باركني فشعرتُ أني ولدت هنا من جديد، اعتنيتُ بابني، سيتمّ سنواته الخمس، لم أكن أعلم لماذا ولكني أشعر أنه يشبه توماس كثيرًا

وما زالت الحياة تهوى تعذيبي، تكره استقراري، وتشمئز من ابتسامتي، لا أعلم لماذا، ولكن هذه هي الحقيقة، عندما أستقر وأنسى واتعامل واتأقلم، تعيدني الحياة لسجن الحزن لكي لا أنسى أني أسيرته ولن أحرر أبدًا

حتى عندما أردتُ أن أهرب بزوجي إلى الإسكندرية، واتخذتُ هذه الخطوة فرصة لابتعاده عن ذلك المناخ القاهري الذي كرهته، وأحاول أن استرده من جديد، كنت أوهم صديقاتي بأن حياتي مثالية، مليئة بالحب والغيرة، منهن من حسدتني على ما لا تراه، ومنهن من تمنّت أن تكون

مكاني، ومنهن من حاولت أن تتذوق طعم هذا النعيم الذي أعيش به، فاقتربث لتنهل من ترياقه الشافي

ابني الآن في السابعة من عمره، بدأ يرتاد المدارس الإيطالية الموجودة في الإسكندرية، كنت أنوي أن ألحقه بمدرسة داخلية شهيرة في إنجلترا محاولة مني لإبعاده عن هذا الجو المشحون المضطرب الملوث، وأن يعيش نقيًّا بقية حياته، متوهمًا النقاء والدفء في عائلته، ولكن أندريه أوهمني أنه خسر كلّ أمواله وأموال أبي، لم أكن أعلم لماذا، ولكنه ضيّق عليّ الحال

حتّى ذلك اليوم الذي أدركتُ فيه معنى الخيانة التي أعتدتُ أن أتذوق طعمها بجميع ألوانها، وكنت أنتظرها دائمًا من أندريه، ولكن لم اتذوق من قبل هذا المذاق الحار، كنتُ أنوي في الفترة الأخيرة أن أتخلص منه، أن أطلب منه الطلاق طالما كبر جوزيف، كتبتُ ذلك لتوماس في رسالتي الأخيرة التي لم أرسلها، كتبت له أني سئمتُ حياتي، أودّ أن أعيش حرة غير مقيدة بقيود زوج خائن، سئمتُ من انتظار ميعاد خيانته الجديد، اشمأزت روحي منه، وانتهى الأمر، كنت أنتظر اللحظة المناسبة، ولكني كنت على ميعاد خيانته الجديد، علقمٌ تذوقتُه غصبا، وتخلّل جوفي لينهي حبّات الحياة التي تنبض بها عروقي

في هذا اليوم أوصلتُ ابني مدرسته وذهبت إلى النادي، وحاولتُ أن أكون في منزلي قبل موعد خروج ابني بنصف ساعة، لأني أعشق حضنه ورائحته عندما يركض مختبئًا بحضني عند قدومه، وكأنه يقول ها أنا قد تنفستُ الأمان، ولكن عندما دخلت إلى حديقة الفيلا كان هناك شيء مختلف، الحديقة خاوية من العاملين، هدوء تام لم أعهده، نظرتُ على نوافذ الفيلا وجدت الشيء العجيب، غرفة أبي وأمي المحظور دخولها مفتحة نوافذها، وأنا لم أعط أمر تنظيفها بعد، اندفعتُ مهرولة لا أعلم ماذا يحدث لي، ربما كنت أخاف من اقتراب أي مخلوق من منطقة الطهارة بداخلي، لا أريد تلويث هذا المكان بقاذورات البشر

اقتربتُ فسمعتُ ولم أصدق، اقتربت أكثر ليتضح لي مواربة باب الغرفة، فوصلتْ لي أصوات بذيئة بشعة، ففتحتُ الباب ببطء شديد، لأصطدم!! هنا وعلى مضجع أمي وأبي تمارس خيانتي، في بيتي وفي وضح النهار ، زوجي وصديقتي، كان شيئًا لا يصدق

جن جنوني، صرخت فيهما، توجهت لهما وضربت زوجي الذي كان ما زال يمارس خيانتي، أزحتُهما عن مضجع أمي، وبعد أن سقطا على الأرض توجهت إلى مكان أعلمه جيدًا ولا يعلمه غيري، توجهت إلى مخبأ سري لسلاح أبي

المرخص، وقبضتُ عليه بيدي كما علمني توماس وسحبتُ زناده وكدت أن أطلق عليهما النار وهما يستغيثان بي، لولا دخول ابني الغرفة، رآني على هذا الوضع، أبوه ومن معه شبه عاريين إلّا من أشياء بسيطة تغطى عورتيهما، وأنا أقف موجهة المسدس إليهما، نظرتُ لهم باندهاش، أمرتُه بطريقتي الحازمة التي يعلمها جيدًا:

- اذهب إلى غرفتك ولا تخرج منها

استغل الدنيء هذا الموقف ونادى على جوزيف بنبرة فيها خبث واستغلال وتمثيل:

- لا تذهب يا بني وأنقذ أباك من أمك، إن ذهبتَ فسوف تقتلني أمك ولن تراني ثانية

صرخ جوزيف وأسرع نحو أبيه، يحاول أن يحميه، وأنا أصرخ بجوزيف:

- اخرج الآن يا جوزيف، اذهب كما أمرتك

بكى جوزيف وتوسل إليّ أن أترك أباه يعيش، طفل لم يصدق من الدنيا إلّا ما يراه، بريء ينخدع بتصرفات هذا الخائن، عقله لا يستوعب ما يراه ولم يستطع التمييز بين كذب أبيه وصدقي، حاول أندريه استغلال الموقف وتحرك ببطء وأنا منشغلة بالتفكير، وصل إلى طرف السجادة التي

أقف عليها، وسحبها من تحتي، ارتطمث رأسي بالكمود الموضوع في نهاية هذه السجادة، وعلى إثر هذه الارتطامة فقدتُ وعيي وغبتُ عن الدنيا

أدركني الوعي بحرارة المكان حولي وحرارتي أيضًا العالية، فتحتُ عيني بعدها على نور الشمس يسطع في عيني، حرارة الشمس تلامس جسدي كاملا، فتحتُ عيني بصعوبة، شعرتُ بألم في يدي وقدمي، أدركتُ حينها أني سلسلتُ بسلاسل في يدي وقدمي وألقيتُ في النهاية في غرفة صغيرة صنعتها بيدي أنا وتوماس، مكان الجَرْو الذي أهداني إياه توماس وأنا في سن السابعة خلف الفيلا بعيدًا عن البوابة الرئيسية

ماذا يحدث لي؟ ما هذه الحالة التي وصلت لها؟ نبح صوتي بالصراخ، حتّى اقترب مني هذا الوحش الآدمي، اقترب أندريه، ونبهني إن لم أكف عن الصراخ فقد يغلق فمي، توسلتُ إليه أن يتركني أذهب، أن آخذ ابني وأغرب عن حياته، عرضتُ عليه أن يأخذ الفيلا، يأخذ كافة أملاكي ويتركني لأذهب، جلجلت ضحكاته:

- أين هذه الأموال والممتلكات التي تتكلمين عنها؟ لقد انتقلت جميعها لي وأصبحت باسمي بمحض إرادة والدك، حتّى منزل سموحة، ولأين تأخذين ابنك؟ ابنك انتهى من

حياتك، وأنت أيضًا انتهيتِ بالنسبة له

صرخت باسم ابني:

- جوزيف جوزيف ماذا فعلت به؟

أصدر اسم جوزيف بصوت عالٍ، حضر الصغير ووجهه مرهق وعندما رأيته بادرتُ بتوجيه الحديث له:

- جوزيف يا بني لا تصدق ما يقوله لك عني، أنا مظلومة وهذا ظالم

تكلم الصغير بجملة حفظها من والده:

- اصمتي أيتها الخائنة أنت لستِ أمي ولن تكوني أبدًا، علمتُ أنه لعب لعبته ولوّث أفكاره كما أراد تلويثي وفشل، كان جوزيف ليّنًا غضًّا يحب أباه ويكره ابتعاده عنه فصدقه، طفل صغير سهل التشكيل، وهنا انتهى كلّ شيء من قبل أن يبدأ، انتهت حياتي وسنوات عمري، وانتظاري حتّى يكبر جوزيف وأحكي له ما عانيته من أجله انتهى، كسب الآن أندريه جولته ضدي، لم ينس أني كنت السبب في ضياع أكبر صفقة في حياته، ولهذا فضّل أن يسرق مني كلّ شيء في اللحظة التي فكرت بها أن أبتعد عنه، قال أندريه بصوت يظهر به حنان خبيث:

- جوزيف اذهب سريعًا يا حبيبي، ماما أميرة بانتظارك

صرختُ عندما سمعت الكلمة، وكأنّي طُعِنتُ عدّة طعناتٍ فجأة

- لا تقل عن هذه الساقطة ماما يا جوزيف، ليس لك أم غيري

ردّ عليّ هذا الخائن:

- هذه هي أمه الجديدة التي ستربيه، ولا تخافي عندما تموتين هنا مكانك، ابنك ستربيه صديقتك فلا تقلقي عليه

صرختُ فيه:

- حرام عليك، لماذا تفعل بي كلّ هذا؟ أنا أعلم أنك تخونني منذ زمن ولكن إلّا غرفة أمي وأبي، هذا هو المكان النظيف في حياتي يا أندريه

ردّ عليّ هذا الوحش الذي انتُزِعَت من قلبه كلّ معاني الرحمة والإنسانية

- خائن وخيانة

وأتبع كلماته بضحكات سخيفة وقال:

- سنرى في النهاية من الخائن بيننا، وسيظهر ما خبأته

نظر لي باحتقار وأولاني ظهره، وهمّ أن ينصرف ولكنه توقف عندما صرخت به:

- أخرجني من هنا، ولا تتركني لأفهم ماذا تريد

توجّه لي وأنا كالمسكينة متوهمة أنه لن يتركني هكذا، ظننت أنه سيعتقني، ولكنه قام بلصق فمي حتّى لا أصدر صوتًا يزعجه، تعلقتُ بقدمه أتوسل إليه ليرحمني، ركلني في بطني وأحدث بي وجعًا، ولكنه لم يكن مؤلمًا كألم كياني المنهار في أحَبّ وأقيَم الأماكن لدي، أماكن تفوح منها ذكريات تعطر خبث عالمي، استمر بي الحال هكذا حوالي ثلاثة شهور، نعم ثلاثة شهور آكل القليل، وأقضي حاجتي في مكاني، هو ظن أني سأموت سريعًا، ولكني صمدت، كلّ فترة يأمر الخدم أن ينظفوا المكان وينظفوني حتّى لا تخرج رائحة كريهة تكشف عن مكاني، مرضتُ كثيراً وتركني لأموت ولكن القدر ما زال يريدني أن أبقى

دعوتُ الرب كثيرًا، وتوسلت إليه حتّى يريني النور بين كلّ هذا الظلام الذي أعيش به، اعتدتُ أشعة الشمس، اصطبغ جلدي بالسواد، وتغيرتُ ملامحي، اعتدتُ حشرات الأرض حتّى أني أصبحتُ صديقتها، كلّ ما أتمناه أن أرى ابني من جديد، أقبل يديه وأشتمّ رائحته

ولكني كنتُ أنتظر المجهول، أنتظر القدر، عيني معلقة على جهة واحدة، أعتقد أن قدري سيدخل منها، لم أفرق بين الأقدار، أنتظر مقيدةً من يدي وقدمي، لا يدخل عليّ إلّا من يلقون لي بقايا طعامهم، أرفضه أحيانا وأركله بقدمي، ولكني أعود لأصارع عليه القطط وحشرات الأرض الجائعة، بداخلي هذا الجهاز الذي دائمًا يعذبني بطلباته، فمن دونه ما كنت أشعر بدناءتي وتفاهة طلباتي عند مقارنتها بحريتي

أقبل عليّ من بعيد زائر، ربما أخبرت أحد الخادمات أني موجودة هنا، فمَن هذه التي استغنت عن حياتها لا بل حياة عائلتها لكي تنقذني؟ فقد أخبر الجميع أن كاميليا هربت مع عشيقها، أقبل هذا الزائر من بعيد وأنا أحدق به أحاول أن أتعرف عليه، ربما تغيرتْ ملامحه أو فقدتُ أنا نظري من تركيزي الطويل في أشعة الشمس التي تستمتع بعذابي كلّ يوم، ولكنه عندما اقترب تذكرته، إنه عم حسن، كان دائمًا يزور أبي الذي كان يقول عنه إنه يعمل حارسًا للفيلا من فترة بعيدة

اقترب عم حسن مني غير مبالٍ لرائحتي العفنة، حاول أن يزيل هذه القيود، ولكنها تمكنت من يدي، وحفرت في يدي وقدمي مسكنًا لها

- أخبرته أني لن أخرج من هنا فلا ترهق نفسك بالمحاولة

سألني لماذا أستسلم لكل هذا الذل والهوان؟

أجبته بكلمة واحدة: (ابني)

وطلبت منه أن يرسل لتوماس رسالة يخبره أني في خطر ولا بد أن يحضر فورًا، أعطيته عنوان توماس في روما، وعدني أنه سيرسلها في الحال، واستمر في مجيئه لي بعد خروج أندريه من المنزل ليطعمني الطعام النظيف والماء النظيف وينظفني، وانتظرتُ حتّى يأتي توماس فهو الملاذ الوحيد لي

(١٨)

رقية رومـــــــــــا

١٩٩٦

أحيانًا المتعة لا تكون في الوصول إلى الحقيقة بقدر ما تكمن فيما تتعلمه في طريق البحث عنها، ففي كلّ خطوة تجاه المجهول تعثُر على كنز يغنيك أحيانًا عن حقيقة هذا المجهول

انتهيث من أوراق سفري واتجهنا إلى المطار كلٌّ منا يحمل حقيبته الصغيرة التي تحوي أغراضه، ويحمل في داخله كمًّا كبيرًا من المشاعر المتضاربة، حزن وخوف ورهبة وقليل من النشوة المصاحبة للمغامرة

و ما اكتشفته مؤخرا أن مالك كان خوفه مختلفًا، فمالك وماهر لا يعلمان أني تلصصت عليهما من حائط غرفتي المطلّ على مكتب ماهر، كان مالك منغمسًا في سرد ما حدث له عندما ذهب ليأخذ بعض أوراقه من بيت أمه وأبيه، سمعته يقول لماهر أنه تفاجأ بأن أمه كانت موجودة بالبيت بعد وجوده بحوالي ربع ساعة وهذا غريب عليها، وحينما سألها عن سبب وجودها في المنزل بهذا التوقيت، صرحت

له أن في المنزل كاميرات مراقبة، وأنها عندما رأته موجودًا أسرعت لأنها تشتاق لرؤيته

قال مالك لماهر: تركتها وذهبت أجمع ما أحتاجه من المنزل للسفر، وجدتها خلفي تسألني عن سبب مجيئي للمنزل، أجبتُ إجابة منطقية أني مسافر إلى روما مع أصدقائي وأحتاج أشيائي من المنزل، لفت انتباه مالك ردة فعل أمه عندما علمتْ أنه ذاهب إلى روما وقالت بتعجب:

- روما !! لماذا تذهب إلى روما تحديدًا؟

رد مالك بتلقائية:

- أنا مرشد سياحي، وبحكم عملي أسافر إلى بلاد كثيرة، فلماذا كلّ هذا الاندهاش من سفري لروما؟ ماذا يوجد هناك لتضطربي هكذا؟

ردت هي بسؤال آخر:

- بالطبع مع ماهر؟

حاول مالك إخماد ثورة أمه على مخالطة المصريين، فاتجه لباب المنزل وكان بالفعل قد أنهى تجميع متطلباته من المنزل، أسرعتْ نحوه وفي عينيها نظرة لم يعتدْ عليها مالك، نظرة من نظرات الأمهات، قال مالك لماهر:

- تخيّل، شعرتُ أنها تخاف عليّ، لم أشعر بهذا الإحساس من قبل منها، حين قالت أمه وهى تمسك بكتفه:

-أرجوك يا مالك لا تسافر، أرجوك ابق معي، لا تغضب مني أو من أبيك، سنتفرغ لك ونخصص لك وقتا طويلًا يوميًّا، ولكن لا تسافر إلى روما وتتركنا

التفت مالك وترك حقيبته من يده وتوجه لها ونظر في عينيها وسأل سؤالا واحدًا سأله كثيرًا ولم يجد أي إجابة شافية له:

- لماذا؟ لماذا لا أذهب إلى روما تحديدًا؟ لماذا لا أصاحب مصريين؟ لماذا لا أذهب لمصر؟ هل تستطيعين الرد الآن وبدون مماطلة أو زيغ بالعبارات التي ما عادت تستهويني؟

لم يستمر كظم الأم لغضبها كثيرًا وزأرت زئيرًا مخيفًا، وهي شخصية تكره الجدال، تعشق أن تأمر فيجاب أمرها دون نقاش:

- لقد أخبرتك من قبل أني لا أحب الجدال وأكره كلمة لماذا،

ومن دون إبداء أي ردة فعل من مالك اتجه لباب الفيلا حاملًا حقيبته قائلا لها:

- عندما تشعرين بأنه قد حان وقت الكلام فأنت تعلمين

جيدًا أين تجدينني

وبكل برود أكمل:

- سأنتظرك

فتح باب الفيلا وخرج تاركًا خلفه صوت طرقة قوية للباب، بعدها سمع صوت أمه تبكي:

- أرجوك عد يا مالك أرجوك لا تسافر

روى مالك ما حدث لماهر وصوته مختنق يكاد أن يبكي لولا كبرياؤه، تغاضيْتُ عن بقية حديثه عن أمه ومعاناته معها وهذا السر المحجوب عنه، وقفتُ عند اسم أمه، فتحت جهازي المحمول وبحثت عن منال رءوف، ظهر لي اسمها في ويكيبيديا، معنى هذا أنها شخصيه مهمة ولكنها مسيحية! كيف لأب وأم على ديانة المسيحية وابنهما على ديانة الإسلام؟ علمت أن الصراع بداخل مالك كبير، صراع قبل أن يكون دينيًا فهو وجودي ووجداني، علمت أن مالك محاصر بالأوجاع والتحديات التي تجعله فعلًا شخصًا وحيدًا ومنعزلًا عن عالم متنمق مغرور

وصلنا روما بعد حوالي أربع عشرة ساعة بين نوم وقراءة لروايتي المميزة الجريمة والعقاب، تعجبتُ من قدرة مالك وماهر العجيبة على النوم المستمر، يقطعان فترات النوم

بتناول قليل من الطعام ويستعيدان سباتهما مرة أخرى، لم يكن واضحًا علينا أبدًا أننا مسافرون فى مهمة صعبة ومخيفة ومجهولة، أعصابهما الثابتة وسباتهما الدائم جعلني أستمر في الشك بهما، وعند الوصول انشغل مالك مع صديقه رأفت الحسيني الذي استقبلنا في المطار، وتركني أنا وماهر لينهي أوراقنا ويستقبل حقائبنا

انتهت إجراءات المطار وخرجنا إلى الشارع، شعرتُ برائحة الإسكندرية تتخلل أنفي، شعرتُ أن هناك شيئًا مشتركًا بينهما ربما رائحة البحر المطلة في الهواء، أو حضارة أخذث من البلدين سنين، شعرتُ بالسكينة، دخلت ُغرفتي في الفندق ودخل معي مالك وماهر ليؤمّنا لي الغرفة ويطمئنا، وربما اطمأنا عليّ عندما ارتميت أمامهما على السرير، ولم يلبث دخولي في مرحلة النوم العميق إلّا ثوانٍ، علمتُ بعدها أنهما أغلقا الغرفة وخرجا ليتركاني وأحلامي لنتصارع، قبل أن يصارعنا واقعنا ويخبرنا بالمخبَّأ لنا

استيقظتُ صباحًا على هاتف الغرفة الذي أُنهكته كثرةُ الاتصال بي، أجبتُ بصوتٍ ناعس:

- ألو من معي؟

سكت الصوت المتصل لثوانٍ ولكني سمعت صوت تنهيدة على الجانب الآخر وتبعها صوت رقيق:

- ما ألطفَ أن يصبحك الله بصوت دافئ رقيق كصوتك يهوِّن حدة الأيام

علمتُ أنه مالك، وبالرغم من هذا الدفء الذي سرى بجسدي فجأة عند سماع صوته إلا أنني غيرتُ نبرة صوتي وحاولتُ إعطاء صوتي خشونة كاذبة:

- صباح الخير يا مالك

جاءني الصوت البعيد القريب الذي ينطقه اللسان ولكنه يأتي من أعمق مناطق الإحساس:

- صباح الخير آنسة رقية، لقد تأخرتِ فقلقنا عليكِ وحان موعد ذهابنا، هل ستتأخرين في تجهيز نفسك للذهاب؟ أمامنا يوم طويل

وعدته بسرعة التجهيز، وكدت أن أغلق السماعة حتّى سمعته يناديني من الجهة الاخرى:

- رقية، افتحي باب غرفتك الآن، ستجدين طاولة الإفطار الذي أعتقد أنه كافٍ لمن واصل نومه دون غداء أو عشاء في اليوم السابق، بالهناء والشفاء

تبسمت هي في الخفاء ولم تظهرها في العلن:

- أشكرك مالك على اهتمامك، سأحاول الإفطار وتجهيز

نفسي سريعًا

أغلقتُ الهاتف وتجهزت وتوجهت لصالة الاستقبال في الفندق، حيث كان ثلاثتهم خلف برفان كبير خشبي يفصل منطقة الاستقبال عن السلالم والمصعد، ولأن للقدر دائمًا أقوالٌ أخرى فمع اقترابي لهذا البرفان ومحاولة تخطّيه سمعتُ هذه الجملة:

- أهم الأشياء لدينا ألّا تخبر رقية بما حدث بالأمس حتّى توافق على الذهاب معنا

توقفتُ ثواني لإدراك هل ما أسمعه حقيقي أم هو من خيالي المريض، تكلم رأفت في هذه الثانية مشيرًا لمالك:

- كيف هذا يا مالك؟ لابد أن تعرف الحقيقة وهي من ستختار، فما أنتم مقبلون عليه ليس سهلًا ليُقبَل بكل سهولة، كيف لك أن تحجر على رأيها وأن تختار عنها؟

وفي هذه اللحظة قررتُ الظهور لوضعهم أمام حقيقتهم، وأكشف ستر وجوههم، تفاجؤوا بي أمامهم، فشخَصَت الأعين، وتلجلجت الكلمات، وأطلقت سهام الأعين قبل اللسان وباغتُّهم حتّى لا يفكروا في طريقة للدفاع عن أنفسهم:

وجهتُ حديثي لرأفت:

- سأشرح لك أستاذ رأفت لماذا يخفون عنّي الأمر، لأنهم بذلك سينفذون الخطة الموضوعة لي منذ أن كنت في برلين، وأنا خضعتُ لهم وصدقتهم، ولكن حدسي الأول لا يخيب وهم الآن يستكملون ما بدؤوه، هذا كلّ ما في الأمر

تكلم ماهر بقلق:

- رقية، لا تتسرعي كعادتك، انتظري لتعرفي ما حدث

وجهتُ وجهي الغاضب نحوه:

- كذبة جديدة، يا أسفي عليك يا أخي

استدرتُ وعدتُ إلى غرفتي فتوجهوا خلفي وصرخ ماهر:

- يا رقية اسمعيني

لم أعلم كيف تخطيتُ الأدوار الأربعة على السلم بكل هذه السرعة، وعندما كنت على باب غرفتي وجدتهم أمامي، ماهر ومالك ورأفت، الكل يظهر على وجهه الذعر والقلق والخوف، تكلم الكل في نفس واحد:

- اسمعينا قبل أن تحكمي

صرخت في وجوههم:

- كفى، انتهى كلّ شيء، استكملوا طريقكم فلن أثق بكم

ثانيًا

وأغلقتُ باب غرفتي وأسرعتُ أحدث موظف الاستقبال ليحجز لي مقعدًا على أول طائرة متجهة إلى القاهرة أو الإسكندرية، لم أجد موعدًا إلّا صباح الغد، فحجزتُ بالفعل وانتظرتُ للصباح وعاهدتُ نفسي على عدم الخروج من غرفتي إلّا للمطار، كانت ستائر الغرفة مغلقة فأعطيتُ نفسي المجال للاستمتاع بالنظر للبحر والتفكير في خطئي ولماذا حدث هذا معي، اقتربت من النافذة لفتح الستائر وفتحتها بالفعل، رأيت في الزجاج من يقف عند باب الغرفة، التفتُّ كي أتحقّق مما رأيت، وجدته أمامي مباشرة، وجهه في مواجهة وجهي، الغرفة أصبحت مظلمة، الستائر أغلقت، نور خفيف خافت يصدر من الأباجورة جانب السرير، نور متقطع ينير وينطفئ، سواد قاتم أمامي، رجل يتشح بالسواد من أخمص قدميه إلي رأسه، وجهه فراغ أسود متصل لا يُظهِر إلّا عينين سوادهما سارق لبياضهما، فم كبير فُتِح ليطلق رائحة السواد وكأنها رياح عفنة أطلقت بوجهي، ثبتُّ مكاني، لم أعلم هل يده هي من ثبتتني أم هذه الرياح الصادرة من فمه، صوت أجشّ مزعج صدر منه:

- من هنا سيبدأ الطريق

تجرأت أن أرد عليه:

- لا أريد ولن أفعل

وحينها فتحت النوافذ من خلفي، استدرتُ ليكون وجهي للبحر وهو يقول:

- حسنًا، لتنتهي نهايته اقتلي نفسك

نظرتُ للأسفل فوجدتُّ جثتي ملقاة تسيل من فمي الدماء، وكأنه يجعلني أرى مصيري لأختار، أفهم جيدًا إلى مَن يشير بكلماته، إنه يشير إلى أخي الذي قتل نفسه، وهنا فهمت لماذا قتل أخي نفسه، تراجعت للخلف وصرخت:

- لا لا سأفعل ما تريد، لا تقتلني، سأذهب إلى ما تريد لينتهي الأمر

لم أشعر بنفسي وماذا حدث، وكيف تركني، ولكني شعرت بيدَيْ ماهر تحملني من أرضية الغرفة ويضعني على السرير، وعندها غبت كعادتي في الهروب، وكلما أستيقظ وأحاول أن أفتح عيني أجد ماهر ينام على الكرسي بجانبي وأيضا مالك ولكنه مستيقظ، أغمض عيني بسرعة وأستسلم ثانيا

وعندما أستيقظ أجد ماهر هو من استيقظ وترك مالك لينام، وهكذا حتّى الصباح، ربما لا أجد القوة لمواجهتهما بما حدث، ولا مواجهة نفسي بما حدث معي، ولكني في النهاية استيقظت في اللحظة التي استسلم فيها مالك وماهر للنوم،

وقتها فتحت عيني، تكلم مالك حينها وهو مغمض العين:

- أخيرًا فتحت عينك واستسلمتِ للواقع

- كيف علمتَ أني مستيقظة؟

ردّ مالك عليّ وهو يقترب مني خافضًا صوته لعدم إيقاظ ماهر:

- كنت أعلم أنها حيلتك للهروب وإعطاء نفسك فرصة للتفكير، لقد فعلتِها بالسابق عندما كنتِ بالمشفى

نظرت له بتعجب:

- كيف عرفت هذا؟

نظر مالك في عينيها وكأنه يريد طمأنتها:

- قلب المحبِّ للمحبوب دليلُ

تنهدتُ ونظرتُ للجهة الأخرى حيث النافذة فدمعت عيناي عندما تذكرت ما حدث لي، فنظرت لمالك:

- لقد أرهقني التفكير والشك وما عدت أتحمل غربتي التي أعانيها، وما عدت أثق حتّى بأخي الذي اخترته بنفسي، ونظرت لماهر، ويشقّ عليّ اتهامه بالخيانة، ولكن ما أعانيه من حيرة وخوف جعلني لا أثق حتّى بنفسي أحيانًا

حاول مالك طمأنتِي:

- رقية، لا تخافي وثقي بنا، لم يترك ماهر عائلته هباءً، ولا حتّى أنا، حياتي بعد ظهور هذا الكتاب تغيرت تغيرا كبيرًا، أتمنى رجوعي ثانيًا لهدوء حياتي، كدثُ أنتفض من لمسي لأي كتاب جديد، ولكن ما أنا متأكد منه أني أحببتُك بصدق ولا أريد إيذاءك

ضممتُ ركبتي إلى صدري وأسندت عليها رأسي ونظرت له، وقتها أطلقت عيناي دمعةً حبيسةً ألهبت نيران الحب بقلبه:

- أرجوكِ يا رقية ثقي بي، فأنا غريق بدونك، أريد السند لأستطيع المواجهة

كنت أريد أن أصدق :

- أيمكنني أن أثق بك يا مالك؟

تبسم وجه مالك أخيرًا وكأنه رأى النور الذي أضاء له ظلمة حياته أخيرًا:

- أحبك يا رقية وهذا يكفي

ابتسمت له في النهاية:

- أريد أن أصدق ليرتاح قلبي

همّ مالك أن يقترب مني وهنا فتح ماهر عينيه:

- إلى هنا وكفى، سأقتلك إن اقتربتَ منها

ضحك الجميع، وكُسِرت موجة الخوف والقلق التي اجتاحتنا جميعًا:

- حمدا لله على سلامتك يا رقية ومبارك عليكِ مالك

تناولنا الطعام، وبدأت أتحسن وأتأسف على ما بدر مني من تخوين لهما، وجاء وقت الإفصاح، فألقيت عليهما ما حدث معي جملة واحدة، ذهلت أعينهما، وتعجّبا من صلابتي في مواجهته، وبعد معرفتهما بما حدث معي نظر مالك لماهر، فقال مالك:

- لهذا لم نكن نريد أن نخبرك بما حدث معنا ليلة أمس، حتّى لا تدخلي في هذه الحالة وتخافي، ولأننا علمنا أننا المقصودون بكل ما يحدث وكل ما حدث

تساءلث بتعجب:

- ماذا تعني يا مالك؟ وماذا حدث؟

بدأ مالك بسرد ما حدث:

- بعد وصولنا إلى هنا، حاولنا معرفة أي تفاصيل عن المكان الذي سنتوجّه إليه، علمنا من رأفت أنه مكان ليس لأحد

إمكانية الوصول إليه، إنه قصر بداخل غابة، كلّ من حاول دخوله يختفي، دق الخوف أبواب قلبي عليكِ، فانتظرتُ ماهر حتى ينام، وذهبتُ وحدي أبحث عنه وأسأل الناس عليه، الكل يمتنعون عن الإجابة، ومنهم من سرد لي أساطير، أنه قصر الشر، حوله غابة مليئة بالوحوش الحامية له، ومنهم من يقول إن به مهبط الآلهة، ولذلك فهو محمي بقوة الطبيعة الشريرة، ومنهم من يقول إنه مسكون حتّى الآن، تخرج منه أصوات موسيقى صاخبة، لم أقتنع بهذه التخاريف أبدًا حتّى وصلت لمحل قديم يبيع الأدوات الموسيقية القديمة، وسألته عن السوناري، وبمجرد أن أخرجت الكتاب للرجل شخصت عيناه ونظر لزوجته التي تجاوره وقد ارتعب وجهها، وعاد ليواجهني بالحقيقة وقال:

- أنت المختار

قطّبتُ حاجبيّ وأنا أحاول إدراك المعنى، وفجأة اختنق الرجل، فصرخت زوجته وهي تنظر للكتاب:

- ابتعد من هنا، وأخرج لعنتك معك

أخفيته سريعا بحقيبتي، وقبيل خروجي مباشرة زفر الرجل أنفاسه الأخيرة، وصرخت زوجته صرخة جلبت جميع المارة بالشارع والمحالّ المجاورة، هربتُ دون النظر خلفي وأنا أحمل لعنتي بحقيبتي

صرختُ واضعةً يدي على فمي بعد أن نطقت:

- هل توفّيَ حقًا؟

- نعم تُوفّيَ في الحال يا رقية، وبعدها عدت خائفًا مرتجفًا، فاستقبلني ماهر أخي وهدّأ من روعي، حتّى استطعت أن أستجمع نفسي، وبعدها توصلنا إلى أننا المختارون حقا، وأن هناك مهمة تنتظرنا لا نعرف ماهيتها أو هدفها ولكنها تخصنا نحن دون غيرنا

***

النغمة التاسعة

استغاثة

نداءات متتالية

حنين قاتل و قلوب مشتاقة

صوت آتٍ من بعيد للتذكرة

تتوالي النداءات فتفكر

أعاد للماضي مكان يذكر

أم أنه تائه غريب وسط الزحام

تتوقف أم تستكمل ما بدأته

أتعود أم تعاود السير نحوه

وكأن ما كان في الماضي لن يكون في المستقبل

لحظة تأمل وبعدها ستتخذ القرار

(١٩)

تــومـــــاس

١٩٦٠

تـوالت على حياتي منح النجاح والشهرة التي أنقذتني من تيهي وجعلتني أكتشف مكنون نفسي التي أرهقتها في التفكير والحزن، والآن بدأت أزرع بذورًا جديدة في سماء مجدي هنا

ولكني ما جنيت إلّا الحقيقة الوحيدة التي توصلتُ لها في حياتي، وهي أن كاميليا ليست أختي فقط، إنها حب انتهز نقاط ضعفي وتمكن منها، اختبأ خلف أحاسيس الأخوة الصادرة بصدق مني، حبٌّ عانى كثيرًا لأقتنع به، رفضته مرارًا، وهربتُ منه تكرارا بعلاقات لفتيات لم أكن أشعر منهن بأيّ حبّ سوى حب الشهرة، وفي كلّ مرة أحاول أن أتأقلم على العلاقة وأجد من تستطيع أن تفهمني وتفهم حياتي، ولكني لم أجد، أردت أن أبني أسرة، أن أنجب طفلًا يعرف من هو، ولكن سيبقى سلسالا بدون جذور أو بجذور مسروقة، مقتبسة، مشكوك بها، أصل لمرحلة كاميليا، مرحلة اللاعودة، أو مرحلة الهروب التي أقلع فيها عن العلاقة وأهرب، ربما أهرب من كاميليا التي تلتبس وجوههن وصفاتهن، حتّى

أصل لاختزال أسمائهن في كاميليا فقط

حتى حدث ما حدث في ليلة كانت كالمسك تعطر حياتي بنسيم الماضي، كنت نائمًا في حضن سيلينا أرتشف من حنانها وصفاء قلبها، طالبًا للأمان، ولكني أعلم أنه حنان جاف خالٍ من أي مشاعر، كان العمال يلومونني دائمًا على هذه الرسومات المجسمة لسيلينا وكاميليا ولأختي صفية وحتى لهم، حتّى وصل بهم الحال أنهم خافوا مني واعتزلوني، ففي الليلة التي تركت فيها وحيدًا، شعرتُ بيد سيلينا تحنو على شعري وأنا نائم، فزعتُ من نومي لأجد سيلينا أمامي تنظر لي بعينها الحانية، أطمأن قلبي ونمتُ نومة هانئة لأستيقظ على صوت شجار بالمنزل لم أعتده، أصوات ناعمة أعرفها جيدًا، ارتديت المعطف الخاص بي وتوجهت إلى الأسفل لأرى ماذا يحدث، لأجد كالعادة كاميليا تتشاجر مع سيلينا على نغمة البيانو التي لا تريد كاميليا عزفها وتعشقها سيلينا في الصباح، أختي صفية تخرج من المطبخ حاملة وجبة الإفطار الخاصة بي، جعلني المشهد في ذهول، هل رسوماتي تحركت ثانية مثل الماضي؟ أم ما أنا به مجرد خيال أتخيله؟ نظرتا لي وابتسمتا، تحركت كاميليا نحوي بطريقتها المرحة تطلب مني كعادتها الفصل بينها وبين سيلينا في اختيار لحنها أو لحن سيلينا، وبدون إرادة مني أو تحكم بتصرفي حضنتها حضنًا يشبع وحشتها بداخلي، وهمستُ في أذنها من

جديد:

- اعزفي لحن سيلينا أولًا يا جميلتي وبعدها سأستمع لك وحدي

اشتقث للمسة صفية الحانية التي قد التهمتها خيوط الظلام وأنا صغير فذهبت لها وقبلت رأسها، وهي تقول:

- أسرع يا أخي حتّى لا يبرد طعامك فأنا أعلم أنك تحب الطعام ساخنا

يعتبر هذا أجمل صباح عايشته منذ أن دلفث إلي روما، وبالنهاية انتهت وحشتي التي كنت أعيش بها، كنت أخاف أن أخرج وأعود فلا أجدهن، ولذلك لم أخرج لمدة خمسة أيام، أرقص، ألعب أغني أنام وحتى أطهو الطعام معهن، أردتُ أن أقضي إجازة سعيدة معهن قبل معاودة عملي

عادت السيدة إلينا ذات يوم بعد تركها لي هي وزوجها فليبوس لزعمها قلقها البالغ عليّ بعد معرفتها بعدم خروجي، ومنذ دخولها إلى المنزل وقد توقف كلّ شيء، السعادة التي كنت أعيش بها توقفت، عادت الصور بدون روح، استمعتُ إليها وذهني شارد، لماذا توقفوا؟ أوضع القدرُ لي سعادة مشروطة وهي أن أبقى وحيدًا؟ حتّى وإن كان هذا هو الشرط لسعادتي فلأبق وحيدًا، وأقتنص من الحياة لحظات

حتى هذا اليوم الذي تغيرتْ فيه كلّ حياتي، نهجتُ نهجًا جديدًا، وفتحتُ دروبًا وعرة لم أدرك كيف ومتى نهجتها

مرّ عامٌ بالتمام والكمال على حياتي السعيدة مع عائلتي التي أحبها، أعمل صباحًا وألهو معهم مساءً وأنام بحضن سيلينا، وذات صباح غريب ممطرٍ مطرًا شديدًا خرجتُ لعملي وعدت مبكرًا لأحتسي شرابًا دافئًا وأتدثّر بالحب من عيونهم جميعهم

دخلت باب القصر لأتفاجأ بما حدث لهم، كلٌّ منهم في مكانه كما تركته صباحًا، صور فارغة من أي روح، أنوار المنزل مظلمة، شموع تملأ المنزل تضيئه بضوء خافت، أصوات همهمات بكل مكان، صوت من بعيد ينادي

- "وحيييييييييد"

صوت أنثوي مرعب، وعزفت السوناري في الخلفية لحن الرعب من جديد، وفجأة انطفأت أنوار الشموع برياح تحمل رائحة أتذكرها جيدًا، رائحة الموت أو الخوف، رائحة ذكرتني بيوم الريح التي عصفت بقرية وحيد من قبل، وبعد أن أغلقتُ عيني من شدتها فتحت عيني لأجد ضوءًا مسلطًا على درجات السلم، ارتفعت بعيني لأجد خيال امرأة تهبط

بطيئا، متشحة بالسواد شعرها أسود طويل أعتقد أني أراه أمامها يغطي درجات السلم، تتجه نحوي فينتفض قلبي، تقترب أكثر فيؤلمني جرحي القديم في رقبتي، تقترب أكثر فأكثر فأتأكد أني ما هربت من شيء إلّا ولحقتني لعنته

تلك هي جنية البحر التي نجحتُ في الهروب منها، لاحقتني هنا حيث لا هروب ولا ملجأ، فأين أذهب وكل الطرق ستؤدي إليها في النهاية؟ وبلمح البصر وجدتها أمامي، نظرت في عينها ذات السواد القاتم، وجهها أبيض يميل إلى الزرقة كأنّ ما يسري بداخلها ما هو إلّا دم أزرق جعل لونها يشبه لون الموت، ارتجفتُ، اهتزّ جسدي وتزلزل كياني، ثبّتتني الصدمة في مكان فلا أنا بهارب ولا حتّى مقاوم، أنا فقط مصدوم، حتّى عندما لامستْ يدها ذات الأصابع الرفيعة والأظافر الطويلة المطليّة بالأسود وجنتي ما كنت أمتلك القوة لإبعادها عني، وكأنها سلبتْ كلّ شيء وأبقت لي إدراكي الذي لا أحتاجه ثانية بعد هذه اللحظة، وقالت بفحيح صوتها الثعباني:

- " لا تخف يا وحيد إني أحبك ولن أوذيك "

نظرتُ لها وأنا أرتعش، سحبتني من يدي لأجلس على الأريكة التي تجلس عليها صورة كاميليا، ربما أرادت أن تطمئنني بجلوسي بجانب حبيبتي، وجلست هي بالأريكة

المواجهة لي، التي كانت في الأساس تبتعد عن أريكتي مقدار مساحة منضدة ومساحة فارغة أخرى كبيرة

ولكن بمجرد أن جلست عليها حتّى أصبحت مقابلي تمامًا، أشعر الآن بحرارتي المرتفعة ورجفة أعصابي الداخلية، لا ليست هذه حرارة ولكنها برودة، ما عدت أستطيع التمييز، كلّ ما أفكر به كيف سينتهي هذا الكابوس، ومتى أعود ثانية لحياتي وما اعتدت عليه حتّى ولو كان وهمًا

تكلمتْ هي وقالت وهي ناظرة لكاميليا:

- أعلم أنك تحبها، وكذلك هم، وأودّ أن أعلمك أنا مَن جعلتهم يتحركون، وأنا من سلبتهم حاليًّا حركتهم، وأنا من أحرك لك رسوماتك منذ صغرك "

علمتُ أني لستُ مريضًا، أنا فقط ما كنت أرى من يداعبني من العالم الآخر

لا أعلم متى فُكّت قيود لساني لأردّ عليها:

- وماذا تريدين مني؟

قالت وبصوت حانٍ هامس لا أصفه إلّا وكأنه فحيح الثعابين:

- أنا أريدك، أحبك كحبك لكاميليا، أعشقك من صغرك، كنت

أحميك من نفسي، عانيت كثيرًا كمعاناتك في بعد كاميليا، لأني أعلم أنه إذا تسلط بنو جنسي علي بني جنسكم يكون وبالًا عليكم، ولكن الأمر الآن اختلف، أنا اضطررت أن أحميك منهم، أن أكون حليفتك على بني جنسي

رددتُ عليها بصوت مهتز:

- مِمَّن تحمينني؟ ومن أنتِ؟

تكلمتْ بصوت أعلى من نبرتها السابقة وكأنها أحبّتْ أن تتفاخر بما ستقوله:

- " أنا ناردين ابنة الملك نائل أكبر ملوك الجان في ممالك البحار، متمردة، مخالفة لهم، عاصية لأوامر مملكتي، أهيم بالسنين في الجبال، أصاحب هذا وأتسلّط على هذا، عاونتُ أبناء جنسكم ممن يحفظون التعاويذ الخاصة باقتحام عالمنا، ويكشفون مستور حياتنا، عبثتُ بحياتي كما شئت، جرّبتُ كلّ شيء مخالف منعني منه أبي، ساعدتُ أبناء جنسكم على أعمال الشر، وحتى وصل بي الحال فساعدت المنقلبين على أبي بالهجوم عليه، هربتُ من أبي وأبناء عمومتي، فجعلوني مطرودة من مملكتهم، حتّى جاء يوم كنت أساعد مشعوذًا ما، استعانت به سيدة مسكينة تدّعي أن ابنها مخاوي يحب العزلة ولا يشتهي جلسات الأصدقاء، يرسم كثيرًا ويتحدث إلى رسوماته، وقتها رأيتك أول مرة، أحببتك، وكأنك ملكتَ

روحي، فكرتُ كثيرًا بأن أتلبّسك وأجد لنفسي مأوى دائمًا، ولكني لم أرضَ بذلك، ورفضتُ ولم أنصع لإيذائك كما أمرني الشيخ، تصنعتُ العاصفة حتّى أخيف الجميع، ولكنها ازدات بعد أيام وحصدت الآلاف، راقبتُك من بعيد وحاولتُ إلهاءك برسوماتك المتحركة، اكتُشِف أمري فحوربتُ وسجنتُ هناك في مملكتي بعد إنقاذك من خيوط الظلام التي هاجمتك وأختك

اقتضب جبيني وشعرتُ أني أشاهد فيلما أسطوريًا عن ملحمة حبّ مختلفة، حبّ من طرف واحد اخترق العوالم وحارب الأهوال، أراد الحماية حتّى ولو كانت في البعاد.

أستمع لباقي حديثها:

- قاومتُ وحاولتُ خروجي من حبسي حتّى علمتُ من صديقتي التي تعلم عني كلّ شيء أنهم أخافوا الصياد ووعدوه برجوع ابنه الغريق لهم، ومن هنا فقط عدتُ خلسة إلى مملكة البحار لأنقذك مما كانوا سيفعلونه بك، أنا خلفك دائمًا يا وحيد أنظر إليك من بعيد وأحاول حمايتك

وحينها سارت الدماء في رأسي وعنّفْتُها:

- أنتِ لم تحميني، أنتِ حميتِ غرورك وكبرياءك، هل علمتِ الغيب حتّى تعلمي أن أبي وأمي سيؤذونني؟ لماذا قتلتِ كلّ

رجال القرية؟ أتعلمين ماذا فعلتِ بكل هذه الأسر؟

ربما تعجبث من ردّة فعلي وهجومي عليها وعدم خوفي منها:

- لا بدّ أن تعلم يا وحيد أني لستُ إلّا سببًا، فربُّهم أراد موتهم في هذه اللحظة، إنها الأقدار يا حبيبي، ولكن لك أن تعلم أن والدتك ما كانت ستكفّ عن الاستعانة بنا، حتّى وإن لم أوافق أنا على ما طلبوه مني، كان سيوافق عليه غيري، ولن يتعذب في هذا غيرك، والدتك آمنة هي من فتحت عليك هذا الباب، لو كنتَ ابنها ما كانت فتحت عليك هذه الأبواب ولكني أنا من أغلقته

توقف بي الزمن فجأة، ليس بسبب كلّ ما يحدث حولي واكتشاف سر حياتي العجيبة، ولكن بسبب كلمة واحدة أعادتني للحيرة من جديد، لو كنت ابنها، فإذا لم أكن ابنها فمن أنا إذًا؟

سألتها:

- مَن أنا إن لم أكن ابنها؟

فجاوبتني بتردد:

- سرّ لم يعرَف، حُفِظ بداخل صندوق تائه بطلاسم لن تفك

إلّا بموت حارسها وإذن كاتبها.

تهثُ من جديد، احتارت عيناي فيما حولي، لا يهمني كلّ ما يحدث، ولكن سؤال عمري الذي إذا وجدت جوابه ربما سأرتاح، عدت من حقيقتي المؤلمة إلى واقعي الأليم، وسألتها:

- وهل الآن أغلق؟ هل تعتقدين أني أصبحت محميًّا حماية كاملة بعد كلّ ما حدث لي بعدها؟

قالت ناردين:

- لا، أنت في خطر دائم، وما فعلتَه بعد ذلك جعلك في خطر أكبر

- أنا؟ ماذا فعلتُ لهم؟

- أنت سرقتَ السوناري وعزفتَها، وفتحتَ لهم باب الانتقام

شخصت عيناي وتساءلت:

- باب الانتقام !! وما هو باب الانتقام ؟

قالت:

- باب الانتقام مني فيك، كانوا ينتقمون مني ومن رفضي لهم فيك وفيمن تحبهم

فتعجبت:

- ولماذا لم ينتقموا منكِ مباشرة؟

فأردفت سريعا دون أن تفكر:

- لأني أحبك وأرفض أن أتزوج منهم لأجلك، أنا لا أريدك لي كرجل وامرأة، أنا أريدك بقربي فقط، أنا أحبك حبًا طاهرًا بعيدًا عن أي شهوات حتّى وإن اشتهيتك لن أقترب منك إلّا بعد اقترابك أنت مني

سكتُّ سكوتًا طويلًا، أُرهِق قلبي بما سمع وعرف وأدرك، بجواب لا بد أن أجاوبه أو حقيقة فُرِضَت عليّ، تعبتُ واحتجت لكاميليا بجانبي أرتمي بحضنها وأبكي، جاوبتها في النهاية جوابًا أريد أن أعرف به مصيري:

- وماذا إن رفضت؟

تسعّرت عيونها وسادت غلظة في ملامحها و صوتها:

- سأذهب وأتركك وأتركها لمواجهتهم بمفردكم وأحاول أن أهرب منهم وأن ألقي بنفسي في أي جسد ربما أموت به أو أتعذب

وبقوى خائرة سألتها:

- وإن وافقت ماذا سيحدث؟

قالت:

- قبل أن أحميك سأحميها، وقبل أن أنقذك سأنقذها، وسأكون لك مثل ما تريد، حبيبة، صديقة، عشيقة، كما تريد أنت سأكون

- لماذا دائمًا تذكرينها؟ ما دخل كاميليا بما أنا فيه؟

سكتتْ قليلًا وجاوبت بأسى:

- كاميليا بخطر، لقد سُلطوا على زوجها، فآذاها أذى بالغًا، وسرق منها كلّ ما تملك، وأيضا خطف منها ابنها، وهذا بمعاونة من يريدون إيذاءك، وأنا هنا لأنقل لك استغاثتها

صمت كلّ شيء حولي وسمعتها، لقد اشتقتُ لها اشتياق القلب لنبضه، اشتياق الغريق للنجاة، اشتياق الظمآن لنقطة مياه تبلل جفاف شفاهه

- " توماس أغثني، توماس أين أنت مني؟ لماذا تركتني يا أخي وذهبت؟ يا يسوع أعده إليّ هو ملاذي الآن

أطلقت عيني سراح دمعة وحيدة مثلها، عنفتُ نفسي لتركها، طلبتْ مني ناردين أن أغلق عيني فأغلقتها، فرأيت حديقة فيلا الخواجة أنطوان والتي أعرف كلّ شبر فيها، هذا المكان خلف مبني الفيلا الذي بنيته أنا وهي وتشاركنا

فيه سعادة لم توصف وتعاون لم يثمر إلّا عن سجن سُجنَتْ هي به، اقتربتُ الصورة، رأيتُ شيئًا متحركًا بداخل البيت، أهو جَرْو جديد؟ اقتربت أكثر لأجد فتاة سوداء رفيعة جدًا، وعندما تحققتُ من ملامحها أعادتني ناردين إلى الواقع وهي تقول:

- هي بخطر وتحتاجك

صرختُ فيها، انتفضتُ من مكاني، كنت كالمجنون، أذهب إلى الباب، أعود أبكي، أصرخ

- كيف حدث ذلك؟ ومن فعل هذا؟ولماذا لم تحميها منهم؟ أو كنتِ تنبهينني قبل هذا اليوم؟

- لم أتمكن قبل هذا اليوم، أنا كنت مسجونة، وهربتُ اليوم عندما علمتُ بما سيفعلونه بها وبك؟ هم يعدّون لك العدة وهي تتعذب كلّ يوم، كان لا بد لي من ميثاق منك أني سأكون بقربك ولن أحارَب منك، حتّى أستطيع أن أحميك منهم أولا وأحميها ثانيًا، ستأتيك رسالة في الصباح لتذهب إليها، هذه من زوجها، هذا مخطط منهم لتسافر إليها مسرعًا وفي طريق عودتك سينقضّون عليك ويغرقونك، وقتها سيتخلصون منك، فأنت مَن كشفتَ سرّهم وسرّ السوناري وأغلقتَ أبوابها المثمرة لهم

توجهتُ لها وأنا أبكي وجلستُ أسفل قدميها أترجّاها أن تنقذ كاميليا ولها مني جميع المواثيق، واستقمتُ وامسكت يديها ذات الملمس الغريب الهلامي:

- أنا أمامك افعلي بي ما تريدين، حتّى وإن طلبتِ المتعة فجسدي ملكك ولكن كاميليا يكفيها كلّ هذا بسببي، أرجوكِ أنقذيها

غضبت ناردين واحمرّ وجهها:

- يا وحيد أنا مسلمة واعتمرتُ في الكعبة ولي مع الله ما لك، لا أفعل الحرام أبدًا، أنا أحببتك وهذا يكفي، نحن نفعل ما أعطاه الله لنا من مزايا تميزنا عنكم، ولله الأمر من قبل ومن بعد

وأكملتْ

- سافرْ غدًا مباشرة ودع الباقي لله ثم لي بعد ذلك

رددتُ سريعا عليها:

- "بالتأكيد سأحجز على أول باخرة غدًا

صرختْ بوجهي:

- أنت بهذا ستنفذ خطتهم، أنت ستسافر في الجو، هم يعدّون الآن العدة لك وجهزوا جميع قوى الشر في البحر لكي

يغرقوا سفينتك، أنا سأشغلهم وسأوهمهم أنك ستسافر في البحر، وقتها ستكون أنت هناك قد أنقذت كاميليا منهم "

وافقتها على كلّ ما قالت واستجبتُ لاستغاثة كاميليا التي ما زالت تدوى في أذني وانتظرتُ وقت اللقاء

***

(٢٠)

الغـــــابـــة

كان صباحًا مميزًا عندما استيقظتُ ووجدت مالك يقف بجانب الشرفة ينظر إلى البحر مهندمًا مجهّزًا لي فطورًا يليق بصباح المحبين، فتحت عيني ونطقت بصوتي الناعس:

- " صباح الخير "

انتبه لي وعيناه باسمتان و بنبرة صوته الجذابة أسرني:

- صباحك ساحر كعيونك

ابتسمت ابتسامة خجل فأكمل هو حديثه:

- أتمنى أن تكوني قد تحسنتِ اليوم، فقط كنتِ تهذين طوال الليل باسم جابر

بعد أن ترحمتُ على أخي، ذكرتُ لمالك أنه كان معي لأول مرة يضحك وقال لي:

- اذهبي فما بعد ظلمة الليل إلّا الصباح، ستطول ولكن لن تدوم

اقترب مالك وهو مُرتَدٍ سترته الزرقاء والتي تضفي مع تموج عينيه الزرقاوين أمواجًا من الأمان والحب فجأة

اجتاحت كياني، ولولا الضوابط الدينية لكنت اختبأت بداخل حضنه طالبة الأمان والسكينة، ولكنه ألقى كلماته عليّ فأوقعني بشباكه، لا بل وقعتُ بها بإرادتي، فإني أحتاج سندًا لروحي بعد أن رأيت مصيرها في الوحدة:

- أحبك يا رقية

وفجأة اندفعت دماء ساخنة إلي كلّ أجزاء جسدي ونظرتُ في عينيه وهو يكمل حديثه وقد أظهر لي مالك مشاعره مصحوبة بخاتم زواج راقٍ وقال:

- لن أذهب إلى أي مكان حتّى أعلم ردّك على طلبي يارقية، هل تقبلين بهذا المجنون زوجًا لكِ؟

نظرتُ للخاتم باندهاش مصحوب بفرحة، ودقات قلبي تتزايد وأومأت برأسي بالإيجاب، لم أر من قبل ابتسامة مالك ولكنها الآن جليّة على وجهه، فكاد أن يلبسني الخاتم ولكني أوقفته:

- مالك اعذرني، أتمنى كثيرًا أن ألبسه الآن ولا يخرج من يدي أبدًا، ولكن خلفي أهل لا يستحقون أن أكسر فرحتهم، وأخيب ظنهم بي، اترك هذه الأمور حتّى نعود وتأتي لتطلبني من أبي

- معك كلّ الحق يا حبيبتي، ولكن ما أريده أن أذهب إلى

هذا القصر وخاتمي في يدك وبعدها اخلعيه حتّى يوم مقابلة أبيك

تعجبتُ منه وقلت له:

- لماذا يا مالك؟!

قال رافضًا تعكير صفو هذه اللحظة التي أنتظرها طويلاً:

- سببٌ خاص لا أريد أن أفصح لكِ به

نظرتُ له بغضب:

- ألم نتعاهد على الصدق وعدم إخفاء الأسرار قبل ذلك؟

قالها مبتسمًا:

- لا لم نتعاهد، هذا أول عهدي بهذا العهد

فباغتته :

- فلنتعاهد إذًا

- أنتِ ماكرة يارقية، من المتضح أنكِ بدأتِ تمارسين عليّ دور المرأة المصرية، ولكني سأخبرك ولا أريد جدالًا بعد ذلك

دقّقتُ نظري له وهو يقول:

- أريد أن أحقق أمنيتي قبل أن أدخل القصر، فمن يعلم

ماذا سيحدث لي بالداخل، فإذا لم أخرج منه أكون قد حققت أمنيتي بالفوز بكِ

اندفعث مقدمة يدي إليه أن يضع هو الخاتم بيدي، وبعد أن وضعه ولمعث عيوننا ببريق السعادة، إلّا أن القدر وضع نهاية هذه السعادة مبكرًا عندما اتصل ماهر يخبرنا بأننا تأخرنا ولا بد من التحرك لكي لا يباغتنا النهار ويذهب سريعا، فالمكان لا يمكن الوصول له بالليل

- " لقد حانت اللحظة "

فتبدلث الملامح إلى وجوم مفاجئ ألبسنا ثوب الصمت وحرّك أجسادنا الخالية من أرواح إلي السرعة في اتخاذ قرار الرحيل إلى المعلوم مجهول الهوية

تجهزنا وسار بنا رأفت في طريق أبيات، وهو طريق غريب تفترشه الأحجار العتيقة فرنسية الطراز، تحُدّه الأشجار على جانبيه، وبين هذه الأشجار قبور لمشاهير روما، ومن هنا بدأت دقات قلبي تتغير، نغمة صوتي تتلجلج، رعشة يدي التي يمسك بها مالك تزداد، وكأنهم جميعًا يعزفون سيمفونية خوف، خوف غريب المذاق، خوف من المجهول والذي سيصبح في وقت قريب معلومًا، خوف من الخطوة وهل لنا اختيار فيها، مُسَيّرين لها مجبرين على اجتيازها، لا بد أن نتحلى بالشجاعة التي تستتر الآن خلف ابتسامة خوف

مطمئنة من مالك، ونظرة أمان هاربة من ماهر وحديث ما زادنا إلّا رعبًا من رأفت:

- لابد أن أنبهكم لما حدث من قبل حتّى تعلموا ما أنتم مقبلون عليه

اندفعتُ في الردّ عليه:

- لا، اتركنا يا رأفت، فقلوبنا ترتجف ولن يزيدنا حديثك إلّا رهبة ستجعلنا عاجزين عن التفكير أو اتخاذ القرار السليم

ضغط مالك على يدي التي لم يتركها تقريبًا منذ أن وافقته على ارتباطنا:

- بالعكس تماما يا رقية، ربما ما سيقوله لنا يفتح آفاق تفكير جديدة لم نفكر بها من قبل، وربما ستلهمنا القرار السريع، استمر يا رأفت، ولا تخافي يارقية، نحن بجانبك

وبوَجَلٍ تحدث رأفت:

- تشجّع مجموعة من الشباب منذ وقت طويل وأرادوا أن يحلوا لغز هذا القصر، وأعدوا العدة واتجهوا له، وبعد المضي في الغابة أكثر من نصف ساعة، وجدوا بئرًا، هذا البئر ظنوا أن به ماءً، ولكنه كان مليئًا بالدماء، قالوا في المذكرات التي وجِدَتْ في الغابة بعد ذلك إنها دماء القرابين لساكني

هذا القصر من المخلوقات الغريبة، أو للآلهة التي تتنزل كلّ شتاء في القصر تتناقش في أمور رعاياها وتصعد ثانية، ولكنهم وجدوا مع الدماء عظامًا بشرية، ومع هذا المشهد فقد أسرعوا باحثين عن مخرج لهم من تلك الغابة، ولكنها أحكمت عليهم وتاهوا بها وتشتتوا، وجدَتْ أشياؤهم متناثرة في الغابة بعد ذلك، عندما بحثت الشرطة عنهم ليجدوا أن لا شيء مما كتب في هذه المذكرات موجودًا في الطبيعة، وكلها خيالات الكاتبة، ولكن كان هناك مشكلة وحيدة، أنهم عندما وصلوا للقصر لم يفتح، حاولوا هدمه من قبل ولكن أبى المنزل أن يهدم وظل شامخًا لا يفتح حتّى البوابة لأي شخص كان، وكلما حاولوا فتحه هاجمتهم قوافل من الغربان السوداء أصابت الكثير بأمراض لا شفاء منها

خيّم الصمت علينا، ولتصحيح المعنى خيم الرعب علينا، وما كانت إلّا خمس عشرة دقيقة أخرى بدأ رأفت بالتباطؤ حتّى ظهرت علامة الخطر على الطريق، وبعدها توقف

ونظر لمالك وماهر وقال:

- من هنا سيبدأ الطريق، الله معنا

وهمّ الجميع أن يخرج من السيارة، وبعد نزولنا جميعًا وجدنا أن رأفت لا يستطيع فتح الباب بجانبه، حاول مالك فتحه من الخارج ولكن أيضًا لا يفتح، فقال مالك في

لحظتها:

- أنتَ لستَ معنا يا رأفت، لن تستطيع الدخول معنا، نحن فقط من سندخل إلى الغابة

تركنا رأفت وحمل كلٌّ منا حقيبته على ظهره ودخلنا الغابة مستمعين إلى صوت محرك سيارة رأفت التي تتجه إلى مخرج هذه الغابة

نفّذنا ما نبّهنا إليه رأفت مما سمع من قبل أن الاشجار على ترتيب غير متوازٍ، ولذلك لا بد أن نتمسك جيدا بأيدينا، كان مالك في الأمام يده بيدي وماهر خلفي ممسكًا بيدي الأخرى، أعلم حالة ماهر جيدًا، فهذا هو سجن خوفه الذي يسجن كلماته به ويبقيها مقيدة لإشعار الأمان، فالصمت هو ملاذه عند الخوف والحزن

استمرّ بنا هذا الحال حوالي نصف ساعة، نتوقف أحيانا لنلهث أو نشرب، ثم نستكمل، حتّى وصلنا للبئر فعلا، ذهلنا عندما علمنا أنه حقيقي، ابتعدنا عنه وتجاوزناه، وكانت فكرة مالك، أيقنتُ حينها أن حديثه صائب، ربما تفصيلة صغيرة تبعدنا عن الخطر أميالًا

لماذا قلبي ينبض هكذا؟ عندما تخطيتُ البئر بخمس دقائق تسارعت نبضات قلبي كأنها في سباق، رجفت يدي، فشعرت

برعشة يد مالك وماهر أيضًا، ربما هما أيضًا يشعران بما أشعر ولكنهما يتماسكان لأجلي، توقفنا في نقطة انتهت عندها الأشجار، فاستوينا جنبًا إلى جنب، ولكن وجوهنا غريبة، ليست بيضاء ولا حمراء ولا حتّى سوداء، كانت زرقاء، وكأننا أموات نتحرك في أرض المحشر، ظهرت لنا منطقة دائرية تحدّها الأشجار من كلّ مكان ذات أرض مليئة بالحشائش، تذكر ماهر أحد الأفلام الأجنبية التي رآها تحكي عن منطقة مثل هذه المنطقة بها كثير من التحديات، فقال موجهًا الحديث لنا:

- الحلّ الوحيد لأن نتخطّى هذه المنطقة أن نمسك بأيدي بعض جيدا، ولا نترك بعضنا مهما كلفنا الأمر ونسرع الخطى، لا بل نهرول حتّى نتخطاها

فأومأ مالك موافقا:

- حسنًا، لا ضرر في هذا

خلعت رقية وشاحها، وكذلك خلع مالك وشاحه، وربط كلّ من ماهر ومالك أيديهما بيد رقية جيدًا واستعدوا وبدؤوا الركض

شعروا جميعهم بأن الأرض من تحتهم صلبة ولكنها ناعمة الملمس، صرخ مالك بنا:

- أسرعا ولا تنظرا خلفكما

لم يلحظا أنّ خُطا مالك وماهر أسرع من خطاي بشبر أو شبرين، وذلك لقصري عنهم، وبعد أن تخطّى مالك وماهر هذه المنطقة ووصلا إلى منطقة الأشجار لاهثي الأنفاس، سمعا صوت صرختي من خلفهما، وقد كنتُ أوشكتُ على النجاة، وقبل الوصول خدعني إحساس الاطمئنان فأبطأتُ الخطا فسقطت، ولولا رباط أيدينا لكنتُ سقطت في بئر مخادع يغطيه سقف زجاجي مغطى بالحشائش، بئر من الحواف المدببة، ولكني لا أشعر الآن إلّا بتقطيع هذا الطرف الزجاجي في بطني، أصرخ وتصرخ بداخلي نبضات التمسك بالحياة، نبضات ما زالت تأمل في غدٍ مشرق بالرغم من حاضر وماضٍ مؤلم، صرختُ رافضة الموت، رافضة الذهاب دون أثر يحييني إن نُسيت، صرختُ فالتفتا خلفهما وقد كانا على شفا حرف جارف من منطقة الأمان

حاول مالك وماهر تثبيت نفسيهما أولا حتّى لا ينزلقا وهما ينقذاني، تمسّكا بيدي وعند سقوط رباط أيدينا في هذا البئر شعرتُ بأني في تعداد الأموات، حاولا سحبي، وللأسف كنت قد علقتُ في أحد الأطراف الزجاجية المدببة والتي جرحت بطني، صرختُ ثانية عندما سحبني مالك بكل قوته فقد تمكنت الزجاجة المدببة مني، وتوغلت بداخلي فأحدثت

جرحًا عميقًا في المنطقة السفلى من بطني، حينها شعرتُ بأن روحي تخرج من جسدي، وغبتُ تقريبًا عن وعيي أو استسلمت، ولكني في النهاية خرجتُ من هذا البئر سالمة بالرغم من جروح جسدي النازفة، ولكن عيني مازالت تنظر للسماء وأنا مستشعرة سموّ روحي إلى خالقها، ولكنها أبت أن تصعد إلى السماء وتنهي كلّ شيء قبل أن يبدأ، وعادت إلى جسدي لأسمع صوت ماهر وهو يصرخ:

- رقية لا تغلقي عينك، عودي يا حبيبتي

وتخلل إلي عيني صورة مشوشة لمالك وهو ينعش قلبي بالضغط عليه بيديه الاثنتين وعيناه تبكي ويقول:

- لن أتركك تذهبين بعدما وجدتك، أرجوكِ عودي

وقد عدتُ، فانتفض جسدي وجلست فجأة، وحينها شعرتُ بجرح غائر يؤلمني، فلمستُ موضع الألم وجدت الدماء تملأ يدى

سعادة مالك بعودتي أشعرتني بكمّ حبه، ولكن ماهر تركني وذهب يلتقط أنفاسه، أخرج مالك من حقيبته صندق الإسعافات الأولية وبدأ بإسعاف منطقة جرحي وهو يقول:

- لا تقلقي يا رقية ستكونين بخير

ربّتُّ على يده وقلت:

- أنا بخير بالفعل، أحمد الله على نجاتي

نظرت إلى ماهر، وجدته مستندًا على إحدى الأشجار يبكي فطمأنته:

- أنا بخير يا أخي لا تخف

اندفع وقال:

- لماذا؟ لماذا كلّ ما يحدث لنا؟ لماذا نحن هنا؟ ماذا كنت أفعل إذا فقدتك أو حدث لكِ مكروه؟ حتّى إذا أردنا العودة الآن فكيف نعود وقد أغلق حتّى الطريق الذي نعرفه؟

قال مالك وهو يستكمل تضميد جرحي:

- لا تخف يا ماهر، سننجو، نحن فقط لم نضَع لقِصَر قامة رقية حسابًا ولهذا سقطت

اندفع ماهر في وجه مالك:

- أنت لا تتحدث، أنت السبب فيما نعانيه، أنت من جلبتَ هذه اللعنة، وأنت من أدخلتنا بها

فاشتدّ الحديث بينهما وردّ مالك:

- نعم أنا من جلبتها إليكم، ولكني لم أجبرك على شيء، أنت

من أتيت، وهل ترى أني بمنأى عن الخطر؟ فأنا معكم، ما يسري عليكم سيسري عليّ، ولماذا أصبح حديثنا نحن وأنت؟

حاولتُ تهدئتهما:

- اهدءا فمن الواضح أن هذا هو ما يريده، أن نختلف فنتشتت مثلما تشتت من كانوا قبلنا، لا بد أن نكون على قلب رجل واحد

سكتُّ قليلا وأكملتُ:

- من كانوا قبلنا كانوا على حق، هذا البئر الذي تخطيناه كان لدماء ورفات مَن وقعوا في أسر المنطقة الزجاجية وسقطوا فيها

نظر لي كلٌّ من ماهر ومالك منتبهين إلى هذه الملحوظة وأكمل مالك:

- نعم صحيح ما تقولينه

وأكملت:

- لذا دعونا نترك هذا الهراء ونستكمل طريقنا حتّى نعرف نهايته وتمسكّا ببعضكما حتّى لا أنهار أنا، فأنتما سندي ومن دون أحدٍ منكما لا أستطيع الصمود

قال مالك:

- لن نتحرك من هنا قبل تحسنك يا رقية

ولكني أردت طمأنته فقلت:

- ولكني بخير يا مالك، ونهضت أمامه حتّى يشعر أني بخير فعلا، لا أشعر بشيء، فيدُكَ بلسم والمخدر جرى مفعوله وأصبحتُ بخير حال

سمعنا ثلاثتنا نغمة السوناري تعزف من بعيد، فعدنا لنتمسك ببعضنا وسرنا خلف الصوت آملين ألّا تكون خدعة كالأرض النجيلية الزجاجية

تحملتُ الألم وكتمت آهاتي، وبالرغم من شدته تظاهرت بالمعافاة، وسرنا كما كنا في منطقة الأشجار فترة لا أعرف مدتها من قسوة الألم، ظهر طيفه من بعيد، قصر ضخم موحش مقبض، ومجرد أن وقعت عليه أعيننا حلّ الظلام علينا، واكتست السماء بسرب من الغربان السوداء فوقنا متجهةً تعرف وجهتها في القصر ليكتسي في النهاية بها ليصبح أسود بلونها

أفزعنا ما رأينا فأنا أكرهها وأكره صوتها، ووجودها ينذر بخراب وشؤم، توقفنا لثوانٍ ناظرين للقصر في حيرة، باحثين عن بوابته، حتّى دلّنا غرابٌ منها كان يقف وحيدًا على السور إلى البوابة، بوابة مستترة خلف جدار خرساني

ربما بني من قِبَل الشرطة ليضلّ الناس عن بوابة القصر، ولكن الغراب كان يعرفه، فوقف على جزء حديدي صغير ليظهر لنا الباب

توجهنا إلى البوابة أو إلى مواجهة هذا الحائط الخرساني باحثين عن أداة حولنا لتكسير هذا الحائط فلم نجد، لم نعلم أننا مراقبون من الأعلى

نظرتُ للأعلى فوجدتُ هذا الغراب ينظر إلينا، انتبه أيضا له ماهر ومالك، راقبناه حتّى طار ثانية وحطّ على جزء معيّن في السور وأزاح بجناحيه حديدة صغيرة تشبه المدقّ، لتسقط بالأسفل ليلتقطها مالك بعد أن رفع يده شاكرًا الغراب، وكأنه يساعدنا لنبادله المساعدة في التخلص من كابوسهم، سلط ماهر كشّافه تجاه هذا الحائط، حتّى إذا ضرب مالك أولى ضرباته مسميًا بالله سقط الحائط تباعًا وطارت الغربان عند سماع اسم الله يذكر، ظهرت البوابة في النهاية ولكنها مغلقة ولا يستدلّ على مكان لفتحها

اقتربنا من البوابة واضعين أيدينا عليها، ولكننا ابتعدنا مفزوعين عند اهتزازتها، كانت بوابة سوداء، ذكرتني بغلاف الكتاب كثيرًا، اهتزت البوابة فظهر تجويفٌ بمنتصف الباب على شكل مستطيل، لم نعرف ماذا يشير إليه هذا التجويف، وبعد التحديق للبوابة وتبادل النظرات بيننا هتفتُ

" الكتاب "

أخرج مالك الكتاب من حقيبته وتوجه للبوابة واضعًا الكتاب في هذا التجويف، فانجذب الكتاب لداخل التجويف وفتح تلقائيًا على صفحة قصر الحنين، وتلألأت كلماته من جديد بخيوط ذهبية اللون

قصر الحنين

"غرفة مغلقة لمشاعر منسيّة، يغلفها الزمان بباقات من الدموع، ذكريات بعيدة، أنين مستمر، وجرح نازف، رغبة جامحة للدموع بغزارة، جدران تغلفها الحقيقة بستائر سوداء، إذا دخلتَه أيقنتَ من عدم الخروج، فستترك هنا روحك، وإذا خرجتَ تمنيتَ البقاء للأبد، منه يبدأ كلّ شيء، ومنه ستعود للحقيقة"

وفي النهاية فتح لنا الباب، وفتحت معه أبواب الحقيقة وأبواب أخرى لم نكن مستعدين لها

***

النغمة العاشرة

حرب اللاوجود

أرواح تتصارع، وقلوب تنتفض، أشلاء تتناثر، ودماء تسيل، عدَم، لا شيء يُرَى، رائحة الدماء تفوح من كلّ مكان، وفجأة تحول الوجود إلى غبار أحمر يتناثر، فمن المنتصر إذًا؟ الوجود أم جنود العدم؟

(٢١)

كاميليا

١٩٦٠

إحساس بالقلق ينتابني، تحرُّك غريب في المنزل لا أفهم سببه، اضطراب الخدم وأصوات عالية تأتي من داخل الفيلا، صوت أندريه يعلو وأحيانًا يختفي ليعلو صوت تلك الساقطة التي تزوجها، لا أسمع صوت جوزيف من فترة، ولم يأت لي عمّ حسن منذ ثلاثة أيام، فهو كان يأتي خلسة لينظفني ويرعاني، طلبتُ منه إرسال طلب النجدة من توماس، هو الوحيد الذي يستطيع إنقاذي مما أنا فيه، ولكن لا خبر يأتي من توماس ولا حتّى من عم حسن

الخدم أصبحوا صامتين وهم من كانوا يتكلمون معي من قبل، أصبح كلّ شيء مرعبًا، ماذا يحدث إذًا؟ ولماذا تغيروا معي؟

وفي خضمّ حديثي مع نفسي أتت واحدة من الخدم القديم تأخذ الأشياء من غرفة الخزين التي بجانبي، كانت لي ودودة، فتجرأتُ وسألتها:

- ماذا يحدث يا صبيحة؟ ما كلّ هذه الضجة؟

نظرت لي بأسى وقالت:

- لا تسألي ماذا يحدث يا ابنتي؟ ولكن اسألي ماذا سيحدث؟ ماذا فعلتِ يا ابنتي في حياتك لتقعي أسيرة لهذا الوحش؟

جاوبتها مقسمة أني لم أفعل أي شيء في حياتي سوى أني تزوجته وأنجبت منه ابني

سألتها بلهفة:

- أين ابني من كلّ هذا ياصبيحة؟

جاوبتني بأسى:

- ابنك سافر ولكن لا أحد يعلم إلي أين

اندفعتُ وصوتي يرتجف:

- سافر كيف؟ وإلى أين؟

جاوبت وهي تنظر يمينها ويسارها وهي خائفة كأنه أمرهم بعدم محادثتي:

- لا أعلم يا ابنتي، ولكن الخواجة أندريه الآن ينقل الأثاث والخدم إلى بيت آخر ويخلي القصر

- ليس له الحق في إخلاء القصر، هذا ملكي وملك أبي

لم أنه حديثي ولكن قطع حديثنا صوته من أعلى وهو يصيح:

- أمسكوا هذه الخادمة فقد عصت أوامري

وحينها ارتجفت صبيحة وعلمث ما سيحدث لها، تركث ما بيدها وهربث من حراسه ونجحث في الخروج من الفيلا، ولكن بالرغم من خلوّ الطريق من السيارات السريعة إلّا أنها صدمت بسيارة ظهرت فجأة ألقتها جثة هامدة لا تشعر بشيء

صرخثُ فيه وهو يقف أعلى الشرفة الجانبية للفيلا:

- أنت ظالم وسيذيقك الرب ما تفعل

مرت الليلة هكذا، أناجي الرب ليحميني، أدعوه ليرسل لي المدد والعون، ولكن أفكر، فهناك مزيد من التصرفات والأحاديث التي مازلت لا أفهمها، فقول صبيحة:

- لا تفكري فيما يحدث، فكري فيما سيحدث

وما قاله من قبل لي عم حسن قبل ذهابه بدون عودة

- هذا ما اقترفث يداي وأنا من سأصحح الوضع

ماذا فعلثُ؟ ولمن؟ حتّى أصبح ضحية في عالم لا أتذكر

إساءتي لمن فيه؟ ربما أنا الآن ضحية تفكيري الخاطئ ورضوخي لأندريه، فقط هذا فعلي، ولكنّ كثيرين مثلي في هذا العالم يرضخون لزواج تعيس لمجرد رعايتهم لأبنائهم، لماذا أنا بالذات من أعذَّب هذا العذاب المضاعف؟ ولكن سجني لا يختلف عنهم، فالحُرُّ هو من حرر عقله وقلبه وتصرفاته لأي فكرة تطرأ عليه، من لا يحاسب على كلمة، من لا يحاسب على تصرف، وما دون ذلك فالكل سجناء

هزلتُ، فأنا منذ ثلاثة أيام لم أتذوق شيئًا، ولولا أنّ صبيحة أطعمتني قبل موتها حفنةً من الأرز وقليلًا من الماء لكنتُ في عداد الموتى الآن

انتظرتُ، وغبتُ عن الوعي كثيرًا، تفيقنِي فقط إما حرارة الشمس الحارقة أو أصوات القطط التي أصبحت كثيرة في الحديقة ولا أعرف سببها، عواؤها مزعج ومخيف، هدوء الفيلا يوحي لي بأنه ذهب، أين أنت ياعم حسن؟ حاولت القيام من مكاني، حاولت تكسير قيودي بحجر أمامي ولكن القطط كانت تعيقني وتهجم عليّ في كلّ محاولة لتكسير قيودي، وكأنها جنوده وأوصاها بمراقبتي

ولكن الرب لم ولن يتركني، أرى شخصًا يأتي من بعيد، يظهر على هيئته أنه ليس من هنا، يقترب أكثر بل يهرول عليّ مباشرة فتتضح رؤيته، وبالرغم من مرور السنوات ما

زال وسيمًا كما هو، لم يتغير به إلّا خطوط الزمن في وجهه، عرفته، ولكن هل عرفني؟ وبلهفة وقوة جاءتني من بعد وهن، أقبلتُ عليه بعدما أقبل عليّ، ودمعت بعدما وجدت وجهه غارقًا بالدموع، ولكني تراجعتُ في الخطوة الأخيرة قبل أن أحتضنه، ليس فقط لقصر سلسلة قدمي، فما له ذنب أن يتسخ بما أنا به، فأنا فقط من أتحمل ما ارتكبته نفسي من صبر على بلاء زواجي

ولكن توماس أبى أن يبتعد ربما تصرف منه لأسامحه على ما فات، احتضنني فشعرت بالأمان بالرغم من أنه لا يعلم أن جسدي يؤلمني فهو محترق بالكامل، عظام جسدي وكأنها تهشّمت بحضنه، ولكن حضنه بثّ بي القوة، فلقد عاد توماس وستعود فرحتي معه هذا ظني به

تكلم أخيرًا بنبرته التي اشتقت لها:

- سامحيني يا أختي لقد أخطأت بحقك ولكن كنت أعتقد أنه الخير لكِ

دمعت عيناي، فما كنتُ أتخيّل أن يكون هذا استقبالي لأخي بعد سنين غربته، تأسّفتُ له على حالي

نظرتُ للقطط حولي وهي تعوي وقد أخافه مثلي هذا الصوت فقال:

- هيا بنا لنخرج من هنا أولًا ثم نفكر ماذا سنفعل

حاول كسر قيودي ولكن بصعوبة كسرت، ولكن كان الألم بالنسبة لي هو خروج القيود من التجويف الذي استقرت به في يدي وقدمي، فقد اتخذث من لحمي مبيتًا لها وغارت ثم غارت وتأقلمتْ عليها، فالقيود لا تحتاج إلّا فترة وجيزة للتأقلم عليها لتسود حالة من التجاذب والألفة حتّى تصبح كيانًا مكمّلًا لحياتك، فالظلم نار مؤججة، بدايتها لهيب ونهايتها رماد يتطاير ويتبعثر مع رياح التأقلم و الرضوخ، حملني توماس وكدنا أن نخرج من بوابة القصر لولا القطط التي اصطفت أمام البوابة، وبين محاولة إزالتها وعوائها المزعج أغلقت بوابة القصر علينا وحدها وهذا ما لا يحدث أبدًا

تجمّدنا مكاننا مذهولين، نظرنا خلفنا إلى بوابة القصر الداخلي بعدما وجدناها تصدر أزيزًا مزعجًا، وجدناه يخرج منها، ارتجف قلبي وهمستُ وأنا اختبئ خلف توماس:

- أندريه

همستُ لتوماس في أذنه:

- هذا زوجي يا توماس أنقذني منه ..

ربّت على يدي:

- لا تخافي حبيبتي أنا معك

تمسكتُ بأخي حتّى خرج من خلف أندريه كيان صغير ينبثق من روحي وجسدي، فأفلتُّ يد أخي عمدا وأقبلت على ابني، أستبِق الخطوات لأشتم رائحته، لأختبئ بحضنه وأغرق بنقائه فيسبغ عليّ بقوة حنانه لأطمئن أني ما زلت على قيد حياته، حتّى أصبحتُ أمامه، وقبل أن أندفع لاحتضانه، دفعني للابتعاد عنه بقوة، فسقطتُ أرضًا ألملم خيبتي المبعثرة، اشتياقي المنهزم، دفعني حنيني للمس موضع دفعه لي، لقد لمسني، وهذا يكفيني، كبر ابني ويفع حتّى قوى وارتفع، سقطتُ رغمًا عني ليس غضبًا منه ولكن رغبة مني بمزيد من اللمسات حتّى ولو بقسوة، توسلتُ له أن يلمسني ثانيًا، اشتياقي له فاق ماهيّة اللمسة، يكفي أنها منه

اندفع توماس نحوي يحاول مساعدتي على النهوض، وهو يصيح بجوزيف:

- كيف لك أن تفعل بأمك هذا؟ أهذا ما علمك أبوك؟ فلتحيا تربيتك يا وضيع التربية

ضحك أندريه ضحكة خبيثة:

- نعم هذه هي تربيتي، وسيعلم جوزيف الآن ماذا فعلت أمه لتلقى هذا العذاب الذي لا يتوقف، وأقسم لكم أني

سأذيقكم مزيدًا منه دومًا

صرختُ به وأنا ما زلتُ أسفل قدم ابني:

- أرجوك لا تلوّث تفكير ابني أكثر من هذا، كلّ ما فعلته فى حياتي لأعيش بجانب ابني فقط، إن كان على صفقتك فقد عرضتُ عليك جميع أموالي وأعتقد أن توكيل أبي يكفيك

توجهتُ لقدمه، قبّلتها وترجّيته أن يعيد لي ابني ثانية، مزيد من الذل لا يضرّ، أنا لا أريد المال أنا أريد جوزيف فقط

سحبني توماس وهو يوبخني:

- توقفي عن إذلال نفسك له، ابنك ومالك سيعودان ولن يهزمك أحد بعد الآن

انقبض توماس فبغضت نفسه الأجواء، القطط تعوي وتزيد المكان رعبًا، وبالرغم من عشقه لهذه الحديقة من قبل إلّا أنها الآن تفوح برائحة خيانة نتنة، سرَت قشعريرة في جسده شعر بها من قبل عند ملاقاة ناردين، ولكنه تذكر:

- ناردين أقسمتْ لي أنها ستكون سببا في حمايتنا

ومع صوت تصفيق أندريه، انتبه توماس لحديثه وكذلك جوزيف، ولكني كنت منشغلة بتجميع ما تبقى لي من كرامة لأقف وأستردّ كرامتي الممزقة، وتكلم الشيطان بفحيح

الأفاعي ناشرًا سمّه على الجميع بمزيد من الألاعيب، لإفساد صورة الأم البريئة في عين طفلها:

- جميل هذا الكلام، توقفي يا كاميليا عن الذل لزوجك واحتمي بعشيقك الهارب فهو الأمل الأخير لك

صرخث به، وظلّ توماس صامتا، فقد شعر بهم حوله وهمست ناردين بأذنه:

- احذر يا وحيد إنهم حولك

فالحرب قد بدأث للتوّ، ولكن الآن الحرب مختلفة، هي حرب العقول التي تمارس من قبل الشياطين دائمًا لتكذيب الحقائق، وإثارة الفتن

- ماذا تقول؟ عشيق مَن؟ هذا توماس أخي، هذا خالك يا جوزيف الذي كان يعيش في روما، لا تصدق هذا الأبله يا بنيّ

شعرثُ باهتزازة توماس بجانبي، فقد أصبح توماس الآن بين عالمين، مطّلع على ما يحدث في الخفاء، ومدرك لما يحدث في العلن، ظهرث جيوش من الجن وعلى رأسهم شيطان يقف بداخل أندريه ومثله صغير متلبس جوزيف، والكل متأهب، بجانبه تقف ناردين وبعض المردة في الخلف يقسمون على حمايته

استهزأ أندريه بحديثي :

- أخوكِ بالفعل هذا هو أخوكِ الغائب، وتوجه أندريه بعينه لتوماس يسأله:

- هل يمكن أن تخبرها لماذا غبتَ عنها كلّ هذه المدة يا توماس؟

نظر له توماس بحيرة، يتساءل إلامَ يريد أن يصل بي هذا الشيطان؟ فسؤاله هذا يوحي أنه يعلم ما ستر عن كاميليا كلّ هذا العمر، فاندفع يبرر:

- نعم أنا أخوها ولا أحد يستطيع التشكيك بهذا، وقد سافرتُ للبعثة وشغلتني الحياة لتحقيق حلمي وشهرتي

نفث الشيطان مكائده على لسان أندريه:

- فماذا كان اسم شهرتك في روما؟ هل احتفظتَ بتوماس أنطوان أم أنك عدت إلى اسمك الحقيقي؟

صمت توماس متعجبًا، من أين يعرف كلّ هذا؟ ولكنه انتبه أنه يتكلم بلسان الشيطان الذي يحارب في الأصل ناردين لأنها تركته وهربت لتحمي حبيبها وحيد، كانت كاميليا صامتة تنظر وتسمع، تحاول أن تستوعب، فأكمل بحفيفه الخانق:

- لا تستطيع بالطبع أن تفصح أن الخواجة أنطوان طردك من المنزل بعد أن علم أنك سرقت الآلة الملعونة التي فتحتْ بها باب اللعنة، وماتت السيدة سيلينا لأنك عزفت معزوفتها وأنت تعلم أنها ملعونة، ولأنك لستَ ابنها فقد هانت عليك موتتها، ولأن الخواجة أندريه قد علم خطرك وخاف على كاميليا منك أبعدكَ عنها، أليس كذلك؟ ولكنك ما زلت تفتح عليها أبواب الخراب والذل والخطر، وهي مسكينة متعلقة بك

صمت الجميع ينظر لتوماس، ونظرتُ له، ارتجفتُ خوفا وتجمعت الدموع في عيني حتّى سألته:

- أهذا صحيح يا توماس؟

نظر لي توماس، وكان سيبدأ بالحديث إلّا أنه وفجأة استُدعِيَ إلى العالم الآخر، وقد استعدّ المحاربون، وقد ازدادت فجأة أعداد الجنود خلفه، وبعد سؤاله عنهم لناردين أخبرته أن الكفة توازنت وأتى المدد وازداد العدد، فاستمرّ في تكذيب ألاعيبهم، فعاد بقوة ينظر شذرا لكاميليا وغضبا:

- كيف لكِ أن تصدقي هذا يا أختي بعد كلّ هذه السنين التي بيننا؟ وبعد كلّ هذه الذكريات تصدقين هذا الكاذب بالرغم من كلّ ما فعله بكِ، أنا توماس أخوكِ الذي تربى معك على يد سيلينا، ولا تصدقي غير هذا، أنا صديقك الوحيد، لا

تضعفي ولا تنهاري ولا تشكّي في ولائي لكِ

سألته مستفهمة:

- ولماذا إذًا تركتني وذهبتَ فجأة؟

جاوب توماس ودموعه تطوف في عينيه بعدما شعر بضياعها منه، وهي كلّ أشيائه الباقية والتي سيحميها حتّى يلفظ أنفاسه الأخيرة، لا يريد أن يضعف فينتهزوا لحظة ضعفه

- شرحتُ لكِ من قبل في رسائلي سبب سفري، كنت حزينًا وفضّلتُ أن أعيش حزني بمفردي، وجذبتني الحياة في روما حتّى تهتُ بداخلها، وعندما وصلت استغاثتك تركت كلّ ما وصلت له وأتيت لك مستعدا للتضحية من أجلك

على الجانب الآخر كان أندريه يستهزئ ضاحكا كالشياطين:

- ما أجمل هذا المشهد الرومانسي! هذا هو الحمل البريء الذي ضحّى بشهرته وأتي لينقذ حبيبته

ووجه حديثه لجوزيف:

- عرفتَ أن الرسائل كانت مستمرة بينهما وأن أباك صادق؟ عندما قرأتها يا جوزيف شعرتُ أنها لأخيها

- نعم يا أبي أنت صادق وهذه خائنة، أنا لا أعترف بها أمًّا

وهنا سقطتْ كلّ حصوني وانهارت، صرختُ صرخة وحيدة مثلي:

- لماذا كلّ هذا؟

وتوجهتُ لأندريه متبرئة من توماس في محاولة مني لاستمالته:

- أنا لن أعرف توماس بعد الآن، ما ستريده مني سأفعله، سأذهب لأصدقائك وأفعل ما يريدون، سأكتب لك كلّ ما أملك ولكن أرجوك أعد لي ابني؟

وحينها قبض أندريه على عنقي وأحكم قبضته حتّى اختنقت، رفعني منها وقد لاحظتُ أن وجهه تغير لتظهر علامات وجه مخيف، عينان حمراوان كأنهما اللهب، وجه معتم، يده أصبحت جمرا يلتفّ حول عنقي وهو يصيح بكره وغضب:

- فات أوان الطاعة، منذ متى وأنت تعصينني؟ وفجأة تغير صوته، منذ متى وأنتِ تخونينني؟ نعم ليس لكِ ذنب في كلّ ما يحدث، ولكنك ستموتين هنا أمام عينيه ليتألم عليكِ كما تألمتُ على حبيبتي، يحبك وكرّس حياته من أجلك، ولكني كنت أحبها أكثر منه، مَن هذا لتتركني من أجله؟ مَن هذا لتترك أباها ومملكتها من أجله؟ سأذيقه وسأذيقها العذاب

حتّى يتجرعا ويأتيا لي ساجدين طالبين العفو والمغفرة والمحبة الخالصة "

وهنا شخصت جميع الأبصار، فتكلم الآن رائف ابن عم ناردين على لسان أندريه، فهو من خطط لكل ما حدث لينتقم من وحيد الذي سرق قلب حبيبته لتهرب منه وتختار أن تعيش بجانب حبيبها باقي عمره، لأن عمره بجانب عمرها مجرد حفنة من زمان اللهو عاشته

اختنقت كاميليا في يده، حاولت أن تنقذ نفسها وتمسك يده لترخي قبضته على رقبتها، احترقت يدها وتصاعدت الأبخرة منها، وحينها علمت أنها في قبضة جمرة من اللهيب المشتعل، نار ستحرقها بعد ثوانٍ لا محالة، قرأت صلاتها وسلمت روحها للرب واستسلمت للموت، اندفع توماس لينقذ كاميليا، ولكن أوقفته ناردين فهي تعلم أن كلّ ما يحدث خدعة ليقع هو، وأن اقترابه فيه الموت لا محالة

ولكن شاءت الأقدار أن تنقذها من يده، فمن بين فتحات السور الحديدي المغطى بالأشجار في الفيلا، انطلقت طلقة مصوبة نحو قلب أندريه، ليسقط صريعًا وتسقط معه كاميليا مغشيًا عليها من نقص الأكسجين في جسدها على الأرض

وهذه كانت طلقة بداية المعركة، فمنذ لحظة سقوطهما، هبت عاصفة قوية، أصبحت الأجواء صفراء مائلة لاحمرار

خفيف، رائحة الدماء تفوح من كلّ مكان ولكن لا ترى، يسرع توماس لينقذ حبيبته، ويسرع جوزيف لحضن أبيه المقتول، ويرى وحيد المعركة، معركة متكافئة الأطراف بعد إلحاق المدد بجيش ناردين ومعها سيدة كبيرة تدعوها بأمي، الجنود تتصارع، سيوف ودروع تسقط، أصوات عويل وآهات الجنود الساقطة، ودموع توماس بعدما استعان بكل الطرق لإنقاذ حبيبته، ودموع ابنها لموت أبيه، وفجأة استقام جوزيف وارتجف جسده وشخصت عيناه وهرول وهرب سريعًا واختفى، كان توماس حائرًا بين إنقاذ حبيبته وإنقاذ ابنها، ولكن قلبه ارتجف وأبى أن يترك حبيبته لتصارع الموت وحدها

- صرخت ناردين بأمها، هرب رائف بجسد الطفل، وهنا توقفت المعركة بهروب رائف وجنوده، حاولا اللحاق بهم ولكن بلا جدوي، ولكن أم ناردين الملكة الكبيرة تركته، فهي تعلم انه سيظهر لا محالة

انتبه وحيد لهما فصرخ:

- كاميليا تموت

و بين طرفة عين وانتباهتها يحي الله النفوس المظلمة بعد أن غابت في بحور الظلم والضلال لتعود للنور من جديد، ولكن ستبقى بقايا خيوط الظلام متعلقة بنفوسهم إما لتدفن

مع مخلفات التصحيح، وإما أن تكون نقطة لبداية انتشار الظلام من جديد

ومع مساعدة بضغطة قوية من يد ناردين على قلب كاميليا عادت كاميليا من الظلام إلى النور، لا تشعر بكل ما حدث حولها، ولكنها لا ترى إلّا جثة أندريه وجسد توماس أمامها، ولكن غابت روحها مع غياب ابنها، ومع ذكرها لاسم جوزيف أعلنت استسلامها للظلام من جديد

***

(٢٢)

رومـــــــــــا

١٩٩٦

الخوف، الرهبة، العجز، الضعف الموهن المستتر خلف قوة واهية يظهرها ماهر ومالك ليجعلاني في منأى عن مشاعرهما المضطربة، خيم الصمت علينا، بعدما استدار مالك لنا:

- انتهى الطريق إلى هنا

اندهشت أنا وماهر لجملته وراودتنا مشاعر قديمة تجددت بثوانٍ، وجهت له سؤالًا مبهمًا وأنا واضعة يدي على موضع جرحي، يتعالى صدري بأنفاس مرهقة:

- ماذا تقصد بـ انتهى؟

شعر مالك ببداية شعور قديم يتجدد طيفه في عيني:

- أقصد أننا حبسنا هنا، وطريق العودة المألوف اختفي، وعلينا اكتشاف هذا القصر الذي إما أن يكون ملجؤنا إلى وقت هروبنا منه، أو أنه سيدلنا على طريق للعودة

اقترب مالك مني لأستند عليه وهمس في أذني :

- للأسف ما زلتِ تشكين بي، ولكن سيثبت لكِ الزمن أني غير هذا الشخص المرسوم بعقلك

تكلم ماهر وهو ينظر حوله إلى الحديقة الموحشة ذات الأشجار المظللة عليهم:

- وماذا سنفعل الآن؟

قال مالك:

- سندخل بالتأكيد إلى القصر لنرى ما ينتظرنا بداخله ولتستريح رقية، ولكن لا أريد أن أكرر عليكما ألّا نفترق، وأن نبقى بجانب بعضنا حتّى نستطيع مواجهة أيًّا ما كان بالداخل

بسطت يدي لماهر واليد الأخرى مستندة على مالك، وتوجهنا لبوابة القصر الداخلي مارّين بحديقة القصر، حيث وجدنا بها أرجوحة لشخص واحد، وأمامها أيضًا منضدة بكرسي خشبي واحد، ومن الظاهر أن هذا القصر كان غير مفعم بالسكان، هو شخص أو اثنان فقط

فتح باب القصر الداخلي وحده أمامهم على ردهة كبيرة وأعمدة كثيرة، تقدمنا خطوات لندخل القصر، وبمجرّد تخطّينا خطواتنا الأولى أغلق الباب خلفنا، وفتحت أنوار

القصر تباعًا فكشفت عن الجمال الداخلي للقصر، جمال روماني ليس له مثيل، أعمدة البيت المطلية بالذهب، ورسومات الحائط الغريبة، علي اليمين كان هناك مجموعة من صالونات الاستقبال الفخمة، وعلى اليسار هناك منضدة عليها اثنا عشر كرسيًا وبعدها بيانو موسيقى مبهر

ولكن ما لفت انتباه مالك تلك الرسومات المجسدة الموجودة في المكان ولمن هذه الرسومات؟ ومن هذا الفنان الذي رسمها لتجسد أشخاصًا وكأنهم حقيقة؟

انتشرنا بالبيت نبحث عن مخرج، في الطابق السفلي لا يوجد أي مخرج حتّى من المطبخ الذي عادة ما يوجد به مخرج للخدم، صعدنا إلى الطابق العلوي عبر سلم ملكي من أربعين درجة، شعرتُ بسموّ نفسي وزهوٍ خاص بملكات القرن السابع عشر، أتخيل نفسي بفستان سماوي ذي طلة عظيمة، وبيدي مالك ببذلة أنيقة، ممسكًا يدي ونحن صاعدان إلى جناحنا الخاص، هذا بالتأكيد حلم انتهيت منه عندما انتهينا من طوابق هذا السلم، لنجد ممرًا طويلًا مليئًا بغرف النوم، انتبه كلٌّ منا إلى اسمه ينادى من بعيد:

" ماااالك، مااااهر، رقيييبية "

نودينا وما علينا إلّا تلبية النداء، وتبع كلٌّ منا اسمه ولم ننتبه إلّا عند اللحظات الأخيرة، حين أغلقت علينا الغرف،

فانتبهنا لصرخة تدوي منا منتبهين لافتراقنا، سمعتهما يناديان باسمي، وأنا أنادي " أنقذاني "

ظلام دامس يحيط بالمكان، ثبتُّ في مكاني ملصقة جسدي بالباب، جسدي يرتعش، اعتقدتُ أن من عزم صرختي فتح جرحي من جديد وصارت الدماء تسيل، أشعر بها ولم أرها، فالغرفة مظلمة ظلامًا دامسًا، قررتُ ألّا أتحرك وأنتظر ماذا سيحدث، لن أكون صاحبة الفعل ولكني سأردّ فقط الفعل الموجّه لي، انتظرتُ وربما من معي انتظر أيضًا، نعم أشعر بأنفاس حولي، نغمة السوناري تعزف من بعيد، أردد بداخلي احميني يا الله، ولكنّ شعورًا غريبًا ينتابني، ليس شعور الخوف فقط، ولكن هناك شعور آخر غريب، شعور الحنين لشيء بعيد، هناك رائحة بدأت تقترب، أشعر بها جيدًا، نعم إنها رائحته، رائحة أخي جابر

ناديته تلقائيًا: أخي

وعندها بدأ الظلام ينقشع وتظهر الرؤية تدريجيًا، لتظهر غرفة صغيرة لم يوجد بها غير باب آخر، بجانبه نافذة وكرسي هزاز، الكرسي يهتز في ركن الغرفة، الآن اتضحت الرؤية، كنت طوال الوقت معه وأنا لا أنتبه، من بعيد يظهر هذا المتلحّف بالسواد جالسًا على الكرسي ينظر إلى النافذة ذات الستائر السوداء معطيًا لي ظهره، ولكن رائحة أخي ما

زالت تداعب أنفاسي، اقتربتُ منه وتكلمت وبغير انتباهة مني تنازلتُ عن موقفي وتلبّسْتُ بدور الفاعل

- ماذا تريد مني؟ كنت سأموت بسببك

اقتربتُ منه، فخوفي منه انتهى بعد آخر لقاء بيننا، ومع اقترابي تبين أنه ليس هذا الشبح ولكنه أخي، أخي أمامي الآن، وابتسم ابتسامته التي أحبها منه وكنت أطمئن بها، وبدون أي شعور مني وترتيب لأفعالي احتضنته، ولكني احتضنت السراب، كنت أحتضن العباءة أو التراب، فانهار كلّ شيء في ثوانٍ وسقطت العباءة وبقي من أخي حفنة من تراب ملقى على الأرض، وسمعت صوت ارتطام حديدي بالأرض، لأبحث أسفل العباءة فأجد خاتم أخي المختفي منذ دخوله القصر، لقد تذكرت هذا الخاتم الذي دخل به القبو وعندما خرج من الفيلا لم يكن بيده، هذا الخاتم كان في القصر، أمسكت الخاتم وبكيت، فبمجرّد رؤيته تناسيت ماهيته، أردت فقط أن اختبئ بحضنه علّه يحميني مما أنا فيه، ولكنه ترك لي أثره والسراب، وبسمة مخيفة ظاهرة من الركن الآخر للغرفة لرجل الظلام، صرخت به في النهاية

- أرجوك اتركني، ماذا تريد مني بعد كلّ هذا؟

تكلم بصوته الاجش ورائحته النتنة:

- أريد الحماية

تعجبت من كلمته:

- نعم !! تريد الحماية ممن؟

جاوبني:

- ليس ممن، ولكن على من

ولأول مرة ظهر لي هذا الرجل بهيئة سمحة، بالرغم من عدم تغير ملامحه التي لا تظهر أو تموجات وجهه التي تظهر وتختفي، ولكن نبرته كانت بها جزءٌ من اللين ونبرة من الشفقة، أكمل لغزه:

" سينتهي الأمر عِندك، ويكون بيدك، ستتولين الأمر فاعتني واحمي وراعي جيدا، فإن أتممتِ مهمتك فستكونين بأمان وتصلين لغايتك "

قالها واختفى وتركني هنا وحيدة مع جملته والتراب الباقي من أخي وخاتمه، وهذه الغرفة التي اختفى منها باب الدخول وبقى باب وحيد لم يفتح

وبالجانب الآخر مالك أغلقت عليه الغرفة، وكانت الغرفة مثلي ساكنة مظلمة، ولكنه لم يفعل مثلي، انتبه لما بالداخل، حاول فتح الباب ليخرج وينقذني، ولكن لا شيء يحدث

سوى أنه يسمع من الداخل صوت اسمه مصحوبًا بنغمة السوناري، ويشتم رائحة عطرة، استدار ليرى من بالداخل، الرؤية منعدمة، ولكن الرائحة تزداد فينتفض قلبه شوقًا لطفلة كانت تداعبه منذ زمن ونطق باسمها

- " ياسمينا أنتِ هنا صغيرتي "

لم يصدر أي صوت، الظلام ما زال سائدًا، يحاول فتح عينيه لتتضح الرؤية، ولا شيء يحدث، انقشع الظلام رويدًا، وظهر الكرسي المهتز وما من أحد عليه، ولكنه ما زال يهتز، اقترب منه ليرى من يجعله يهتز هكذا، وجد عليه مفتاحًا، أخذه ليذهب ويفتح الباب، فاختفت فجأة الأبواب من الغرفة، تلاشى الأمل وعاد لنقطة الصفر، إن هذا المفتاح لن يستفاد منه الآن

وفي ركن الغرفة ظهر له الرجل المتلحف بالظلام، فارتجف مالك واهتز من داخله وسأله:

- من أنت؟ وماذا تريد منا؟

فردّد جملته المحيّرة:

- أريد الحماية

فأتبع مالك اندهاشه بانفجار:

- الحماية منا نحن !! مَن نحن حتّى نعطيك الحماية؟

قال رجل الظلام:

- "بدون الألغاز لن تصل للحقيقة، تفكيرك سيريح ما بداخلك وسيصل بك إلى بر الأمان، سيجعلك تحتاط، كلّ ما عليك أن تتبعني، ولا تندفع، اندفاعك سيصل بك إلى مصير أبيك وأمك، الذي أصبح قريبًا فاحمِ ظهرك منهم "

اندهش مالك من حديثه، وكأن هذه الغرف ليست إلّا غرفًا لوضع كلٍّ منا أمام مخاوفه وإعطائه القوة لمجابهتها:

- أبي وأمي ما شأنهم بما أنا به الآن؟

قال جملته واختفى:

- الحقيقة مدفونة بداخلهم، إن أخرجتها فأنت الفائز بها، وبعدها ستتحملها أنت وتحميها وترعاها، فهي لك لا محالة، وأنت من ستكمل الطريق وتعود إليك القوامة والتصحيح

اختفى بعدها رجل الظلام تاركًا مالك بين ألغاز لا تنتهي، وعودة مرة أخرى إلى طريق هو يكرهه، إلى أبيه وأمه، أخذ يرتب الأفكار والألغاز والمواقف، انتظر ليمسك ببداية الخيط الذي إذا توصل إليه سيتوصل إلى الأمر بأكمله، ويعلم جميع الأجوبة على تساؤلاته التي يئس من حلّها، لأمي وأبي علاقة

بما أنا به وبلغز السوناري، أمي وأبي لهما علاقة بهذا القصر، ولذا كان رفض أمي عظيمًا عندما علمت أني ذاهب إلى روما، وفجأة ظهرت بوابة مكان اختفاء رجل الظلام، أقبل عليها مسرعًا محاولًا فتحها، ولكن ارتجافة يده جعلت المفتاح يقع تكرارا، حتّى استطاع تمالك أعصابه وفتح الباب، مالك بالرغم من كلّ ما حدث كان لا يريد الاطمئنان إلّا على رقية وما حدث لها

خرج مالك من الباب ليجد أن كلّ شيء تغير بدلًا من الممرّ الطويل المليء بالغرف ذات الأرض المفروشة بالسجاد الأحمر الفاخر، وجد أنه خرج إلى غابة مليئة بالأشجار، لا يوجد أسوار أو حتّى بوابات، سمع صوتًا يأتي من بعيد يطرق على الحائط، حاول استراق السمع، وعند الاقتراب منه تبين أن الصوت لرقية، وجد الصوت يأتي من خلف حائط خرساني، فبحث عن شيء ليزيل هذا الحائط، وجد على الأرض سيخًا حديديًا قديمًا ملقى، فأمسكه وبدأ يضرب على الحائط ليتحطم بعد محاولات عديدة منه، ومن بعد تحطم السور وجد بابًا حديديًا فتحه بالمفتاح الذي وجده بالغرفة، وبمجرّد أن رأيت مالك حتّى اندفعت عليه كالطفلة الخائفة التي تحتمي بحضن أبيها وتبكي

قال لي مالك:

- اهدئي يا حبيبتي، نحمد الله على النجاة، أنتِ معي وهذا هو المطلوب

صرخت به:

- كدت أموت بالداخل يا مالك

نظر مالك للخاتم الفضي ذي الحجر البني الذي بيدي، وبعد سؤاله عنه تبادلنا ما حدث لنا بالداخل، ولكن لفت انتباهنا عدم ظهور ماهر أو حتّى أي صوت منه، ولكن القصر بدأ ينهار، ظهرت تصدعات هائلة بالحائط، حاول مالك أن يسحبني لنبتعد عن القصر ونهرب، ولكني أبيت وصرخت ودمعت:

- لن أذهب بدون ماهر أخي، كيف لي أن أتركه هنا؟

قالها مالك بدافع الخوف على حبيبته:

- اذهبي، ستموتين، ابتعدي وأنا سأحاول أن أجده

صرخت به وهتفت:

- لن أذهب من دونكما وسنخرج من هنا معًا كما دخلنا معًا، وإلّا فسوف نموت كلنا هنا

انقلب الوضع بثوانٍ إلي دمار يعمّ المكان، غبار هائل من أثر الانهيار، وحصى يتطاير في كلّ مكان، ولم يبق في القصر إلّا

القليل، وبين صوت هذا الدمار انطلق دويّ رصاصة جاءت من بين الغبار، فاندفع مالك تجاهي فانقلبث وهو فوقي على الأرض يحاول حمايتي من الرصاصة، وبعد السكون بثوانٍ وجدنا ماهر يخرج من بين هذا الركام حاملًا هذا المسدس بيده

- صرخ مالك به أسرع يا ماهر لابد أن نذهب سريعًا

أسرع ماهر وبدأنا نهرول بين الأشجار، والأرض من خلفنا تنهار، كلٌّ منها يلهث خلف النجاة، ألمي يزداد، وجرحي ينزف وأريد أن أصرخ ولكن لا وقت للانهيار، بعد المضيّ حوالي ربع ساعة نركض بين الأشجار، توجهُنا الغابة بنفسها إلى المخرج، بدأت الرؤية تتضح من بعيد، هناك يقف رأفت، وبعدها حلّ الظلام على عيني، لا أعرف من حملني عندما سقطت وكيف اجتازوا بي الجزء المتبقي من الغابة، ولكني في النهاية سقطتُ ولم أستطع الصمود للنهاية

***

نشاز موسيــقي حــاد

لقد حلت اللعنة

وأظلمت النفوس

تحسست العيون لبصيص نور يضيء الملموس

ولكن اختفى كلّ شيء

وحل الظلام، لا شيء يُرى

كان للخوف السيادة

أصوات مرتجفة

صراع خفي غير ملموس، يُسمع ولا يرى، تتداركه القلوب بكثير من الألم، وقليل من الرأفة

تستمر أم تتراجع؟ تواجه أم تهرب؟ كان هذا خيارك ولكن قد فات أوان الاختيار وأصبحت مواجهًا لا محالة

(٢٣)

مملكة الظلام

اضطراب مزعج، أصوات العويل في كلّ مكان، أصوات ساخطة تعلو، تطالب بموت ناردين ابنة الملك المخلوع العاصية، سبب هذه الهزيمة الساحقة، انقسم الأهالي قسمين؛ قسم يهتف باسم الملك الجديد رائف الذي انهزم أمام الابنة الطائشة للملك المخلوع، التي أحبت بشريًا، ملقية بأحكام المملكة في بحر لُجّيّ مظلم، ملقية برعاياها إلي جحيم الفقد وعذاب الوداع، وقسم آخر منهم من كان يكره هذا الملك بتجبره وظلمه مطالبين بعودة حكم الملكة زمردة زوجة الملك نائل المخلوع، العادلة الحكيمة السخية الودودة، كانت نقطة ضعفها الوحيدة هي ابنتها التي كانت دائمًا متمردة، متطلعة إلي عالم ليس لبني الجن حياة به إلّا ونهايتها العذاب والحرق أو السجن بداخل جسد بشري لا يسمو لسمو الجسد الجني الناري العظيم، الذي له قدرات خارقة ليس لبني الإنس أيٌّ منها

ولكنها جهلت مخططًا يحاك لها من خلف الستار، انقلاب يدبر من ابن أخي الملك نائل، هذا الشاب السكّير الظالم والذي جمع جزءًا من الجيش وواجهها بالشعب، وفضحها

أمام الجميع، وفضح غرامها الخفي مع بشري تأمل في أن يرضخ لها ويأتي إلى هنا ليتقلد مقاليد الحكم ويحكم المملكة، وتستطيع أن تكون الأولى في عالم الجن التي تجعل بشريًا يترك جسده ويطلق لروحه العنان لتستقر في مملكة الظلام لتحكم الجان، وفضح تعاونها مع ابنتها في ذلك لتفعل هي ما أخفقت فيه أمها، وهي مَن هرّبتها من السجن وجعلتها تظهر لحبيبها وتكشف لها عن أسرار هذا العالم، فانقلب عليها الجيش، ولكنها نجحت أن تهرب، جهل الجميع مكانها، اختفت عن الأنظار في ثوانٍ، هربت وسكنت العالم الآخر

الآن حدثت الكارثة وتضارب أبناء الجنس الواحد والشعب الواحد وتحاربا وقتل بعضهم بعضا، أيّ فتنة حلت على هذه الأرض؟ وأي بلاء نزل بهم؟ فالجراح تتزايد، والعذاب يتضاعف، والألم يغور ويغور بداخل الجسد المصاب، حتّى تصدع الجسد وانهار، فالجسد المنهار المفككة أوصاله المشتتة جوارحه، يكون عرضة للانقسام والانهزام، ويتلذّذ بمذاق انهزام البطون الجائعة

ولذلك أبت الملكة زمردة أن تترك شعبها ينقسم، فمنذ هروب الملك رائف بجسد الطفل الصغير، عرفت أن مملكتها بحاجة إليها، وقد آن أوان استعادة الحقوق المنهوبة، فبعد أن تركت ناردين بجانب وحيد تطيّب جروحه وتحميه من شر

رائف وأعوانه، أسرعت هي فدخلت وجيوشها متخفية، وهي تعرف جيدًا حالة الهرج والمرج التي تصيب المملكة، وحالة الحزن والانقسام التي تصيب الأهالي، قبل أن يذهب رائف ويثير وينشر الأكاذيب في المملكة، وبالفعل قام أحد الجنود بنشر الأكاذيب، وبدأت حربًا صغيرة لتزيل عوائق الملك رائف قبل أن يأتي، ولكنها فشلت سريعًا عندما شعروا بحصارهم من قِبَل جنود الملكة زمردة، وخروجها من بوابة القصر، حاملة سيفها وأمامها صفٌّ من الجنود لحمايتها

صمت الجميع وتوجهوا لسماعها:

- أيتها الأمة اثبتوا، وأنصتوا، وتبينوا، فإن الفتنة تزحف بينكم، وتنشر سمومها فيكم، لتذيقكم كثيرًا من الألم والضعف والوهن، فأنتم الأمة التي تباهت بها الأمم من حولكم، فلا تنقسموا واطردوا عدوكم، ولا ترضخوا لمن ظلمكم وسرقكم وأوهنكم، هذه الجنود الساقطة أمامكم هي من خانتكم، من دخلت بيوتكم فسَبَتْ نساءكم وبناتكم، هذه الجنود من كانت تعذبكم بالماء لتدفعوا الضريبة المضاعفة، اعقلوا، فما أنا إلّا منكم، وما أحلامي إلّا لكم، اطردوا عدوكم وعودوا كالجسد الواحد، وأعيدوا هذه الثعابين إلي جحورها مدحورة مهزومة، أما أنا، فأنا أمامكم، حكمكم بي عادل، وقراركم معي صائب، إن قبلتموني فلكم مني العدل

والحماية والسلام، وإن رفضتموني فلكم مني التسليم، ولكن توخوا الحذر في اختياركم، فأنتم أعز من أملك ولن أرضى ظلمكم لأنفسكم

خيم الصمت على الجميع وسادت الهمهمات الجانبية، ولكن علا صوت أحدهم مذكرًا الجميع بالفتنة:

- أنتِ من كنتِ تعاونين البشر علينا وتريدين أن يترأسنا بشري من طين

علت من جديد هتافات الرفض وصيحات الكره وما زالت الثعابين تصدر فحيحها وتأبى أن تنهزم

قالت الملكة زمردة:

- لا أعرف عنكم أنكم شعب ضعيف، أنتم الشعب القوي الذي إذا أراد سيفعل، لن يتملككم من لا تقبلونه ملكًا، ولن يتسلط عليكم أحدٌ بسلطة زائفة أو يتغلب عليكم حاكمٌ ظالمٌ، ومهما سكتم في النهاية ستخلعونه كما خلعتم مِن قبل الملك نائل

خيم الصمت ثانيًا، يفكر الجميع في الأمر، ولكن قبل الهتاف لها بثوانٍ خرجت هي عن صمتها وقالت:

- قبل أن تدلوا برأيكم انتظروا لتروا ماذا أحضرت لكم

أمرت الجنود فأفسحوا لها الطريق، فظهرت جلية أمام الشعب و بخلفها صناديق من المال كانت مخبّأة في القصر دليل على جحود الملك وسرقته لأموالهم

- هذه الأموال أموالكم، والآن قد أعيدت إليكم، وافقتم بحكمي أم لم توافقوا فهي لكم،

وأمرتْ الجنود فوزعوا الأموال على الجنود، وكانت في أكياسها لم تفرغ بعد، وعليها أسماء العائلات كتقليد أساسي لدفع الضرائب

صاح الجميع وهلل وهتف باسم الملكة زمردة وحكمها العادل، وانفضّ الجمع بعد أن قادهم العقل إلى برّ الأمان وشاطئ العدالة والسلام

***

اختفت ناردين لأيام في جسد وحيد، وأعلمته أن هذا التلبُّس لأيام فقط، ولن ترضى له بآلام التلبس وحيرته، كانا بقصر الإسكندرية، قصر الإقامة مع المكلومة التائهة كاميليا

شعر وحيد تجاه ناردين بألفة وانجذاب جاء من واجبه لردّ جميلها لحمايته من موت محقق له ولكاميليا أخته التي أصبحت تعرف أنها ليست أخته، وأصبحت ناردين لوحيد الأمان والشورى، فاتفق معها أن تكون مرئية له ولكاميليا

حتّى يكون براحته في التعامل معها

الخيار صعب بالنسبة لها، فهي إما أن تتعامل بروحها فتتلبّس الشخصيات وتتحرك من خلالها، وجسدها يكون محفوظًا بهيئته الأصلية وتكوينه، وتكون بين العالمين تتجول كيفما تشاء لعالمها، وهذه الحالة هي الأسهل والأكثر أمنًا لها من أن تجعل جسدها يتشكل وتظهر للبشر بشكلهم وهيئتهم، وهذا يسمى عندهم تجسيدًا، وهذا التجسيد يحتّم عليها التخلي نهائيًا عن عالمها وقت التجسد، وعدم الاتصال بهم إلّا بإلقاء تعاويذ معينة، وستكون ذات قوة أضعف من القوة المتلبسة، ولكنها وافقت، فهي في الأساس منفصلة عن عالمها وجعلت عالمها هو وحيد وحمايته، ولكن كان يتوجب عليها الوداع أولًا، ولكن كيف لها أن تتركهم ورائف طليق يتجول في الأوساط لينتقم من وحيد؟

كان الحل الوحيد أمامها هو تحصين المنزل بتعاويذ الحماية لوحيد وكاميليا، حذرت وحيد من الخروج خارج المنزل حتّى يكون محميًا مؤقتًا حتّى تعرف ماذا حدث لرائف والطفل .

***

دخلت ناردين المملكة متخفية بعدما علمت مسبقًا بخطة أمها لإعادة ملكها المسلوب، الأحوال هادئة، المواطنون

سعداء، الأحاديث تتطاير من الأفواه بعودة الملكة العادلة للحكم، والأموال المهداة لهم من قبل الملكة كانت محلّ فخرهم وفرحتهم بها، فرحث وتهامست في سرها:

- دائما يا أمي أنتِ القوة المستترة خلف ضعفي وأنتِ البسمة المستترة خلف دمعتي، وأنتِ الطريق الموجه لحيرتي.

وبطريقتها المعتادة في التخفّي دخلت قصر أمها، لا بل تخفّث لتصل إلى غرفتها، والتي دخلتها بدون استئذان كعادتها، فوجدت أمها في وضع لم تتخيل رؤيتها عليه، وقفت في ركن بعيد مخطوفة البصر تكاد تنهار من الصدمة، انتظرت حتّى أفرغت أمها عملها واستدارت لتجد ابنتها في هذا الحال تقف تنظر لها باستغراب شديد غير متفوهة بكلمة، أسرعت فتكلمت الملكة زمردة:

- لن تغيري طبعك أبدًا يا ابنتي، أهذا ما علمتك إياه؟ ألم أعلمك أن الاستئذان روح المعاملة؟

سألتها ناردين بوجوم دون سلام أو تحية:

- لماذا لم تخبريني من قبل؟

قالت أمها وهي تخلع حجابها وتطوي سجادة صلاتها:

- ألم تلاحظي يا ابنتي أني لم أجتمع معك منذ فترة؟ إما بالحروب أو في العالم الآخر، وأني منذ زمن هاربة ولم أرك؟

ضحكت ناردين قائلة:

- بلى يا أمي هذا صحيح، لقد اشتقت لكِ كثيرًا، أين كنتِ؟ بحثث عنكِ ولم أجدك

قالت الملكة زمردة:

- كنت في بلد الحرمين، أغسل ذنوبي وأتوب ممّا مضى، ولذلك أتيث ناوية إصلاح ما أخطأت به من قبل، ونشر الإسلام في المملكة

فرحت ناردين بما أخبرته أمها به،لأنها تعلم مدى صلاح قلب أمها ورقته، كانت تشعر باقتراب ميعاد إسلام أمها منذ أن أخبرتها بإسلامها، ورأت في عينها الحيرة من الصمود على دين الآباء والأجداد أم تحكيم العقل والأخذ بالأصح والأنسب والأحكم، سألت أمها عن رائف وهل هي مستعدة لما سيفعله لها من مصاعب عند معرفته بتوليها العرش من جديد:

- كيف لكِ يا أمي من إعلان خبر إسلامك وأنت تعلمين مدى تعصب أمتنا لديانة الأجداد؟ أعتقد أن رائف سيأخذ عليكِ هذا التصرف وسينقلب عليكِ ثانية

قالت الملكة:

- لا تنشغلي بي يا ابنتي فقد خططت لهذا الأمر جيدا

اقتربت منها ناردين وقالت:

- كيف لا أنشغل بك وأنت كلّ ما أملك في الحياة؟ هذا الأمر ربما سيصل بكِ إلى الإعدام يا أمي

قالت الملكة:

- يا ابنتي، لقد تعلمت من الإسلام الحكمة وحسن التخطيط، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام عندما جاءته النبوة كان في مجتمع مشابه لمجتمعنا، فبدأ أولا في الخفاء يحارب الأفكار المغلوطة ويصححها تصحيحًا منطقيًا، خاطب العقول قبل الأجساد، خاطب الجميع بأخلاقه الحسنة وصدقه المعهود لديهم، فصدقه من صدقه وسار معه من سار، وتولى عنه من تولى، لم يختر القوة إلّا في النهاية مع ذوي العقول الغليظة والقلوب الجاحدة المهاجمين له، وأنا سأسير على نهجه يا ابنتي، لقد تعاون معي بعض الأصدقاء المسلمين الذين أتوا معي، ووافقوا على العيش معنا وسيساعدونني على إتمام هذا الأمر

ابتسمت ناردين وحضنت أمها وهي دامعة:

- وفقك الله يا أمي وأعلى شأنك، أمي، ألم تتوصلي إلى مكان رائف الآن ومكان الطفل؟

تحدثت الملكة مطمئنة البنت:

- بلى يا ابنتي توصلت له، الطفل عند أهل أبيه، ليس بعيدا عن قصر كاميليا، ورائف ما زال داخله مستكينًا منتظرًا الهرب بالطفل خارج البلاد، يحرض الجميع على وحيد للانتقام منه، فهو الآن السبب في ضياع كلّ شيء منه، كيف لكِ يا ناردين أن تتركي وحيد وكاميليا وتأتي؟ ألم تخافي عليهما من بطش رائف بهما؟

قالت ناردين وهي تقترب من أمها:

- لا تخافي يا أمي، لقد حصنتهما بحصن الحماية الذي تعلمته منكِ، لقد أتيت لسبب آخر أريدك أن تساعديني فيه

استفهمت الأم برأسها، تمسكت ناردين بيد أمها وأجلستها على حافة سريرها وتوجهت بوجهها لها وقالت:

- سأشتاق إليكِ يا أمي

وخفضت ناردين رأسها وقالت:

- إني آتية لتوديعك يا حبيبتي

قالت الملكة وهي مقطّبة حاجبيها:

- لماذا تودعينني يا ناردين؟ إلى أين ستذهبين؟لا تقولي إنك... !!

أومأت ناردين رأسها بأسف:

- طلب وحيد مني التجسد، ووافقتُ على طلبه، لأنه الحل الوحيد لتقربي منه، علّه يحبني في النهاية، وأنال في النهاية ما حلمت به

انتفضث الأم واندفعث لتستقيم من جلستها، تجول ذهابًا وإيابًا، وهي تردد:

- هذا خطئي من البداية، هذا خطئي

سألتها ابنتها:

- ماذا بكِ يا أمي؟ ماذا حدث؟ لماذا أرى كلّ هذا الغضب الذي يظهر على وجهك؟

وفي النهاية استقرت الأم ثانية بجانب ابنتها بقلة حيلة وانهزام:

- كان يجب أن أخبرك من البداية

- أمي أرجوكِ لا تقلقيني أكثر من هذا، أخبريني وأطفئي النار التي أوقدتِها بمظهرك هذا

كانت ناردين شاخصة البصر لأمها، معيرة كلّ انتباهها لتفهم ماذا حدث لها فجأة، أومأت برأسها بالإيجاب، فبدأت الملكة زمردة بالإدلاء بدلوها، فأقسمت ناردين على السمع والطاعة لملكتها وأمها قبل كلّ شيء:

- كنتُ صغيرة، نسخة منك أعشق عالمي ولكني متطلعة للعالم الآخر، أحببتُ إنسيًّا، عشقته وعشقني، بادلته الحب وبادلني الهيام، حتي وقع ما كان من المفترض ألّا يقع وحملتُ منه، حاربني أبي، وقاطعتني أمي، وعشت منبوذة من عشيرتي، فهربتُ منهم وهربتُ منه حتّى لا يؤذَى بسببي، وسجنتُ نفسي في بيت صغير على الشاطئ، وحصنتُ نفسي بحصن الحماية، وأقسمتُ ألّا أترك ابني ليأخذوه ويقتلوه أو يسخروه لهم فيكون مدخلًا لهم لعالم البشر، حتّى سكن هذا البيت صيادٌ وزوجته، اعتزلتهما وكنت أتجنب أذاهما، حتّى حملت الزوجة، وتصادف يوم ولادتها مع لحظة ميلادي لابني، كنت أستمدّ من صرختها قوة لولادتي، كنت وحيدة متألمة، تشابه ابني إلي حد كبير مع ابنها، وحدث ما تمنيته دائمًا، أن تسود جينات الأب على جيناتي، ليكون مرئيًّا للبشر ويشبههم، وهذا ما حدث، ولكنه يجذب الجانّ إليه ببعض الجينات التي اكتسبها مني، فهو نصف بشري ونصف جنّيّ، وبحيلة مني أوهمتُ السيدة التي تلد أنها أنجبت توأمين، وتركته لهم بعد تحصينه

تساءلت ناردين:

- ولماذا لم يأخذه أبوه؟

جاوبتها الأم بأسى ظاهر على وجهها:

- مجتمع الأب كان سيرفضه، وينعته بأسوأ الصفات، وكان سيعاني في حياته مما سيؤدي إلى إظهار طاقة الظلام التي بداخله، وتجعله إما أن ينقلب على جنس البشر، أو سينقلب على جنس الجان ويبقى منهم، وحينها سيقتل أوسيفعلون معه ما لا يحمد عقباه

بلهفة من ناردين أسرعت تحُثُّ أمها على الحديث لتعرف ما حدث بعد ذلك، لأن بداخلها ولد إحساس تريد أن يكون كاذبًا، فأكملت زمردة:

- أخبرتُ والده بمكانه، وتركته وذهبت بعيدًا تاركة قلبي عنده، وسلمتُ نفسي لأبي لأني بالتأكيد لن أستطيع التخلي عنهم وتركهم، زوجني أبي بنائل أبيك، ولكنه أخبره بأمر ما حدث معي، فكان فظًا غليظ القلب معي، ما أحببته أبدا، كنت دائمًا أصلي للرب كي يحمي ابني، ولكن ابني خُطف من الصياد بعد ساعات من ميلاده من قِبَل القابلة التي كانت مأجورة من أمٍّ كانت تريد الصبيّ لزيادة رصيد أطفالها، ولأن الصبي هو العزة للأزواج والزوجات، في ذلك الوقت انتقل

ابني إلى إحدى القرى البعيدة عن البحر، وكنتُ قد علمت ذلك لأني كنت أعمل مع إحدى مشعوذي هذه القرية مثلك يا ابنتي

وضعت ناردين يدها على فمها وهي تصدر صوتًا لشهيق لم يخرج زفيره:

- وحيد يا أمي !!

صمتت الأم لثوانٍ، وبعدها أومأت برأسها:

- نعم وحيد يا ابنتي، وحيد هو أخوكِ وابني، كلّ ما حدث معه كان بسببي وبسبب ما تركته بداخله من جينات تفتح عليه أبواب الظلام بعدما نما النور بداخله وكان لا يصلح للعيش معنا

- ولماذا لم تخبريني بهذا من قبل وأنتِ تعلمين أني مغرمة ببشري؟

- لم أكن أعلم يا ابنتي أنك مغرمة به إلّا يوم المعركة

- ومن أخبرك بالمعركة يا أمي؟

- والده هو من أخبرني لأنه كان يعرفه ويراقبه ويعيش بجانبه، أبوه أيضًا كاشفٌ لجزء من عالمنا، وكان يرى تسلط رائف على أندريه، وما أخاف منه أن يعلم رائف أن وحيد

ابني فيسلط عليه عشيرتي

كانت دموع ناردين تكوي قلب أمها وتظهر لها ألم ابنتها وانهيارها، حياتها وأحلامها ضاعت هباء، فوحيد العشق أصبح الآن وحيد الأخ، وحمايته أصبحت واجبة، وابتعدت كلّ البعد عن فكرة اجتماعهما كقلبين محبّين، تاهت المشاعر وتلاطمت وتضاربت واختلفت الآن، هل تتركه و تذهب لتبحث لها عن حبيب؟ أو حتّى تكره العالم الآخر وتبقى في عالمها لتبني أسرة وعائلة وتتبع أمها وتساعدها في العرش؟ كانت ستتجسد وتعاني آلامه لتنال جزءا من قلب حبيبها، ولكن الآن كيف لها أن تتخلى عن أخيها وهي تعلم جيدًا مدى معاناته مع كاميليا ومدى الخطورة التي تحيط به من كلّ الجوانب؟

كان الصمت سائدًا، ولكن قاطعته زمردة طالبة من ابنتها البقاء وعدم الذهاب، فهي تعلم آلام التجسد، وكيف يعاملك البشر كأنك مثلهم، تريد أن ترى ابنتها عروسًا وترى أبناءها، هي بذلك قد دفنت نفسها بداخل جسد طوال حياتها

انتفضت ناردين وجالت بالغرفة ذهابا وإيابا، أمسكت برأسها وضغطت عليه بقوة وهي تردد:

- لا أصدق ما أسمعه

ثم توجهت لأمها بصوتها المختنق وأصدرت أحكامها:

- كيف لي أن أصفك بأمّ بعد كلّ هذا؟ كيف لكِ أن تتركي ابنك يتعذب ويتألم ويتوه؟ وأنتِ هنا تتزوجين وتنجبين وتحبين؟ كيف لأبيه هذا أن يتركه وهو يرى ألمه ولعنته وغربته بداخل نفسه؟ كيف تأمرينني أن أتركه مثلكم؟ كيف أتخلى عنه؟ كيف وهو الآن بداخل النار وتحفّه جميع المخاطر بسبب جيناتك التي بداخله؟ وأنا كنت أسأل نفسي: لماذا أنجذب له هكذا؟ لماذا من دون رجال الأرض أسعى إليه؟ لن أتركه مثلكم وسأضحي بعمري من أجله، سأكون هناك معه، وسأكون له الفداء، فإن لم يكن حبيبي فهو أخي، وإن لم يكن هذا وذاك فهو روح عُذبت بسبب تهوركم وعدم مسؤوليتكم، يكفي هذه الروح العذاب التي عاشته بسببكم، سأكون بجانبه، تبًّا لعالمكم وعالمه، وسأعيش معه بصفاء الحب الأخوي البعيد عن أي شهوات لن تنجب إلّا مزيدًا من الأرواح المعذبة

صرخت بها زمردة:

- لا تظلميني يا ابنتي، فأنا مظلومة مقهورة معذبة، لا تعلمين كم قاسيت من تبعات ما حدث في الماضي

- لا يا سلطانتي المبجلة، أنتِ ظالمة، كان بإمكانك أن تكوني بجانبه ولا تتركيه، تحميه من لعنات أصابت حياته،

عذاب نهش كلّ ذرات الحياة بداخله، أنا أعرفه جيدًا، عشت بداخله ورأيته كيف يعيش وحيدًا مغتربًا تائهًا غارقًا في بحر الظلام ويسبح وحيدًا، مَن أحبها لا يستطيع البوح لها عن حبه، ومجبرٌ على العيش معها بمشاعر نقية خالصة من أي شهوات، ومن أحبته وتتعذب من أجله حُرّمَت عليه وأجبرت أيضًا على العيش معه بمشاعر صافية نقية، دائرة من الحيرة والعذاب وُضِعنا بها بسببك وبسبب أنانيتك وطمعك في السلطة، أنا الآن ذاهبة لأخي تاركة لكِ كلّ شيء، تمتعي كيفما تشائين، ولكن تذكري أن ولديكِ مغتربان في عالم غير عالمهما، مشردي الروح

وقبل أن تذهب ناردين من الغرفة صاحت بها أمها:

- لأين تذهبين؟!

تهكمت عليها ابنتها بأسلوب ساخر:

- سأغرق في نهر الأرواح

خطَت الملكة خطواتها تجاه خزينة ملابسها، وأخرجت من بين ملابسها قارورتين صغيرتين مخبأتين تحويان سائلًا فيروزيًا، تركت قارورة عمدا والتقطت الأخرى وتوجهت لابنتها:

- لا تذهبي إلى هناك لكي لا يكتشف أمرك، هذه ستكفيك

تصلّبتْ ناردين مكانها وهي تنظر لامها:

- كنتِ تعرفين

أومأت الأم برأسها:

- كنت أعلم أنك ستطلبينها يومًا ما، أعرفك يا ابنتي وأعلم كم طاقة الخير التي بداخلك، كنت اخبئها ليوم كهذا، احمي نفسك جيدا واحتفظي بالقليل ليوم تريدين به العودة لوطنك، ولكن سأطلب منكِ طلبًا أخيرًا

انتبهت لها ناردين بعد ان كانت تخبئ القارورة بملابسها:

- لا تخبري وحيد بمعرفتك حقيقته، هو سيعلم في الوقت المناسب

***

النغمـــة الحــاديـة عشـــرة

العـــزيمـــة

عصف من الأهداف، وريح من المعطيات، تبديل للاحتمالات، ينتهي باختيار يمثل القرار، الهدف في البداية فكرة عزمت على تحقيقها، تحققت أم لا هذا يعود لك فعندما تمتلك القوة ستكون قد امتلكت الفكرة

(٢٤)

رومـــــــــا

١٩٩٦

وللمرة الثانية أو الثالثة، لا أدري كم عدد المرات التي استيقظتُ فيها لأجد مالك ينام على يدي، وهو ما زال مغبرًا غبرة الرحلة الشاقة، نظرتُ حولي لأتيقن بأني بالمشفى، مكان إصابتي يؤلمني، وجسدي كله منهك، حركتُ أصابعي التي أصابها التيبس من طول فترة تشبث مالك بها، وما إن حركتها حتّى استيقظ وهو منتفض يصرخ باسمي: رقية، رقية

نظرتُ له بانزعاج:

- اهدأ يا مالك، أنا بخير، لماذا كلّ هذه الانتفاضة؟

ظهرت يده الأخرى فتبين لي وكأنها جبست أو ضمدت بجبيرة من الشاش، فطمأنني عليه وحكى لي ما حدث بعد إغمائي:

- كنا قد رأينا رأفت واقتربنا من الوصول له، ولكن سقوطك جعلنا ننتبه لكِ، فتوقفنا عن الركض وتأخرنا، فبلغنا الانهيار

الأرضي وسقطنا جميعًا بباطن الأرض وسقطت علينا بقايا حجارة، ولأن رأفت قد رأى ما حدث لنا، فقد طلب النجدة سريعًا، وحدث أن أنقذونا في وقت قياسي، سقطت صخرة على يدي ليست بالكبيرة لتهشمها، حدث كسر رُدّ وجُبّس، وماهر أيضًا حدثت له كسور ليست بالقوية ولكن أنتِ من كنتِ بخطر، فقد ازداد جرح بطنك، وقد خضعتِ لعملية استغرقت ست ساعات، يحاول فيها الطبيب إنقاذ ما يمكن إنقاذه ولكن..

صمت مالك فقلقت رقية قلقًا شديدًا، ومدّت يدها إلى جرحها لتتحسس جحمه، كان ممتدًا من منتصف بطنها حتّى الجانب الأيسر منها، فقالت له بلهفة:

- ولكن ماذا يا مالك؟ لا تقلقني

- ولكن اضطر الأطباء لاستئصال المبيض الأيسر، لأنه أصيب بالجرح وبدأ في التليف، وإن كنا أبقيناه لتستيقظي كان سيتسبب في إزالة الجهاز كاملًا

كنت أسمع ولا أصدق ما حدث لي، في غمضة عين كنت سأموت وفي غمضة أخرى كنت سأتسبب بموتهم، والآن أنا من خسرت، خسرت جزءًا مهمًّا منّي يتمثل به مستقبل المرأة كامرأة تنجب وتتحلّى بأنوثة متكافئة الهرمونات غير منقوص منها شيء، وكان الوجوم سيد الموقف، مشاعري

خالية من دموع أو آهات، لا أعرف خبرًا كهذا يسقط كيان أيّ امرأة مكاني، ولكن كلّ ما أشعر به هو نار تأججت في جسدي كله ووجوم في مشاعري، شعر مالك بحزني فحاول طمأنتني فقال:

- لا تحزني يا رقية، لقد طمأننا الطبيب وقال إن هذه العملية لن تؤثر أبدًا فى حياتك، فهي مثل من يعيش بكلية واحدة، أنتِ تستطيعين ممارسة حياتك بمبيض واحد

تفوّهتُ أنا بالحمد والشكر لله، ولكن كلّ ما خطر على بالي الآن أمي وحالتها إذا علمت بما حدث، فسألت مالك:

- هل لأهلي علم بما حدث معي؟

قال مالك:

- نعم كان من المفترض التواصل مع ذويكِ المقربين وإرسال الهوية لأبيك حتّى يتم عمل العملية على مسؤوليته الكاملة، لقد رفضوا أي ضمانات منا وخصوصًا أنه ليس هناك أيّ قرابة بيننا وبينك

سألته عن حالة أمي فحاول طمأنتي:

- لا تقلقي يا رقية هي بخير، بالطبع حزينة عليكِ، وقلقة عليكِ جدًا وحتى أنها منتظرة سماع صوتك بلهفة، سأتصل

بهم حالًا لتطمئني

وبعد الاتصال وسماع صوت أمي المتماسك وأبي الذي تختبئ دموعه خلف ارتجافة نبرة صوته أغلق الخط، لأنهار دامعة مرتجفة، وقولٌ واحد هو ما أخرجه فمي:

- أريد أمي وبشدة

اقترب مالك مني وربت على كتفي:

- لا تقلقي يا رقية، سترينهم قريبًا جدًّا، وأول ما يكتب لكِ الطبيب على الخروج والسفر سنعود حالًا إلي برلين ومنها إلى مصر

غلبني فضولي فسألته:

- أين ماهر يا مالك؟

- لا أعلم، فبعد خروجه من الغرفة التي حُجز بها للمداواة، ذهب للفندق ليغير ملابسه ويستريح، وكلما أطلبه أجده نائمًا، وعندما أستطيع إيقاظه يستيقظ ليسأل عنك وينام ثانية

جاوبته بمحض معرفتي الطويلة به:

- هذا هو ماهر عندما يريد التهرب من شيء يزعجه، دعه سيعود، ألم يحكِ ماذا حدث معه بداخل الغرفة؟

قال مالك:

- لا يا رقية، انشغلنا بكسورنا وبك، وعندما سألته تهرّب

لم يتركني مالك أبدا منذ ما حدث لي، وعندما علم ماهر بأني استعدت وعيي حضر ليطمئن علي، تركنا مالك وخرج ليسأل الطبيب عن موعد خروجي وسفري، حاولتُ أن أداعب ماهر بقليل من الذكريات ليخرج من حالته المتمثلة بشعر لحيته التي لم أرها بعمري إلّا عند غضبه الشديد، سألته:

- ماذا بك يا أخي؟ ماذا حدث لك بالداخل؟ وماذا يحدث لك ولا تخبرني به؟

زمجر وغضب وقال:

- ألم أقل لكِ من قبل إنني لا أخفي شيئًا؟ دعيني وشأني

فرددتُ عليه بتعجب:

- ماهر، سلامتك يا أخي أنا لم أسألك من قبل، وأنت لم تخبرني ماذا حدث لك بالداخل!

دخل مالك على صوت ماهر ليُهَدّئ الوضع ويرى ماذا أصابنا، لم يسمع صوت شجارنا من قبل، وعندما اطمأن عليّ، وجه حديثه لماهر:

- ماذا بك يا ماهر؟ وجهك ونظراتك مختلفة، ماذا حدث بالداخل لتخرج هكذا؟

امتقع وجهه وزمجر وصاح بنا:

- أخبرتكما قبل ذلك بما حدث، وجدتُ المسدس على الكرسي، وعندما فشلتُ في الخروج صوبتُ على قفل الغرفة وخرجت، لم أحدّث أحدًا ولم أر شيئًا غير هذا

أقبلت علينا ممرضة لتنبهنا ّأن الصوت مرتفع ويزعج المرضى، فصمتنا جميعنا في لحظة تأمل لما يحدث بيننا، بداخلي أنا ومالك شكوك تأكدت بأن ماهر يخفي علينا شيئًا عظيمًا

أخمدت بداخلي نار الثأر والخوف والريبة من الكتاب وصاحبه، وأصبح الوضع مجرد لغز تائهون بمتاهته، وسنصل إلي الحل تدريجيًا، ولكن كلّ ما كان يشغلني هو ماهر وحالته المفاجئة، هل هذه الرحلة ستكون هي الفيصل لعلاقتي مع ماهر؟ أصبح خوفي من ماهر الآن بعدما كان هو ملاذي، وتبدلت الأدوار ليصبح المجني عليه مكان الجاني والجاني هو من ظُلم في البداية

وقبل سفرنا بيوم كان لا بد لنا من معرفة محطتنا التالية مع الكتاب، من أين؟ وإلى أين؟ وماذا سيحدث بها؟

اجتمعنا في غرفة المشفى، ووضعنا الكتاب على منضدة صغيرة موجودة في الغرفة، ولأننا علمنا سرّ الكتاب، وأن قانونه " القوة والسلامة في الوحدة"، وضعنا أيدينا على الكتاب من جديد، ففتح بنفس الطريقة السابقة، اختفت صفحة قصر الحنين نهائيًا وظهرت مكانها خريطة عرفها مالك جيدًا وعلم أنها في برلين، وعندما تبين له المكان قال إنها في حي فقير في برلين، كانت المرحلة باسم بيت الأحزان ظهرت الحروف تدريجيًا كما حدث بالسابق، لتكشف عن لغز جديد يثير فضولي لمعرفته

" آهات، صرخات، ودموع إهانة وعذاب، لحظات سُجّلَتْ ودُوّنت لتهدي كلّ ضال، وتوجه كلّ تائه، صور تطايرت من صندوقٍ دُفِن بركن خفيّ، يستدل عليه العارفون، فالوصول يحتاج لروح سامية، سموّها ينبع من صدقها، ينادي عليها في الخفاء، تلبي النداء في العلن "

كان الغريب في اللغز ليس اللغز نفسه، فقد فهمتُ أن اللغز في صندوق مدفون بهذا البيت، وغالبًا سيكون صورًا، ولكن اللغز الأكبر في الروح السامية، إلى أين سيصل بنا هذا الكتاب؟ ما هي المهمة الموكلة إلينا التي تحتاج كلّ هذا التجرد النفسي؟ لماذا يحاول الكتاب نبش قبور أرواحنا ليحي ما مات فيها؟ الصمت كان الخيمة الوحيدة التي نلجأ

لها ثلاثتنا عندما كنا نعبث في خبايا أرواحنا لنجد معني يلائم رغباتنا، كانت الشجاعة لي في بداية الحديث، كسرتُ حاجز الصمت وثبتت العيون الحائرة لي

- أعتقد أن اللغز هذه المرة سهل، بيتٌ به صندوق وانتهى كلّ شيء، يكفينا أن نعلم أن اللغز في برلين، وهنا تزداد مساحة الأمان لدينا، لأنها تعتبر بلدكم، وأنتم أدرى بها، وإن حدث شيء ستجدون من ينقذكم

تكلم مالك ونظرات القلق جليّة على وجهه:

- الأمر أكبر من هذا يا رقية، ما يقلقني الآن ارتباط اللغز ببرلين، وهذا معناه أنه له علاقة مباشرة بي أو بماهر، لأنها متواجدة بمكان إقامتنا والمكان الذي وجد الكتاب به، وهذا يعطينا الجواب الأكيد لأسئلتنا أن ما نحن به مُدَبّر ونحن المقصودون به، ولم ولن يتكرر مع غيرنا

ضحكتُ بسخرية:

- ما زلتَ غير مصدق أننا المقصودون بحلّ لغز هذا الكتاب، وربما كتب هذا الكتاب لنا بالأخصّ، الأمر له علاقة مباشرة بي وبك يا مالك، ولكن لا أعرف ما علاقة ماهر بهذا اللغز

صوّب ماهر لرقية نظره، وفجأة أخرج طلقته:

- خطئي الوحيدة أني أعرفكم

تبادلت نظرات الاندهاش مع مالك، وقال مالك له:

- ماذا تقول يا ماهر؟ هل أنت مدرك ما تهذي به؟

نظر له ماهر ببرود:

- نعم أنا مدرك كلّ ما يقال، لولا حبي لرقية، ما كنتُ تكلمتُ أنا ووالدها مع مديرها لتسافر هذه السفرة، لأسهِّل اجتماعها بك لترتبطا، ولولا حبي لك ما كنتُ تركتها كلّ هذه الفترة لتنتقل لبيتك وتكتشف سر هذا الكتاب، حبي لكما هو ما جعلني الآن أترك بيتي وابنتي لأتوه في متاهة ليس لها مخرج

سقط الحديث على رقية ومالك كالصاعقة تزلزل كيان من تسقط عليه، تفوهت رقية وكأنها تغرق وتريد النجدة، جاء صوتها ضعيفًا بعيدًا تائهًا:

- أتعني أن كلّ ما حدث من البداية مدبر؟ وأن مديري أرسلني بتوصية منك ومن أبي؟ وليست كفاءتي هي من جاءت بي إلي هنا؟

قال ماهر:

- لا، أنا من أتيت بك إلي برلين وأبوك من ساعدني

صرخ به مالك:

- اصمت يا ماهر، اصمت، ماذا أصابك؟ ماذا تقول الآن؟ ولماذا تزيدنا إرهاقًا وحزنًا؟ لماذا تثير الفتنة الآن؟ ألا ترى مرض رقية وحيرتنا؟

باغته ماهر بأسلوب متهكم:

- كلّ ما يهمك الآن هي رقية، أنا ما عدت موجودا بينكما، لا تغضبا، ما أردت من هذا الحديث إلّا أن أخبركما كم أنا أفكر بكما، وأبين لكما أنه ليس منكما أحدٌ سيخسر بقدر خسارتي في هذه اللعنة

هتف به مالك:

- ماذا ستخسر؟ ولماذا؟ صارحنا يا أخي بكل ما حدث وبكل مخاوفك لنحاول تلافيها معًا أو حمايتك منها

نهض ماهر وخطا خطواته إلي الباب وقال:

- ما من شيء مهم، أنا لم أخسر إلّا نفسي

مرّ يومان جهزتُ فيهما حقائبي، ولملمتُ بقايا صحتي، وعلمت من مالك أننا أصبحنا مشهورين بروما (بأبناء الرب الذي أنقذهم من تحت الأنقاض)

وتوجهنا ثلاثتنا للمطار مودعين أيامًا بقدر صعوبتها علينا

إلّا أنها تحمل عندي ذكرى أيام ستخلد في ذاكرتي للأبد، وصلتُ برلين التي أصبحت بالنسبة لي أمانًا نسبيًا، مدينة أُهَيًّا للعيش بها، توجهنا إلى منزل ماهر، كنتُ عاقدة النية أني سأنتقل إلى الفندق لأقيم به بقايا أيامي هنا، فما عادت علاقتي بماهر تستدعي استقراري في بيته، الوضع أصبح مرتبكًا بيننا، ولا أريد خسارة ما تبقى له بداخلي

ولكن عندما تضَيّق عليك الدنيا دروبها، تتسع لك رحمة الله وتلمس يده كلّ حزن بداخلك لتبدله لفرح من حيث لا تحتسب، دخلنا إلي منزل ماهر، كان مظلمًا ظلامًا تامًّا، صامتا وكأنه خالٍ من ساكنيه، توجه ماهر لإضاءة الأنوار فوجدتُ ما كنت لا أحلم بوجوده، وقد فعلها مالك ليسعد ما أحزنته الأيام الماضية بداخلي

لقد كان أبي وأمي وزوجة ماهر وابنته بانتظارنا، صرختُ صرخة اشتياق بمجرد رؤيتهم، واندفعت نحوهم أحتضنهم، وبعد ما كنت مستندة على مالك وماهر من إثر العملية ومرضي، سارت العافية بجسدي بمجرد رؤيتهم، بكاء أمي وأبي وأنا بين أحضانهما كان له مذاق آخر بعيد عن أي اندفاع شبابي لقضاء مغامرة وفك ألغاز ليس لها في قاموس الآباء معنى غير التهور، دموعهما كانت تفي بأني عندهما أهم من أي شيء آخر، وغلاوتي عندهما لا تقارن بشيء، هذا هو

إحساس الأبوة.

ضحك وجهي، فبالطبع ضحك وجه مالك والذي أظنه لا يضحك، وضحك وجه ماهر بعد ما ظننتُ أنه ترهّب من كلّ معاني السعادة، احتضانه لابنته باكيًا وكأنها ملاذه وقوته وسعادته وحزنه كان بمثابة ألم يشق صدورنا جميعًا، بكيت عندما رأيته وتألمنا جميعًا لألمه، تسامرنا وتعرف مالك وأبي، فكشفث أسرارُ هذا الاجتماع بأن مالك هو من فعلها ليراني سعيدة، هو من اتفق مع أبي وأمي وحجز لهما ليطمئنا عليّ

مرّت ليلتي في حضن أمي وأبي، وماهر في حضن ابنته وزوجته، ومرت ليلة مالك في حضن الألم، في حضن الوحدة التي عادت من جديد

وفي الساعة السابعة صباحا استيقظ البيت كله على جرس المنزل، كان مالك شكله غريب، لم يسلّم حتّى علينا، طلب لقاء أبي في أمر عاجل للغاية، كنت قلقة، ما هذا الاجتماع الذي لا يتأجل لليل؟ هل مالك يخطط مع أبي أيضًا كما فعل ماهر من قبل؟

خرج مالك وأبي من اجتماعهما وعلى وجهيهما ابتسامة رضا وصفاء، وقد طلبني أبي في غرفة منفردة، وسألني هل أنا موافقة على مالك زوجا لي

استغربت وسألته:

- هل كان يطلبني منك يا أبي الآن؟

قال أبي:

- نعم، وقد تلهف لإتمام الزواج سريعًا لأنه يعيش وحيدًا ولا يستطيع الابتعاد عنكِ

تفوهت وأنا أبتسم:

- المجنون !! ما كنت أعلم أنه مجنون هكذا

أبديث موافقتي بخجل، وبعد إعلامهم بموافقتي على طلب مالك، اشترط مالك أن تتمّ الخطبة في نفس اليوم ليلاً، اعترضتُ بالتأكيد، فأنا أعلم رفض أبيه وأمه لفكرة ارتباطه بمصرية، وأنه سيدخل في صراعات هو في غنى عنها الآن، ولكنه أصرّ على الخطبة اليوم

فتمّت الخطبة وتمت الأحداث سريعة، اشترى لي خاتمًا من ألماس خالص، كان أغلى خاتم رأيته بحياتي، كانت سعادة أبي وأمي غامرة، ولكني أنا وحدي من أعلم ما يؤلم مالك ويشرخ كلّ الأفراح في قلبه، وحدته وابتعاده عن أهله هي سبب وجوم وجهه، ولكن في النهاية ضحك وضحكت الأيام لتزيل ندبة وجع ومستقبل ضائع مرهون بلغز مطبوع بين

دفّتي كتاب مدفون به أحلام فتى وفتاة طامعين بمستقبل مضيء بالأفراح، خائفين من الألم والفقد والحرمان.

***

(٢٥)

عـــذاب متبـــادل

أمام مرآة طويلة راقبت ناردين تغيرات جسدها، وهي تتحول إلى هيأتها الإنسية، بعدما ألقت تعاويذها على السائل الفيروزي الذي تتحول به الأبدان الجنية إلى الإنسية، وشربته وتركت جزءا صغيرا منه لحين إشعار أحقية العودة، لأنها تعلم قوانين مملكتها، هي قارورة واحدة لكل مواطن للتجسد والعودة، لا يمكن استبدالها أو تغييرها، وإذا ضاعت سجنت الروح بداخل الجسد الطيني، وحينها لا يمكن عودتها، وفي صندوق صغير خبأت القارورة الفيروزية، وألقت عليها تعاويذ الحماية، لتسجن ناردين بداخله بين قضبان الزمن لا تعلم متى سيفرج عنها، ومتى تعود لطبيعتها، ولكنها الآن أصبحت وئام بكامل إرادتها، وئام ابنة مربية كاميليا التي أتت لرعايتها، ضحت ناردين بقوة روحها النارية واستبدلتها بأخرى طينية هشة لتظهر لحبيبة حبيبها، والذي أصبح أقرب ما يكون لها، حبيب من نوع آخر، قطعة من الروح تتجسد، ودماء متماثلة تتسابق في عروقهما، تعطيها القوة والسند، ستهديه مفتاح صندوق روحها ليمتلكها ويحافظ عليها، فمن ذا الذي يحافظ على الأخت غير العضد المشتد لأجلها؟ تريد أن تصرخ ولكنها حولت غضبها لطاقة

عطاء لا تنتهي لتعوض بها أخاها عمّا جناه من تسلط بني جنسها، والآن وقد انتهت توجعت، تألمت، وفي النهاية تجسدت، وبكت وسقطت دموعها على الصندوق، وتشكلت على هيئة قلبين متداخلين وطبعت للزمن.

سمع وحيد في الخارج أنينًا موجعًا، تناهيد قلب يتألم، فطرق الباب ليطمئن، فسمع الصوت الباكي الغريب يأذن له بالدخول، ليجدها جالسة على الأرض أمام المرآة تبكي وهي واضعة وجهها بين كفيها، كانت غريبة، شعر بُنّي مجعد، وعين مثله واسعة بُنّيّة ورموش ثقيلة، ووجه خمري دائري، جسد نحيف، اقترب وحيد منها فانتفضت، فرفعت يدها ليظهر وجهها الجديد، فابتعد وحيد عنها، فنظرت ليده المرفوعة عنها وكأنها تقول له اتركها فكم تمنيت هذه اللمسة من قبل، نظرت و عيناها الدامعتان تتوسلان إليه لاحتوائها فربّت على كتفها وقال لها وهو يتألم:

- لو كنت أعلم أن التجسد مؤلم لكِ ما كنت طلبته منكِ، اعذريني يا ناردين لن أنسى لك معروفك، ولكني ما عدت أثق إلّا بكِ على كاميليا "ك

قاطعته مصححة له ما قال:

- وئام، أنا الآن وئام فقط

ونظرت للصندوق أمامها وقالت:

- هنا ناردين

نظر وحيد لها باندهاش، وحرك رأسه وحاجبيه حركة تعجب وحيرة، فأعطت وئام له المفتاح وقالت:

- هي لك الآن بداخل هذا الصندوق، ناردين خلف قضبانها تئن انتظارا لإشعار حريتها.

فسألها وحيد بتوجّس:

- ولماذا هي لي؟ لماذا لا تحمينها في مكان بعيد وتعودين إليها متى شئتِ؟

قالت بصوت مختنق:

- أنت الأولى بها يا وحيد، أنت ستحميها حتّى يوم الإفراج عنها، غدًا ستعلم أنها ملاذك الأخير فحافظ عليها

استلم وحيد منها المفتاح والصندوق، ومسحت هي دموعها واستقامت وتهندمت وقالت له:

- هيا بنا لنبدأ

بدأ وحيد الآن يشفق عليها، فما كلّ هذا الحب الذي بداخلها له؟ هل من السهل التخلي عن شخصيتها لترضيه؟ كم هو

جانٍ عليها عندما عاملها بأنانية مفرطة وتسلط بائن، أمرها بأن تموت فماتت، وأن تقترب فابتعد، ضحت هي، فبماذا ضحى هو؟ أيعلم ألمها؟ أيعلم حنينها لروحٍ ألفتها؟ أم لعالم شعرت به بالأمان والقوة؟ كيف تتأقلم على هذا العالم التي كانت تراه من الخارج عالمًا موحشًا متسلطًا بأفكاره متخبطًا بشهواته وعقوله الفارغة؟ هي الآن أصبحت جزءًا منه فكيف ستتعامل معه؟ سار أمامها وهي خلفه، يفكر بانكسارها، بخضوعها وضعفها، ونسى أنها سليلة الملوك التي تخلت عن كلّ شيء لأجله، وبحركة مفاجئة منه التفت إليها وخبأها بحضنه، فبكت بكاء شديدًا، وأخرجت طاقة الضعف بداخل حضنه الآمن

طرق الباب على كاميليا، فلاحظ حركةً منها ثم سكونًا مفاجئًا، فعلم أنها استيقظت، وربما كانت تتصنت عليه، عيونها مغمضة ووعيها كامل، فنظر لوئام نظرة فهمتها جيدًا، وأشارت بأنهما أدركا أن كاميليا مستيقظة ولكنها تدعي الغياب:

اقترب وحيد منها فربت على يدها وقال:

- أعلم أنكِ تسمعينني يا حبيبتي وتشعرين بيدي، أنا أحضرت لكِ معي مفاجأة

فارتخت عضلات وجه كاميليا، فعلم أنه على حق، ولكنه

شعر بأنها توهمت بأن ابنها هو المفاجأة، فأردف لكي لا تتوغل بأحلامها وتحزن:

- لقد أحضرت لكِ وئام ابنة السيدة فاطمة مربيتك

انتظر ليرى ردّ فعلها، فآلمته هذه الدمعة الوحيدة الساقطة من عينها

اقترب منها هامسًا في أذنها:

- ولكني أحمل لكِ خبرًا آخر، لقد علمت مكان ابنك وقريبًا سيعود إليكِ

فلم تستطع أن تحكم نفسها، فابتسمت ابتسامة خفيفة، فهمس همسة أخرى بأذنها:

- أما آن لعيني أن ترى بريق عين صغيرتي الغائب؟

فنظر وحيد لوئام وأومأت برأسها مطمئنة له أنها ستفعلها وتفتح عينها، وتدريجيًا وعلى خجل بدأت كاميليا في فتح عينيها ليرى هو بريق عينيها المنطفئ، لتظهر سحابة دموع تشير إلى كمّ الوجع والحيرة بداخلها، تحملت ثلاثة أشهر سجينة في غرفة الجرو حتّى لا تخسر ابنها ولكنها بالنهاية خسرته، فالمصير واحد حتّى لو تأجل تحقيقه، مسح وحيد شلال الدموع الساقط على وجنتيها وقال بحنان مفرط:

- حمدًا لله على سلامتك صغيرتي

نظرت له وبدون أي ردود مجاملة سألته:

- أين جوزيف؟ اين ابني يا توماس؟

فتذكر وحيد أنه توماس بالنسبة لها فجاوبها:

- إنه في منزل جده والد أبيه، اطمئني سأعيده إليكِ قريبًا

تقدمت وئام منها فابتسمت لها كاميليا بدافع من بقايا الإحسان بداخلها وقالت لها:

- أهلا يا وئام، لقد اشتقت لك منذ صغرك

نظرث وئام لجروح يدها وقدمها ووهن جسدها فبدأت عملها، وذهبت لإحضار أدوات تضميد الجروح وتحضير طعام يعيد الحياة لجسدها.

ولكن للحظات الراحة نهاية تنتهي دائمًا عند بداية التأقلم عليها والاستمتاع بها، فتبدأ موجة جديدة من العذاب غير معلومة المصير والمدة

فلحظة خروج وئام من الغرفة والتفاف وحيد لكاميليا ليطمئن عليها، كانت كإشارة البدء لطرقات على باب القصر محدثةً صوتًا كقرع طبول الحرب، ونغمة السوناري العالية الحزينة تصمّ سمع وحيد، فعرف أن الآتي ليس بالهيّن، ولكنه

سيكون أخطر مما سبق على الجميع

صرخ وحيد بوئام ألّا تفتح، واقترب هو وطلب من وئام ألّا تترك كاميليا مهما حدث، وقفت هي على بوابة الغرفة تراقب ما يحدث، وتقدم وحيد وفتح بوابة المنزل، فوجد حشدًا من الجنود وكأنهم يدخلون حربًا ضروسًا، ولكنهم لا يعلمون أنها حربٌ غير متكافئة الأطراف، بدأ ضابطٌ يظهر من منتصف الصفوف وأخذ إشارة البدء في الحديث:

- أنت المدعو توماس أنطوان؟

قال له وحيد:

- نعم أنا الدكتور توماس أنطوان

فتكلم الضابط:

- تفضل معنا هناك بلاغ مقدم ضدك

تكلم وحيد:

- من قدمه ضدي؟ وبماذا قدمه؟

قال الضابط:

- لا أعلم، في قسم الشرطة ستعلم كلّ شيء، ستأتي معنا بهدوء أرجوك، لا نريد إزعاج للآخرين

ودّع وحيد كاميليا ودموع عينيه تنزف دمًا على فراقها وهي في هذه الحالة، هو يعلم أن الخطر ما زال قائمًا، وكأن الفراق قد كتب عليهما في أشد لحظات الاحتياج ولكن لا بد من تحمله

شاهد رائف كلّ ما يحدث، فهو ممنوع من دخول المنزل بفعل حصن الحماية المتجدد الذي تحصّن به وئام المنزل، رأته يقف بعيدًا محتميًا ببعض جنوده، تتذكر كلمات أمها جيدًا؛ اذهبي وسأحميكم وسأكون بجانبكم، هي الآن مطمئنة على وحيد لأن أمها بالتأكيد ستكون بجانبه وسترسل له من يخرجه من أزمته.

ذهب وحيد إلى قسم الشرطة التابع لمحيط منزله، فوُضِع بالمكان المخصص للحجز مباشرة، فعلا صوته وصرخ وعومل معاملة اللصوص والقتلة:

- لماذا أنا هنا؟ أريد مقابلة المأمور، هذا لا يليق بمعاملة مواطن مصري

نظر له جميع من حوله نظرة تعجب وكأنهم يجاوبونه:

- وهل بُنِيَ هذا المكان إلّا للمواطنين المصريين؟!

وبعد نصف ساعة يحتجز فيها الدكتور توماس أنطوان في غرفة صغيرة واضعًا يده خلفه متجولا في الغرفة

ذهابًا وإيابًا يحاول أن يفهم ماذا يحدث له، فتح عليه الباب ليقبل أمين الشرطة المُخَوّل باصطحابه مكبل الأيدي للضابط المسؤول عن قضيته، فدخلا على الضابط ووحيد ثائر وغاضب، فطلب منه الضابط الجلوس، فحررت يده فتحسس صلابة الحديد الذي أحدث جرحًا في يده، فتذكر كاميليا التي استمرت هذه الأصفاد في يدها شهورًا، وشعر بكمّ وجعها وألمها والحديد يأكل بغضب جسدها وهي في النهاية لا تفكر إلّا بابنها، سأل الضابطَ بغضب:

- لماذا أنا هنا ؟

تكلم الضابط بهدوء وهو يدخن سيجارته وينفث أنفاسه في وجه وحيد بطريقة مستفزة:

- أنت متهم بجريمة قتل المهندس أندريه باولو في منزله بطلق ناري نافذ في صدره ودفنه في حديقة منزله وسرقة بيته وأمواله وخطف زوجته، ما أقوالك في هذه التهم المنسوبة إليك؟

كانت دهشة وحيد جلية على وجهه:

- قتل من؟ وسرقة من؟ وخطف من؟

هذا المنزل منزل أبي الخواجة أنطوان، بالفعل أندريه زوج أختي كاميليا قتل، ولكن لم يدفن في حديقة المنزل، دفن

في المقابر الخاصة بعائلته لقد تسلمته عائلته يوم وفاته لستُ أنا من قتله، من قتله مجهول بطلقة من خارج سور المنزل

تكلم الضابط وهو يدير كرسيه المتحرك المبطن يمينًا ويسارًا في حركة تثير أعصاب وحيد، وتكلم في النهاية قائلاً:

- هناك شهود على واقعة القتل التي وقعت في فناء المنزل، وشهود أيضًا على دفنك له بالمنزل

- استحالة يا افندم، أنا لم ألمس حتّى هذا المسدس فكيف قتلته إذًا؟ حضرتك أنا الدكتور توماس أنطوان، أنا موسيقار مشهور بروما، لماذا أفعل هذا؟ ولماذا أسرقه ولديّ ما يكفيني؟ هو من كان يعذب أختي وسجنها في غرفة الجرو في الجهة الخلفية للمنزل، وهي الآن طريحة الفراش في المنزل تعالج من جروحها

تكلم الضابط بخبث بنية إيقاع توماس في اعتراف خاطئ بجرم لم يفعله

- ولهذا قتلته أمام عيون ابنه؟

حينها علم وحيد أن كلّ ما يحدث هو من فعل رائف، هو من حرض الطفل لتلفيق الأكاذيب وزرع الفتنة والكره في

عقل الطفل الصغير تجاه أمه، وهو من يريد جعل الشرطة تمسح الحديقة لتعرف هل أندريه مدفون بها أم لا، وذلك للوصول للكنز المدفون أسفل القصر، وأن كاميليا ووئام في خطر ولا بد له من إنقاذهما، ردّ وحيد على الضابط:

- يا افندم أنا لم أقتله، أنا كنت أدافع عن أختي فقط

صمت الضابط لبرهة قبل أن يظهر له ما يخبئه:

- هناك إثبات لعدم انتمائك للخواجة أنطوان وأنك لستَ ابنه من صلبه

صمت وحيد ليعلم ماذا يجول في حدس الضابط ليكشف الضابط عمّا بجعبته من أوراق؛ منها ورقة مكتوبة بخط اليد أولًا وجهها لوحيد وقال: هل تعرف هذا الخط ؟

دقق وحيد بالخط وحاول قراءة ما تحتويه الورقة:

- أنا أنطوان فليبوس تاجر التحف والساعات الشهير، أعترف بأن توماس ليس ابني وهو غير معلوم الأصل، أشفقنا عليه فتربى مع ابنتي، ولكني أخاف على ابنتي منه، لذلك جعلته يسافر بلا عودة، وكذلك حررت توكيلًا لزوجها للتصرف في أملاكها بعد موتي، فأنا أثق به "

أتبعها الضابط بورقة أخرى فانتشلها منه وحيد، وكان

توكيلًا من الخواجة أنطوان لأندريه للتصرف في أموال وممتلكات ابنته، وأتبعه بتوكيل آخر من أندريه لزوجته أميرة محمود قبل أيام من موته، ولذلك بطل هذا التوكيل بموته، ولكن كلّ الأموال آلت الآن لابنه جوزيف الذي تحت وصاية أهل أبيه، فالأموال لأهل جوزيف الآن

ذهل وحيد مما يقرأ، ما كلّ هذا الكره والغل والحقد على كاميليا وعليه؟ لماذا فعل أنطوان به كلّ هذا؟ ولماذا فعل هذا بابنته؟ فمن زوجها هذا ليثق به ويسلمه جميع أمواله؟ كلّ هذا وكان وحيد لا يستطيع النطق أو التفوه بكلمة

ولكن استجمع وحيد قوته وقال مستفهمًا:

- ولكن أنطوان توفى، فالتوكيل بالتأكيد باطل، وحتى أندريه توفى فبُطل توكيله، والأموال تعود إلى كاميليا

قال الضابط:

- لا، أنت لا تعرف، فلقد حررت كاميليا أنطوان توكيلًا لأندريه، وهو بالتأكيد قد باع جميع أملاكها له

صمت وحيد يتأمل ما يحدث حوله وأردف قائلا:

- ولكني كنت أعيش بروما ولا أعلم كلّ ما حدث، ولكن كلّ ما أعرفه هو أني كنت أحاول إنقاذ كاميليا منه

- "ولهذا قتلته "

تكلم الضابط دون سابق إنذار وقال للكاتب بجانبه سجل يا بنيّ:

- إنه في يوم السبت الموافق ل١٨ أغسطس ١٩٦٠ اعترف الجاني توماس أنطوان بقتله لزوج المدعي أنها أخته المهندس أندريه باولو بطلقة نافذة بالقلب من مكان قريب، وبذلك سيتمّ حبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق ويراعى التجديد في الميعاد "

صرخ وحيد به:

- أنا لم أقتل أحدًا يا سيادة الضابط المحترم، أنا لم أقتله، هو من كان يريد قتل كاميليا، كاميليا أختي ويستحيل التخلي عنها

سُجن وحيد وهو متأكد أن هذه المؤامرة لن تستمر كثيرا، ولكنه خدع وستستمر طويلًا لأن رائف أراد أن يسكنه هذه الغرفة المظلمة ويستمتع هو بالقصر وما به.

هو الآن لا يفكر إلّا في كاميليا ووئام، ثنائي أحبّاه وأحبهما مع اختلاف المقامات، ولكن قلبه لا يخضع إلّا لهما، ولكنه علم أن المواجهة هي الحل، لا بد الآن أن يتسلح بجميع الأسلحة الممكنة للتخلص من لعنات طالت حياته

كان يشق على وئام رؤيته بهذه الحالة، فلجأت لكل محاذير التجسد، فيحظر عليها الاتصال بالعالم الآخر، ويحظر عليها استخدام تعاويذ الحماية الشديدة كالتي استخدمتها في حماية كنز كاميليا المخبأ الذي أخبرها به وحيد قبل سجنه

كان انتقال كاميليا من المنزل في هذا التوقيت من المستحيلات، وذلك بسبب جروحها التي لم تلتئم، وشاق أيضًا على وئام، ولكن وئام استعانت بأمها فحصّنتهما، وأخبرت رائف القرار الذي صدر بأنه سيعتقل إذا رأته أو رأت أيًّا من جنوده يؤذون كاميليا

سافر جوزيف إلى مدرسته الداخلية التي لا يُعلم مكانها، وهرب رائف بجسده ينوي حشد الحشود حوله لمحاربة الملكة زمردة وابنتها

وبينما رائف يحشد جيوشه كان البعد والحزن والألم يمزّق قلوبًا أنهكها الحب وعذبتها لوعة الفراق، وحيد توحد مع رسوماته، أما كامليا فاتخذت الصمت أسلوب حياة، تارة تضحك وتارة تبكي، واستمرّ الحنين القاتل لأيام كانت خلالها في هذا البيت الأميرة المدللة، أهو خطؤها؟ أم الأيام جنت عليها؟ من ستحاسب عندما تشفى من حنينها؟ كانت تركض خلف الأطفال هاتفة باسم ابنها، واختارت أن يتوه عقلها كما تاهت هي نفسها وأصبحت الذكريات ملاذها

أما وئام فأصبحت تائهة بين مراعاة أمانة أخيها، وقلبها الذي مات بمعرفة الحقيقة، وبعد ما كانت ملكة أصبحت الآن خادمة، وما زاد ألمها هو شعورها بمعاملة وحيد المتغيرة لها، ورؤية بذور الحب وهي تنمو في قلبه، فصرخت وتوسلت لأمها لتنقذهما من الخطيئة الكائنة فيكفي قلوبهم العذاب.

استـــراحـــة

أسدل الستار وفتحت الأنوار

لتكشف عمّا ستره الظلام

دموع وآهات وشهقات عظام

عزف موسيقي جبار لموسيقار شرخ القلب بسيفه البتار

وتراقص الراقصون على وتر منهار

لقلب نزف ألمًا وأصبح رمادًا متناثرًا وطار

حررت القيود وانحصر الظلام

تفتحت العقول بما قيل فاستعجلت ما سيقال

وفي الآذان هتف صوتٌ هامسٌ وقال

ما زال للحديث بقية

فأهدؤوا والتقطوا أنفاسكم

فما هو آتٍ سيأتي وما عليكم إلّا الانتظار

(٢٦)

الإسكنــدرية

١٩٦٥

في منطقة نائية بعيدة مليئة ببيوت عشوائية بنيت من الصفيح، أثاث متهالك، منتشر بين الأزقة والحارات، أطفال يلعبون بملابس رثة حفاة الأقدام، مياه خضراء منتشرة في الشوارع، وبين هذه البيوت البيت المختار، بيت من طابقين وبينهما سلم خشبي منهار، في الأسفل يقبع رجل سبعيني تساقطت أسنانه، وشعيرات رأسه تحولت إلى بياض ناصع يبهر الأنظار، وبجانبه زوجته التي تصغره في العمر سنوات طوال، عشرون عامًا تباعد بينهما في الأعمار، مستمرّان يسطران مأساة فقر وحال متدهور منهار، ولكنهما حالة من حالات كثار، رضيا واستكانا ولم يفزعا أو يقنطا، سطّرا بين الأنفاق نعيمًا، وأسفل الحياة حياة مطمئنة رافضيْن النظر إلي أعلى الأدوار، مكتفييْن بحياتهما شاعريْن أن بصحتهما سيملكان القصور الفخمة متعددة الأدوار.

ومن فوقهما غرفة صغيرة لابن وحيد لهما لم يبلغ الثلاثين، دارت عليه الدائرة ولم يخرج من هذه المنطقة، فاختار زوجة له ترضى بحاله، وتبادله الحياة كما هي، فأنجب لهما طفلا

وحيدًا أصبح هو السعادة والفخامة وكل الأحلام المؤجلة، يتعلق به الأمل الوحيد لهذه العائلة التي تركت أحلامها تغرق مع مركب الأماني، ورست هي على شاطئ حياة يأكل الفقر حوافهم الآمنة للتعمق أكثر في لب الحياة ومكمنها

عاش الجد حياته مكافحًا لأجل إطعام بطون عائلته، فعاش متجولا بين البلاد والأزقة والحارات، متأملا بحياة آمنة مثلهم، ولكنه فشل في أن يصنع حياة في بيت طيني، واكتفى ببيته الصفيح، ولكنه عندما يئس في فترة من حياته لجأ لكثير من الأعمال المشبوهة لكي يرتقي بعائلته، ولكن أبدًا لن يرتقي، لأن الله لا يبارك إلّا في الحلال من الرزق، ولأنه اتخذ طريقًا مشبوهًا في لحظة ضعف واستكانة منه، فقد طارده طوال حياته ولم يتركه.

وفي ليلة حالكة السواد، مذاقها كمذاق الخوف والحزن والضعف، مطرها مخيف، كنقاط من الدم تتساقط، رائحة تنتشر في كلّ مكان، نبح كلب حارس للمكان بصوت منبوح وكأنه ذئب يعوي، فانتفض حسن من نومه، وقد تصادف نباح الكلب مع كابوس تجدد له، ولكنه ليس كابوسًا، هو زيارة، مرور غير طيب ممن كانت له في السابق الحياة.

فانتفضت زوجته وقالت:

- أتت ثانية؟ ألن تتركنا بحالنا؟ ألم يكفها ما حدث في

الماضي؟

نظر لها عم حسن وقال:

- اذهبي لابنك ولا تعودي إلّا عندما أستدعيك

صرخت به:

- لن أتركك لها فقد أرهقت حتّى وصلت إلى حالتك هذه، استعذ بالله يا أبا محمد، واطردها بطريقتك التي تعرفها

وفجأة ارتعش نور الغرفة وانطفأ، وعاد ثانية فارتجف قلب زوجته، ولكنه ارتعش ثانية مع ارتفاع صوت البرق والرعد في السماء، فانقبض قلب حسن وصرخ بها:

- اذهبي الآن وحصني بيت محمد وكوني بجانب ابنه، فالليلة ليست كباقي الليالي، إن في الليلة المنتهى، اذهبي سريعًا

أسرعت السيدة العجوز، وصعدت السلم الصغير، وانفتح الباب بعد طرق خفيف عليه ليكشف عن غرفة صغيرة عبارة عن سرير ينام عليه الأب والأم والابن الصغير ذو الخمس سنوات

وفي الأسفل استقام حسن من نومته، وأخذ يتحرك ذهابًا وإيابًا وهو يردد:

- ماذا تريدين يا زمردة ثانية؟ لقد انتهى كلّ شيء منذ زمن، وأنقذت ابنك وابتعدت

ظهرت أمامه من جديد ملكة متوّجة بتاج الملك، جمالها أشاع النور من جديد في الغرفة، حنينها الذي في عينيها حرك بداخله طواحين الحب الخامدة

همست له:

- هو ابني وابنك، جيناتك السائدة التي بداخله هي من جعلته منكم

صمت حسن وفي عينيه نظرة حنين واشتياق، تأمل بعينيه جسدها، تحركت عيناه من أعلى رأسها حتّى أخمص قدميها، وعلى إثرها ارتبكت زمردة، كأنها فتاة لم تتعدّ المائة من عمرها حسب أعمارهم، هي الآن صاحبة الثلاثمائة عام، وهو ظهر أمامها كشاب عشريني يتلاعب بنظرات عينيه لتخضع له فتاته المفضلة

اقترب منها ولمس وجنتها وقال:

- ما زلتِ ساحرة كما أنتِ يا زمردة، رؤيتك جعلت نار حبك تشتعل في قلبي من جديد

بادلته نفس النبرة المحببة لديه:

- هي لم تخمد في قلبي من الأساس، ولكن أنت من أردت الابتعاد واخترت عالمك، ولكننا الآن مشتركان بابن يعذب، لن نستطيع تركه على حالته هذه

تساءل حسن:

- وماذا به وحيد؟ لقد أنقذته وقتلت أندريه هذا من أجله وأجل كاميليا

فجاوبته بأسى:

- وحيد الآن سجين، اتُّهِم زورًا في قضية القتل، ويعيش الآن منذ خمس سنوات هناك يعذب، وأكثر من هذا أن ابنتي ناردين أحبته، وتجسدت بجسد آخر لتعيش معه فأحبها، ويطلب الآن منها الزواج، لا بد أن يعرف الحقيقة ويخرج من السجن لكي يحمي كاميليا وناردين من رائف الذي تجهز بجيش كبير من الخارج ليحاربني ويسترد العرش مني، أنا في مأزق وأطلب مساعدتك

فاستنكر حسن طلبها:

- كيف لي أن أفعل هذا الآن؟ أنا عجوز، لن أتحمل السجن وعذابه، أريد أن أموت هنا بهدوء، ومَن أنا لأساعد ملكة مملكة البحار العظيمة؟ إذا أردتِ فاهدمي عليهم السجن، أو افعلي ما تريدين، ولكني لن أعترف على نفسي، لديّ الآن

حفيد أريد أن أربيه وأنا جده النقي

بدأ الغضب يظهر على وجه زمردة واحمرّت عيناها وحذرته:

- أنا جئت هنا وأنا مسالمة، أريد ما وعدتني به منذ فترة، أتتذكر عندما أردت أن أعترف لوحيد أني أمه وأخيّره بين العالمين فطلبت مني ألّا أتسرّع وأنك من تعترف له ولم تفعل

فأومأ حسن برأسه وأكمل:

- نعم وعدتك بذلك، ولكني فكرت، من أنا حتّى أذهب لأقف أمامه وأعترف له أنا أبوك الذي تركك وهرب، أنا أبوك الذي شاهدك وأنت تتلاطم على أمواج الحياة وتركك لتجد لك شاطئًا ترسو عليه، كيف سيستوعب أنه مختلط الجينات؟ كيف سيختار بين العالمين؟ لن أعترف له، مصلحته هناك، اتركيه يعيش بين العائلة التي اختارها، اجعلي ابنتك تتراجع، اسجنيها في عالمك، لن نستطيع التأقلم مع عالمكم وأنتم كذلك، هذا هو ناموس الحياة، كتب الله لكم حياتكم، ولنا حياتنا، نعم استمتعنا ببعضنا ولكن انتهى

صرخت زمردة به فاهتز البيت بمن به:

- لن ينتهي الأمر، لن أترك ابني أكثر من هذا، سيعلم وسيدرك ماذا حدث له وإن كنت تخاف على حفيدك

فسيكون معي حتّى تنتهي أنت من مهمتك

صرخ بها:

- لا يا زمردة، لا تؤذي حفيدي أرجوكِ

قالت له بتحدي:

- لن أصدقك بعد هذا، حفيدك معي، إن أردت له العودة فسيعود في التوقيت الذي أطمئن به على ابني وابنتي "

أظلم المكان من جديد وهو يهتف برجاء:

- زمردة، أرجوك، إلّا حفيدي

وعندما عادت الأنوار من جديد سمع صرخة مدوية آتية من الطابق العلوي، فصعد مسرعا ليعرف ماذا حدث، ولكنه وجد حفيده جثة هامدة بعد ما كان يلعب مع جدته بمرح، أصبح جسدًا على الأرض يتنفس ولكنه لا يستيقظ أبدًا

أسرع الأب وابنه بالحفيد إلى أقرب مستوصف لهم، واتضح لهما أن الطفل استجاب لغيبوبة دماغية تستدعي أن يستمر على جهاز تنفس وجهاز لتنشيط الدورة الدموية والخلايا الجذعية لإعادة وعيه، وإن استمرّ على هذا الوضع فسينتهى عمره بالتأكيد قريبًا

هذا الأمر أكبر من قدرتهم المالية، وإن اجتمع أهل المنطقة

كلها وتبرعوا بكل مالهم فلن يدفعوا يومًا واحدًا بالمشفى

ويا لها من مأساة مشتركة أصابت الجميع بألم مستمر ينزف كلما توقف، كانت نتيجة ضعف واستجابة لشهوة واستمتاع محرّم متبادل، اختراق لعوالم من رحمة الله بنا أن حجبها عن أنظارنا، ولكن الإنسان دائمًا كان جهولا

عانى حفيد العم حسن كثيرًا وهو مسجون في عالم مخيف، لا يستطيع عقل طفل استيعابه، وحوش وكائنات مخيفة، لم تكن زمردة قاسية عليه، هي تعلم أنه لا ذنب له، ولكن هذه طبيعة العالم التي تسكنه

تكلمت مع الطفل الصغير:

- إياك يا بنيّ عندما تعود لعالمك أن تقترب من عالمنا ثانية، تحصّن منه وابتعد، فمن خطا خطواته الأولى نحونا لا نتركه يعود سالمًا، نحن لا نهاجم إلّا الضعيف، ولا نستمتع إلّا بمن لديه الرغبة والاشتياق لمتعتنا، ولكنها متعة واهية هشّة تنتهي بانتهاء وقتها، لن يتبعها إلّا ألم وسقوط يتبعه سقوط وفي النهاية دمار وعذاب من الله

فسألها الطفل ببراءة:

- هل سأعود لأمي ثانية؟

فأردفت:

- إذا استُرِدّت لي أمانتي التي في عالمكم، عندها فقط سأتركك لهم

فبادلها الطفل مشاعره:

- أنا أخاف على أمي، هي الآن تبكي بالتأكيد

فتنهدت زمردة الوجع:

- أنا مثلها أم أبكي طوال عمري بسبب ما حدث لي منكم

فسألها:

- وهل ابنك مخطوف الآن مثلي؟

فجاوبته:

- لا، ابني تائه عني ويحتاج دليلًا ليرشده لطريقي

كان الحل الوحيد لعودة الطفل هو اعتراف العم حسن بجريمته، واعترافه لوحيد بأبوته، ولكن هناك طريقة واحدة للاعتراف، جهزها سريعًا وترك ورقة صغيرة لزوجته التي ما زالت نائمة بجانب حفيدها بالمشفى تدعو الله له بالشفاء، وذهب في الصباح لقسم الشرطة التابع له جريمة القتل وسلم نفسه، وقدم اعترافه ومعه الدليل، وهو أداة الجريمة،

مسدس لا ينقصه إلّا طلقة وحيدة

خرج وحيد مذهولًا، مدة سجنه خمسة عشر عامًا تقلصت لتصبح خمس سنوات فقط، ولكنه علم أن الجاني قد قدم إفادته وسلم نفسه، وظهرت براءة وحيد

أسرع وحيد إلى القصر سعيدًا لأنه سيلاقي حبيبته وئام في النهاية ويتزوجان ويبني لنفسه حياة، من سهرت لأجله وتألمت لألمه وتعذبت لتجسدها بجسد لا يمثلها، وتأقلمت مع عالم ليس عالمها ورعت أخته التي أقسم أنها لن تكون شيئًا غير أخته.

سيحاول أن يجد لها ابنها ويعيد لها عقلها التائه، فحالها يؤلمه ويذيب بداخله قطرات الحياة عندما تسأله:

- هل رأيت جوزيف؟ ذهب ليلعب ولم يعد، إن رأيته أخبره أن كاميليا تنتظره

دخل من باب القصر لم يجد أحدًا منهم، صرخ وهلل:

- وئام، لقد أتيت يا حبيبتي، أين أنت، كاميليا، لقد عاد لكِ أخوكِ ولن أتركك ثانية "

ولكن هناك شيء آخر ينتظره في بهو القصر، صندوق الدنيا الذي شغفه في صغره ولكن لم يحالفه الحظ أبدًا للنظر

بداخله، نظر يمينًا ويسارًا لم ير أحدًا هنا أو هناك

لاحظ ورقة صغيرة على الصندوق الموجود أمامه مكتوب بها:

" لقد ناداك الصندوق يا بنيّ فلبّ النداء، مسامحتك رجاء، والعفو شيمة من شيم العظماء "

فانتهز وحيد الفرصة وفعل ما كان يتمناه وهو صغير، وأخيرًا لقد حققت له الحياة مطلبًا تأخر كثيرًا، اقترب ونظر داخل الفتحة المؤدية إلى صندوق الدنيا التي ما زال يرسمها وأدمن طريقتها، انفصل وحيد من عالمه إلى عالمه، ومن حقيقة يعيش بها إلى حقيقة غابت عنه

فبدأ العرض، بحر هائج تتراقص أمواجه وتتسابق على شاطئ عليه شخص واجم تائه، شكله مألوف بالنسبة لوحيد ولكن لم يتذكره

علت الأمواج وعصفت عاصفة شديدة، ولكنها في النهاية تشكلت على شكل حورية ساحرة عارية الجسد خرجت من البحر، فانتفض الجالس على الرمال، فافترشت هي الرمال فتاهت به وتاه بها، تبعته وتبعها، حتّى حدث ما حدث ووقعت الخطيئة فأنجبت لهما طفلاً، حملته الحورية وأسرعت خائفة تختبئ من لعنة البحر الغاضب، حمت طفلها

وبنت أسوارًا حول بيت صغير بجانب البحر، كان يتردد عليها الحزين ويزورها، وتدريجيًا اختفى الحزين من الصورة، فتركت الطفل في هذا البيت وسلمت نفسها للبحر، حتّى أتى أناسٌ احتلوا البيت، فبكت وذهبت، ولكن جاء هذا الرجل الحزين ثانية، فأخذ الطفل وذهب به بعيدا، إلى بيت به رجل وامرأة وبنتان، ردد وحيد وهو يشاهد:

- (صفية وشيماء)

كان يتصبب عرقًا وينتفض كلما واجه الحقيقة وتوصل إلى حل قطعي وحقيقي لكل أسئلته التي عاش يبحث عنها في حياته، صرخ وحيد بقوة:

- (حرررررررام)

نهض من أمام صندوق الدنيا كلّ ما حوله، هو في النهاية ابن حورية البحر، وأبوه عم رجب الحكواتي، وئام أو ناردين هي أخته، بكى وصرخ، كسر وزمجر وفي النهاية وجد يدًا تربّت على كتفه:

- هذا هو مصيرنا يا أخي، أختك تحبك وأنت تحبها، ولكننا حرمنا أن نكون إلّا مجرد أخوين متساندين ببعضهما ليس حبنا إلّا حبًّا طاهرًا، أبوك هو عم رجب، وهو عم حسن خفير هذا البيت، وهو من قتل أندريه لينقذ كاميليا من يد رائف

ولأول مرة يرتمي وحيد بحضن وئام التي دفنت روحها الحقيقية لأجل أخيها لتبقى بجانبه وتسانده حتّى يرى الحقيقة، وتجعل من حياتها فداء لأخيها التائه الجريح من حب عصِيٍّ عليه، حياة لا تريده، استقرار يبغضه، وحيرة تعشقه، تمنى حياة مثالية فأتته حياة استثنائية

سأل وحيد وئام:

- معنى هذا أني من معشر الجان مثلكم؟

قالت وئام:

- لا، أنت مختلط بين الاثنين، لو كانت جيناتك الجِنّيّة أكثر كنت لا تُرى بالعين البشرية ولا تظهر لهم، ولكن جيناتك الإنسية أعلى بكثير من الجنّيّة، ولذلك أنت منهم، حتّى يوم موت أبيك سيكون لك حرية الاختيار

نظر لكاميليا التائهة وتأوه:

- آه من حيرة كتبت عليّ، وعذاب ألقيته على من حولي، لا بد من تصحيح أخطاء لم أرتكبها أولا، وبعدها سيكون الاختيار

نظرت هي الأخرى لكاميليا:

- ولكن الأمر ليس سهلا، جوزيف محاط بجيشٍ يحميه

ويقوده رائف

أطاح برأسه وأظهر لا مبالاة:

- مهما كلفني الأمر لا بد من إعادته لها.

استـــعداد

لقد رفع الستار من جديد، واصطفت الصفوف، وهدأ الجميع، ولكن الوضع اختلف، الوجوه واجمة، والقلوب نابضة، الأيادي مرتعشة، ينتظرون الظلام، فبسطوا أيديهم مستعدين لقبضته من جديد، وكأن الخوف يحدث فقط عند الوهلة الأولى واللمسة الأولى، وبعدها يتلاشي أو يعتاد، فخانهم إحساسهم، خيوط الظلام المنبثقة من اللا مكان تلاشت ولم تظهر ثانية، فكانت للإرادة السيادة، فما كنت مجبرًا عليه الآن اعتدته، لا بل تستمتع به، فالخضوع هو إدمان بدايته سيطرة وأوسطه متعة ونهايته دمار

الأوركسترا تستعد، وقف الموسيقار، وبعصاه طرق طرقة انتبه لها الجميع، وشرع بإكمال ما قد بدأ

لينهي سيمفونية الحياة التي لم تكتمل بعد

النغمة الثالثة عشرة

اصطدام

تائهون

وما زالوا متفرقين

تتشعب طرقهم

فيخونهم تفكيرهم

وتتسلط غرائزهم

فتتمكن شهواتهم

فينقلبوا صاغرين طامعين

وقبل النهاية ستعود لنقطة البداية

لتصطدم من جديد

وتعلم أن النهاية ماهي إلّا بداية

والحقيقة ما هي إلّا خداع

وأنك بداخل دائرة مخرجها العقل وما لهواك عليك سلطان

(٢٧)

بـــــرليـــن

١٩٩٦

تمت الخطبة وفرح الجميع، واستطعنا أن نقتطع من كلّ هذه الأحداث ابتسامة صادقة تهوّن علينا القادم وتنسينا ما مضى، ولكن انتهت السعادة سريعًا، أجلت محطتنا التالية حتّى يسافر أبي وأمي، وبعد ثلاثة أيام عادا إلي القاهرة وعدنا نحن إلي مهمتنا، فاجتمعنا من جديد لقضاء المهمة

تذمر ماهر وسلم لنا المسدس:

- المهمة لكما وأنا بريء منها

وأردف بصوت عالٍ :

- أنا خائف على ابنتي وعلى حياتي، أرجوكما اذهبا من دوني، وابحثا عن اللغز وحدكما، وهذا هو قراري ولن أغيره

طرق مالك بيده على المنضدة الموضوع عليها الكتاب بعصبية جعلت عروق وجهه تنتفض:

- يا ماهر، كلٌّ منا خرج من الغرفة وأخبر البقية ماذا حدث معه، أرجوك قص علينا ما حدث، من البداية قال الكتاب

ثلاثة، وضعنا معًا في وسط الدائرة ولا بد من خروجنا معا كما دخلناها معًا

فأتبعه ماهر بنظرة ولهجة متأففة:

- يا مالك، ألم أخبركما من قبل أنه لم يحدث شيء معي خلاف ما حدثتكما عنه؟ ولكن كلّ ما أستطيع أن أخبركما به أن نهاية هذا الأمر الخراب

فتساءلت مستفهمة:

- ما الذي يجعلك متأكدًا تمام التأكد هكذا يا أخي؟ صارحنا ولا تثِر شكوكنا

تفوه ماهر بتفاهات أخرى:

- يا رقية، أنا لست أخاك، لا تنسي أن أخاك وافته المنية بسبب هذا الكتاب، يكفيني الطريق معك إلى هنا وكفى!

ترك ماهر الغرفة وخرج تاركًا مالك ورقية في حالة ذهول مما قيل، لم ينظر حتّى لرقية التي تلألأت عيناها بدموع القهر والخيانة والصدمة، خيانة الغريب كالماء تتبخر سريعًا، ولكن خيانة القريب كالنار تحرق وتحني الظهور المستقيمة

وبدون أي تردد من رقية غادرت بيت ماهر بنية عدم العودة تاركة له صورة قديمة تجمعهما أمام بيت جدّها التي

تُظهر المنزل المهجور خلفهما

حجز لها مالك في فندق فخم غرفتين متجاورتين، ليكون بجانبها، وسألها قبل الافتراق:

- ماذا سنفعل الآن يا رقية؟ سنذهب من دون ماهر؟

قالت رقية بيقين:

- لا يا مالك، سيأتي ماهر معنا

فتعجب من يقينها من عودة ماهر فأخبرته:

- باختصار إن كان وجود ماهر مهمًّا في هذه الخطوة فسيأتي معنا، لأن خادم السوناري لن يتركه يهرب من المهمة بسهولة مثلما حدث معي في غرفة الفندق في روما، أجبرني على سلوك هذا الطريق في البداية عندما جعلني أرى مصيري إن هربتُ من المهمة

أومأ مالك برأسه:

- ليقضي الله أمرًا كان مفعولا

وعلى الجانب الآخر يغلق ماهر عليه غرفته ويبكي بكاءً يصل إلى مسامع زوجته، وتسمعه وهو يتحدث:

- أرجوكِ اتركيني واذهبي، لا تعودي إليّ، دعيني لزوجتي

وابنتي، فعلث ما طلب مني حتّى الآن وفي الماضي، ماذا تريدين ثانية؟

سكت سكوتًا غريبًا، شعرت به زوجته، ولكن في الداخل كان ماهر يستمع إلى محاورته وهي تقول:

- ستكمل المهمة ولن تخرج منها إلّا عند إتمامها، تذكر أن لديك ابنة وهي كلّ حياتك، من الممكن أن نسرق حياتها، ولا تراها ثانية تلعب وتضحك وتجري أمام عينك، سأتركها أمامك جثة هامدة لا تتحرك

تكلم ثانية وزوجته تسمع في الخارج:

- سأكمل مهمتي، ولكن لا بد أن اطمئن على ابنتي وبيتي، وأنهم لن يصابوا بمكروه

قالت المحاورة:

- لن يصيبهم مكروه، هذا وعدي الذي لا أنقضه أبدا

وفي الصباح الباكر استيقظ مالك على رسالة على هاتفه من ماهر:

- أين أنتما؟ أنا سأكمل المهمة

وبعد ساعة توجهنا إلي منطقة نائية في ضواحي برلين، منطقة تظهر أنها فقيرة، سرنا على خطى الخريطة التي

يظهرها الكتاب، وصلنا بعد ساعة تقريبا من التحرك في صمتٍ متبادل إلّا من الأحاديث عن الطرق بين ماهر ومالك

توقفت السيارة عند منزل صغير متهالك ولكن حوله سور حديدي، وبمجرد أن بدأنا نخطو أولى خطواتنا إلى بوابة هذا البيت شعرنا باهتزازة في حقيبة مالك والتي يسكنها الكتاب

أخرج مالك الكتاب من حقيبته، فوجده يفتح على صفحة منزل الأحزان تتلألأ حروف اللغز من جديد، وتبدأ بعدها حروف ذهبية تسطر لغزًا آخر لم نفهمه ولكن لا بد من اتباعه

- "آهات، صرخات، ودموع إهانة وعذاب، لحظات سجلت ودونت لتهدي كلّ ضال، وتوجه كلّ تائه، صور تطايرت من صندوق دُفِن بركن خفي، يستدلّ عليه العارفون، فالوصول يحتاج لروح سامية سموها ينبع من صدقها ينادي عليها في الخفاء، تلبي النداء في العلن"

- "ولكل حقيقة ثمن وثمن الحقيقة مدفون في الصندوق الأصغر، بفتحه ستحلّ اللعنة وينهار الملموس لتتجلى اللعنة في نوايا الطامح للوصول السريع، حمايته واجب، وضياعه دمار سيصيب الجميع بلعنة لا تنتهي"

نظراتنا المتبادلة وشَث بكمّ الخوف والرعب الذي تلبّس أرواحنا، الآن سنخرج من هذا البيت بأمانة سيبقى حملها

عبئًا علينا، سنحمل اللعنة بين أيدينا

نظر مالك إلى الباب ونظر لماهر ولرقية ففهما نظرته، فاقترب ثلاثتهم للباب واضعين أيديهم عليه، حتّى اهتزّ وظهر تجويف على شكل كتاب كالسابق، فوضع مالك الكتاب مكان التجويف ففتح الباب، ليظهر ما يخفيه، أعتقد من المشهد أمامي لسنوات كثيرة، خراب كائن، رمال صفراء مختلطة ببعض الأحجار المنتشرة هنا وهناك، بوابة صغيرة لبيت صغير جدًّا، وبمجرد اقترابهم منها فتح الباب تلقائيًّا، فدخلوا إلي البيت المكون من غرفة واحدة بحمام صغير جانبي، الغرفة بها سرير كبير وبجانبه متكأ لفردين، وبالمنتصف منضدة عليها ثلاثة أكواب وثلاثة أطباق وثلاث ملاعق

وبعد سكوت وتفحص ما حولهم بادر مالك بوضع خطته:

- الكتاب قال في اللغز إن الصندوق في ركن خفي، دعونا نبحث في الأركان أولًا، أنا سأبحث خلف السرير

أرضية الحجرة كانت من الخشب، أزاح مالك وماهر السرير معًا، فأحدث صوتًا مفرّغًا، استنتج ماهر:

- إن الأرض أسفل هذا السرير خالية.

فوافقه مالك:

- إذا كان الألمان وخصوصًا اليهود يلجؤون إلى المخابئ السريّة ببيوتهم للهروب من الفاشية ومن هتلر، فبالتأكيد هذا المنزل به مخبأ سري، أزحنا جميع الأثاث لنضعه في الجهة الأخرى الفارغة

وحاول مالك وماهر أن يلتمسا بابًا يؤدي إلي المخبأ السري، فلم يجدا شيئًا سوى دمية صغيرة بيضاء، أمسكها مالك بحسرة وقد ظهرت الدموع في عينيه فجأة، فاقتربت رقية منه:

- ماذا بك يا مالك؟

قال بوحشة في صوته تخرج من جرح قديم:

- كانت لياسمينا أختي دمية تشبهها فتذكرتها، كم أشتاق إليها يا رقية

فاقتربت منه رقية وربتت على كتفه وبدأت تواسيه:

- رحمها الله يا مالك، احتفِظ بها لتذكرك بأختك

احتضن مالك الدمية وقبلها، وعندما اقترب منها اشتمّ رائحة أخته فيها فزاد حنينه لها، فسقطت دمعة اشتياق من عينه على الأرض كانت قريبة من قدم رقية، وبمجرد سقوطها على الأرض اهتزت الأرض أسفل أقدام رقية،

فانتبهوا جميعهم أن رقية تقف على سجادة دائرية كبيرة، تراجعت فتحرك ماهر بسرعة لإزالة هذه السجادة، فوجدوا بوابة الغرفة السرية، رفع ماهر البوابة من نتوء ظهر بين صفوف الخشب المتراصة، فكشفت عن سلم يؤدي إلى الأسفل

- هبط ماهر أولا يتحسس الإضاءة على الجدران حتّى وجد مفتاحًا أضاء به الغرفة، فأذن لمالك ورقية بالهبوط حتّى يستكشفا المكان

هبط مالك ثم تبعته رقية ببطء تتحسس عدم انزلاقها، فالدرج متهالك للغاية، أراد مالك أن يحملها ولكنها رفضت، فنزلت ببطء ليفحصوا القبو الممتلئ بالصناديق الكرتونية المتراصة والدواليب القديمة، وجميعها مليئة بالكتب ولكن مواضيعها مختلفة، ترجم مالك أسماءها فوجدها جميعها تتكلم عن العالم الآخر، عالم الجان وحرب الممالك السبعة، الطلاسم والتعاويذ الخاصة بهم، حتّى ظهرت مجموعة كتب عن الأطفال وقصص مصورة وأخرى تتكلم عن مرض التوحد ومتلازمة داون، وبعضها روايات عالمية مشهورة، أدوات منزل، ولكن ما أثار حفيظتهم في هذه الصناديق صندوق جميع جوانبه مغلقة بلاصق متين، فبادلت رقية مالك قلمًا معها وأشارت له بفتحه، وليتها ما فتحته، هجمت

عليهم رائحة جعلت مالك ينتفض وماهر يبكي، ملابس لبنت صغيرة تشبه كثيرًا ملابس ياسمينا أخت مالك، فانتفض مالك :

- هذه رائحة ياسمينا اختي، لماذا هي هنا؟ ولماذا ملابسها هنا؟

وأخرج مالك فستانا صغيرًا لونه زهري وأشار لرقية به:

- هذا الفستان الذي غادرت به المنزل آخر مرة رأيتها به يا رقية، كانت ممسكة دميتها وهي تقبلني وتدعوني ألّا أتأخر عليها، وأن أزورها في أيام الآحاد، لم أتمكن من زيارتها، يا رقية لأنها غادرت سريعا ولم تنتظرني

قال ماهر بوقع معرفته القديمة بمالك:

- يمكن أن يكون هذا هو المنزل الذي غادرت إليه ياسمينا يا مالك

فرفض مالك الفكرة معللًا رفضه بأنه رأى صور أخته في مدرستها الداخلية، حاول ماهر إلهاءه بالبحث عن الصندوق الموجهين إليه، فبدءا بالأركان أولا كما قال اللغز، وبعد البحث والفحص في الصناديق وصل ماهر في ركن من أركان الغرفة إلي نتوء غريب في الأرضية، نبه مالك له فأسرعوا إليه، ليجدوا نتوءًا صغيرًا، فحاولوا إزالة الخشب من حوله،

ولكنه كشف لهم عن قفل حديدي قديم، فانتبه مالك وأخرج المفتاح الذي وجده في غرفة بيت الحنين وفتح هذا القفل ففتحت له خزينة بها صندوق كبير من الذهب، نعم صندوق أثري مثل الصناديق الفرعونية القديمة، فانبهر الجميع بهيئته وفخامته، مرسوم عليه رسوم فرعونية قديمة، فرح مالك به وانبهر، فمجرد طيف من الحضارة الفرعونية يسعده، فكيف بصندوق فرعوني فخم؟

- هذا حلم بالتأكيد، أنا لا أصدق عيني

وأردف قائلا:

- هذا صندوق فرعوني قيم وأصلي، هذا يعتبر أثرًا، كانت تستخدمه النساء الفرعونية في تخزين المجوهرات والحلى، كيف وصل إلى هنا؟

فتهكم ماهر:

- ما كان ينقصنا إلّا لعنة الفراعنة أيضا

لم يستجب كلٌّ من مالك ورقية لمزحته، وكأن مقولته لم تقَل، تغاضى الجميع عنها، واستفسرت رقية:

- ماذا سنفعل الآن يا مالك؟ هل سنفتحه أم نحتفظ به كما قال الكتاب؟ أم ماذا سيحدث؟

فأسرع ماهر بالإجابة:

- أعتقد أن هذا ليس الصندوق المقصود في الكتاب، هذا له قفل ونستطيع فتحه

فانتبها له وسألاه بتوجس :

- كيف علمت أن هذا ليس الصندوق المطلوب يا ماهر؟

تعجب ماهر من سذاجة السؤال:

- طبيعي إذا كان الصندوق المطلوب فلا بد أن يكون بدون أقفال أو مفاتيح، وجاء في اللغز الثاني أن الصندوق المطلوب الاحتفاظ به هو صندوق صغير، وهذه إشارة واضحة إلى وجود صندوق أكبر، أعتقد أن الصندوق المطلوب بداخل هذا الصندوق

فوافقه مالك:

- سأكون معك للنهاية يا ماهر

فتوجه مالك بالمفتاح الذي يفتح كلّ الأقفال منذ أن خرجوا من روما، وبمجرد أن فتحه مالك حتّى طارت منه صور كثيرة وكأنها كانت حبيسة وحررت، فتناثرت في جميع الأماكن حولهم، ودارت بهم الغرفة، فكانت الغرفة تدور ومعها الصور حولهم، حتّى كاد أن يغمى على رقية، فصرخت

ووضعت يديها على أذنيها لتصم أذنها عن سماع هذه النغمة المضخمة الحزينة التي تطرق طبول الوحشة والأحزان في قلوبهم.

نظرت رقية لمالك وماهر وهما يدوران معها بنفس الوضعية، البيت ينهار من حولهم، الكتب تتساقط، والصناديق الكرتونية تتطاير في الهواء، فقدت رقية توازنها وتماسكت بمالك مصدر أمانها، فنظرت يمينًا وجدت أحد جوانب الغرفة يتصدع، وبدأت أشعة الشمس بالدخول، والجميع لا يستطيعون التحرك، فالأرض تدور بسرعة عالية، وفي النهاية لم يستطيعوا التمسك بوعيهم فترة طويلة وسقطوا مغشيا عليهم

استيقظت رقية لتجد نفسها هي ومالك وماهر مفترشين الأسفلت أمام البيت المنهار لا المنسحق، كلّ ما به أرض وتراب فقط، الكتب، الملابس، الصور، كلّ شيء أصبح رمادًا متناثرًا، انتفضت وتغاضت عن ألم جرحها عندما رأت خيط دماء يسيل على وجه مالك، توجهت لمالك وبدأت بتنبيهه بكافة الطرق، الضرب والاهتزاز والصراخ، في النهاية فتح عينيه، فاطمئن قلبها، وتوجهت لماهر الذي كان قد عاد له وعيه قبلها، ولكنه كان يختبر حبها له، فبمجرد اقترابها لاحظت طيف الدموع التي تسقط منه وهو ناظرٌ لها:

- أهنتُ عليكِ لدرجة أنك تتركينني هكذا دون أن تطمئني عليّ؟

وعندما تأكدت من سلامته جاوبته ببرود:

- حمدا لله على سلامتك يا ماهر

نهضا يتأرجحان غير متزنين من أثر الدوامة الأرضية التي ألقت بأجسادهم خارجها كقطع القماش البالية، صرخت بهما رقية:

- الصندوق، أين الصندوق؟

وحينها انتبها إلى الصور التي بأيديهم، وهي صورة واحدة تقريبًا ولكنها مختلفة الزوايا، ثلاثة أشخاص يلتقطون صورة بداخل حديقة خلفيتها بوابة لمبني يشبه المنزل الخارجين منه، رجل لا نعرفه بجانب امرأة كبيرة بالعمر لا نعرفها وبجانبهم شابّ حدق مالك به:

- هذا أبي وهو صغير

انتبه أيضًا ماهر وكاد أن ينطق ولكنه اقتطعها ولم ينطقها وقال بدلًا من جملة مقتطعة:

- وهذا لا أعرفه

نظرت له رقية وعينها تمتلئ بالتساؤلات:

- من هذا الذي لا تعرفه يا ماهر؟

ارتبك ماهر وأشار لرقية إلى رجل يقف بجانب الرجل الأول الكبير بالنسبة لوالد مالك الشاب، فنظرت له نظرة مفادها أني عرفت أنك كاذب، وتمعنت النظر في الصورة فوجدت رجلًا آخر لم يلاحظ في الصورة من قبل يقف خلفهم، ومن تدقيقيها له علمت أنه جدها والد أبيها ومالك منزل الإسكندرية الواقع به حادثة أخيها جابر، لاحظوا بالصورة شيئًا غريبًا، كلما تعرفوا على شخص يظهر باقي أشخاص الصورة، وهذا يفيد أن الصور أيضا تشعر بهم

ولكن أين الكتاب والصندوق؟ لقد اختفيا، وهذا خطر لا بد من تفاديه، ما معنى ضياع الكتاب والصندوق إلّا لعنة ستحل على الجميع، بحثوا كثيرا ولكن دون جدوى، حتّى اهتدى مالك لفكرة البحث في سيارة ماهر، ربما وضعا به من دون إرادة منهم، كان تصرفًا غير منطقي من مالك، لا يعرف لماذا فتح صندوق السيارة، فوجد به حقيبة ظهره التي تحوي الكتاب وبجانبه صندوق صغير ذهبي أيضًا، ولكنه غريب، مرسوم عليه دائرة يتوسطها مثلثات ومربعات، تتناثر عليها الحروف المتشابكة وأخرى متباعدة لا تشكل أي كلمات، فعرف أنها تعاويذ وطلاسم خاصة بالصندوق

ركبوا السيارة ومعهم الصور بأيديهم ينظرون لها وكلٌّ تائه

في الاحتمالات التي تختبئ حول وجودها، سيكون والد مالك هو وجهتهم الأولى للتوصل إلى الحقيقة،م، ولكن كيف ووالد مالك لا يذكر أي شيء عن ماضيه؟ فلابد من التحايل عليه بطريقة أو بأخرى لاستخلاص الأجوبة المناسبة منه

***

(٢٨)

بـــرليـــن

١٩٧٠

مرت السنوات العجاف، لا بل مر العمر الأعجف، تساءلتُ كثيرًا، وبكيت كثيرًا على هذه الحلقة المفقودة من حقيقتي، كلما تقدمت بالعمر اكتشفت أني كذبة، خدعة لنفوس امتلأت بالجشع والغلظة، حتّى علمت أني وحيد المختلط، وحيد التائه بين عالم يحبه وعالم يوحشه، عالم يألفه وعالم لم يألفه

توجهنا إلى برلين واستقر بنا الحال في حي ليس بالقديم ولا الحديث، منزل متوسط الحال اشتريته لكاميليا من مالي الخاص، وبدأت أتقصّى أخبار جوزيف ابن كاميليا، كانت هي على حالتها، صامتة تائهة، وهو نجم يسطع في سماء الشباب

عالجتُ كاميليا في إحدى المستشفيات الكبرى للأمراض العقلية، وبدأت حالتها تتحسن، أدركتُ ما يحدث، بدأتُ أتكلم معها رويدًا، كانت تظهر الاستجابة، أحيانا تعود كاميليا أختي، ولكن في أوقات كثيرة أرى بعينيها نظرة غريبة عني، لم أعلم أهي كره أم غضب أم حب تائه بين الاستغاثة والندم

عادت كاميليا لكامل عقلها عندما أخبرتها بمكان ابنها، وأن هناك خطة لمعرفته بوجودها هنا بجانبه، وبدأنا بتنفيذها.

انتظرت يومه الخاص ويومها المثالي، يوم تخرج جوزيف، حلم لأي أمّ أن يكرمها ابنها يوم تخرجه، أن يصرخ للعالم أجمع ويقول هذه أمي، ينحني ويقبل قدميها التي ضحت من أجله ليكون نجمًا متلألئًا، ولكن هل سيفعل جوزيف هذا أم سيزيد في إذلالها؟

اصطف الآباء وابتدأ الحفل، وتوالى تكريم الأوائل، ومع التصفيق أسمع قلبا بجانبي ينتفض، عين حائرة علها تهتدي لمرساها وأمانها، وها هو يخرج للجميع، جوزيف أندريه الطالب المثالي، تزلزلت القاعة بالتصفيق والمباركات، وهي بجانبي تبكي، تهلل وتصفق كالجميع، وعندما صعد على المنصة وهدأ الجمع، وهدأت لتنتشي بسماع صوته البهي، وتكلم بالألمانية التي حاولت أن تتعلمها السنوات الماضية ولكنها صدمت عندما سمعته يهدي نجاحه إلي روح أمه المتوفاة، قطعت الكلمة كلّ أربطة الحياة بقلبها، فقامت واستقامت لتلفت انتباه ابنها أنها لم تمت وأنها أمامه تبكي كلّ لحظات بعده عنها، وتتجرع كؤوس قسوته بنفس راضية مطمئنة لعودته، انتبه جوزيف لها، وبلفتة سريعة منه إلى الصف الأول استأذن الجميع أن يقبل قدم خالته التي رعته

وسهرت على راحته، انهارت حصون كاميليا عندما علمت أنها أميرة الصديقة الخائنة التي ألقت بحياة كاميليا إلي عواصف الحزن والحرمان

انسحبنا سريعًا من القاعة لكي لا يصدر من كاميليا ما يفسد خطتنا، وأيضًا لاحظت انسحاب جوزيف سريعًا هو وهذه الخائنة

انتظرناه أمام البوابة الخلفية للمسرح، فبمجرد خروجهم من القاعة وجدونا أمامهم، كانت كاميليا متقدمة بالمنتصف، وأنا ووئام خلفها

خرج جوزيف فرآها أمامه، كان ينبه أميرة الخائنة أن كاميليا كانت بالقاعة، توقف لثوانٍ ينظر في عينيها، فتحرك يمينًا ليهرب فطاردته كاميليا، وتحرك يسارًا ليهرب فاتبعته، وفي النهاية صرخ بها:

- ابتعدي عني أيتها السيدة، ماذا تريدين مني؟

قالت كاميليا:

- لا أريد شيئا منك إلّا أن أعرف لماذا تهرب مني؟

تكلم وحبال صوته مرتجفة:

- ومن أنتِ حتّى أهرب منك؟

قالت وهي تلامسه لتسري في قلبها ارتجافة اشتياق:

- أنا قلبك، أنا تلك الندبة التي تسكن صدرك، أنا تلك البسمة التي غابت عن عمرك

قال باستهزاء:

- ممتاز، أنتِ تتكلمين كلامًا مؤثر جدا، وضع يده على كتفها وأحب أن يزيحها بقوة عن طريقه

فوضعت هي يدها على يده وأحكمت قبضتها عليها وأدارتها لترسم على باطن يده بأصبعها قلبًا لتذكره بالماضي، هي تظن أنه نسى، ولكنه يوميًا يأتيه هذا الكابوس الذي لا يفارقه، أنه أسير عند وحش كاسر، يلتهم كلّ يوم جزء من أجزائه وهو يبكي ويصرخ، فتعود أجزاؤه سليمة عندما تتبرع له أمه بالجزء المفقود، حتّى وصل الوحش للقلب، فأخرجت الأم قلبها وفدته بنفسها وماتت، هو يتألم ولكنه يهرب

ظهر طيف دمعة تلمع بعينيه أشعرتها أنه سيلين، ولكنه أتبعها بنيران تخرج منه فجأة، وتحولت نبرة صوته إلى صوت غليظ يوحي بتغير شخصية من يتحدث

- اتركيني واذهبي وإلّا أحرقتك هنا لأتخلص منكِ للأبد

هنا حان دوري أنا، أزحت كاميليا لتحتمي بي، وكانت عين جوزيف ليست عليّ بقدر ما كانت عينه على وئام، فحاولت وئام ألّا تنظر في عينه، لأنها إن نظرت في عينه فسينكشف لرائف كلّ شيء، اقتربتُ منه وقبضتُ بيدي على رقبته وأخبرته أني ما زلت أطاردته، وأنه لن يهزمنا أبدًا مادام الحق معنا، وأنه سيعيد جوزيف لأمه وبعدها سيتفرغ لقتله

كاد جوزيف أن يختنق بيدي، فصرخت كاميليا:

- اتركه ياتوماس سيختنق بيدك

سقط جوزيف أرضا، تحاول أمه مساعدته ليقف، نظر في عينيها نظرة استغاثة وقال:

- أرجوكِ اتركيني واذهبي، وإلّا سأفقد حتّى قيمتي أمام زملائي الخارجين الآن وسأفقد نبوغي، وسأفقد كلّ شيء حتّى بقايا حبي لك الذي دفنته مع جوزيف الطفل الصغير

ومن هنا بدأت معركتنا الحقيقة مع رائف، جوزيف كان لعبة في يده، يحركها كيفما يشاء، رأت وئام الشر في أعين رائف، ولكن رأت كاميليا الحنين في أعين ابنها، جعلتها تحافظ على المسافة القليلة المتبقية له بالعودة

أبلغت وئام وحيد أن أميرة تلك متلبسة بها هنوف زوجة رائف، وأنها من أقوى قوي الشر التي نفيت من المملكة،

وأنهما إذا علما بأمر صندوق روحها فسينتهي أمرها وينتهي أمر المملكة، لأنها بالتأكيد ستستخدمه ضد أمها الملكة .

قال وحيد:

- لماذا ستستخدمه ضد أمك يا وئام؟

قالت وئام:

"لقد سنّت قوانين جديدة في المملكة، وهي تقنين التجسد وعدم شيوعه بين بني الجن، أي فقط يتم التجسد في الأحلام أو لثوانٍ قليلة في الواقع، ولابد من مبرر قوي للتجسد، ومن دون ذلك يصبح التجسد خطيئة ويصيب أهل المتجسد العار والخزي بقية حياتهم أو ينفوا من المملكة، وإن تم العثور على قارورة المحاياة التي استخدمها المتجسد للتحول يسجن المتجسد في جسده الطيني دون العودة ثانية، لذلك تصبح القارورة الفيروزية عنده أهم من حياته لا بد من حمايتها ليتمكن من العودة وقتما يشاء

قال وحيد لوئام:

- هذا معناه أنك بخطر هنا

نفت وئام:

- لا، ناردين هي التي بخطر، إذا تم اكتشاف الصندوق

فستسرق القارورة وأسجَن في هذا العالم، وتُنفَى أمي، وهذا ما يريده رائف بالضبط، ولذلك فالحفاظ على هذا الصندوق أهم مني أنا شخصيا، ولا بد أن يحفظ في طبقات من الجير والذهب وسألحقها ببعض التعاويذ التي ستخفيها

تعجب وحيد وتساءل:

- ولماذا كلّ هذا ياوئام؟ لماذا كلّ هذا التجسد والتلبس والوسوسة؟ لماذا لا ينفصل العالمان ويبقى كلٌّ مشغولًا بعالمه؟ ما الفائدة من هذا التداخل؟

أومأت وئام برأسها:

- الفائدة الوحيدة من كلّ ما يحدث هي محاولة إثبات حقنا بالأرض، وأن الجنس الطيني ما هو إلّا مخرب مثلنا، وأنه من السهل السيطرة عليه لسفك الدماء والفساد، نحاول أن تقعوا في نفس أخطائنا لتعيشوا مثلنا مدحورين، ولكن لم نعلم جميعا حتّى الآن ما هو مصير البشرية بعد كلّ ما يحدث منها

- معنى هذا أنها حرب انتقام؟!

وافقته وئام الرأي:

- بالتأكيد، وستظل الحرب وستجدد ما دامت البشرية قائمة إلى أن يحكم الله بالانتصار لأي الفئتين، أو يظهر فينا

من يوحد صفوف الفئتين ونتجمع جميعا تحت رايته

وقد تمت بالفعل، دفنت وئام صندوق ناردين في ركن خفي بالمنزل المقيمين به، وبقى لهم كيفية التخطيط والاحتراس من رائف وأعوانه، ومحاولة تحرير جوزيف من سطوة رائف عليه

وبالرغم من كلّ ما حدث مع كاميليا، كانت سعيدة باقترابها من ابنها إلى هذا الحد، يكفيها طيف الأمل الذي سكن حواسها المستمد من أعين جوزيف، قلبها يقول سيأتي وعقلها يضطر للرضوخ لقلبها وينتظر مجيئه، فيستجيب العقل أحيانًا لإشارات القلب بالرغم من عدم اقتناعه بها، لأنه هو من يرى معاناته ويشعر بألمه، فيعطيه قرارات مغايرة للحقيقة فقط للعيش بسلام مؤقت دون الخوض في صراعات الأفضل والأرجح والأقدر، فينعمان بالسكينة حتّى لو سكينة كاذبة غير منطقية قصيرة المدى وغير دائمة

كنا نراقب جوزيف من بعيد، يرانا ويتهرب، يطمئن قلبها عندما ترى جوزيف يخرج من بيته يبحث يمينًا ويسارًا حتّى يراها، وبعدها يذهب وكأنه يطمئن عليها، لم تلاحظ وجود أميرة بجانبه، فقد اتضح أنها سافرت بعد ما اعترفت له بأن أمه لن تفعل شيئًا مما كان أبوه يتهمها به، اعترفت لجوزيف بعد ضغط منه عندما شعر بطيبة أمه وحنينه لها، شعرت

بأن قلب جوزيف سيلين على أمه، فخدعته بعدم رؤيته لها وانقطاعنا عن مراقبته، ربما سيقلق على أمه، وهذا ما حدث بالفعل، جعلتها تصبر يوما، يومين، ثلاثة، وفي صباح اليوم الرابع عن انقطاع المراقبة وبينما نحن نتسامر ونناقش بعض الكتب كعادتنا القديمة في حديقة المنزل الصغيرة، دخل جوزيف علينا، فكانت فرحة كاميليا كفرحة الطفل بحلوى العيد، أو الغريق برؤية شاطئ أمانه

انتفضت، وتوجهت له، وكادت من سرعة خطواتها أن تسقط، وبحركة تلقائية منه أسندها، ففرحت ونسيت ما كان، هي الآن تفكر فقط في ما سيكون، حضنها وحضنته، دمعت عيناه بغزارة، وانفجرت براكين حبها له بقوة، شلالات من الدموع المختلطة، الحب والشوق والأنين والوجع اختلطت بأعينهما، رحبت به، وجلسنا بالحديقة

كان الشك يراودني فيه، زيارته ونظراته ليست بالطيبة، التفاته يمينًا ويسارًا لم ترح عقلي، سؤاله عن الخادمة التي كانت معنا يوم التخرج، كان السؤال بمثابة تأكيد لي بأن هناك مؤامرة تحاك ضدنا بالظلام، ويقودها قائدة الظلام ورواده، كانت الإجابة سريعة مني

أخبرته أنها ذهبت لشراء احتياجات المنزل ولن تتأخر

علمتُ أنه دخل علينا بجسد جوزيف ولكنه مسير بأفعال

رائف، كانت الحيرة بداخلي تراودني عن ردة فعله إذا أبلغته أن وئام سافرت إلى مصر، ولكن كنت متأكدًا بأنه لن يأتي لأمه ثانية، وأنا بالكاد رأيت ابتسامة كامليا ولا أريد انطفاءها ثانية

تردد علينا كثيرًا وفي أوقات غريبة، أنا ووئام نعلم لماذا، فاتخذتُ الاحتياطات ونقلتُ وئام وحياتها إلى قبو المنزل حتّى أطمئن عليها

أظهر الحنان والحب الشديدين لأمه حتّى أني صدقته، وحمدت الله أني استطعت أن أعيد ابتسامتها ثانية، فكرت أن أتركها وأذهب، لكن إحساسًا بداخلي يقول لا تتركها ثانية، إن تركتها فستعود لعذابها وغربتها من جديد، أنت لها الآن صمام الأمان بالرغم من تحسن حالتها

جاء جوزيف سعيدًا ذات يوم يحكي لأمه عن موافقة حبيبته على طلب الزواج، ففرحت كاميليا فرحة لا مثيل لها، عادت ابتسامتها ثانية، فرحتها برؤية ابنها عريسًا كانت تفوق حد أحلامها، كان حلمها السابق فقط في عودة ابنها وتصديقه لها، أما الآن ما يحدث هو أقصى أمانيها، وبالفعل طلب منها ومنّي الحضور معه لطلب يد العروس من أبيها ذي الأصل العربي

ظلت وئام بالمنزل، ولكن لهزيمة عدوك لا بد من معرفة

نقاط ضعفه واستخدامها ضده، أو جعله هو من يتخلى عنها لانشغاله الدائم بتعزيز نقاط توهم أنها قوة، ولكنها في الحقيقة مجرد خدعة ستنتهي عند هزيمته، وهنا يتضح أن الذكاء هو العامل الأساسي في تحقيق النصر

يوم الخطبة ترك رائف جسد جوزيف وذهب بهيئته الأصلية ومعه زوجته هنوف إلي منزلنا التي تنتظرنا به وئام

وبينما نحن نضحك ونلهو في الخطبة كانت وئام تهاجم رائف وهنوف المتسللين إليها بالتشكل في هيئة الوزغ المتسلق الحوائط

عرفتهما وئام، حاولت قتلهما كأنهما حشرات بالفعل، حاولت قراءة بعض تعاويذ الحماية والاستغاثة التي تجعلها تتصل بأمها، لم يسعفها الوقت فقد اكتشفا أمرها وأوقفا مفعول تعاويذها، وكشفا نفسيهما لها وحاصراها، ظهرا لها بهيئتهما الحقيقية، هي بالفعل تراهما، حاولت إنكارهما وإنكار أصلهما ولكنهما واجهاها بأنهما سينتقمان من أمها شر انتقام وسيحاولان التشهير بها وسجنها واسترداد المُلك ثانية منها، حاولا تكبيلها وقراءة تعاويذ تجعلها تعود لأرضها، فأظهرت قوتها الكامنة بداخلها، فجعلت الغرفة تدور بهما، واستدعت قوة الرياح لتأخذهما بعيدًا عنها، فأحدث هذا ثقبًا كبيرًا في الحائط

وبالفعل انجذبا لأن قوتها التي خزنت لسنوات ولم تستخدم كانت أكبر من قوتهما، تفوّها بمرادهما:

- سنجده، سنجد صندوق روحك وبعدها سنستعيد كلّ شيء سلبتموه أنت وأمك منا

رائف وزوجته لم يريدا إلّا إعادة المُلك، وكسر شوكة الملكة زمردة العدو الوحيد له، والآن وقد علم مكان ابنتها وهيأتها التي تجسدت عليها كلّ ما يريده الآن هي قارورتها الفيروزية المخبأة بصندوق محميّ بتعاويذ تعلّم كثيرا فكّها، لأنها الدليل الوحيد الذي إذا وجده سيكون هو مفتاح كنز لا ينقطع

عاد توماس وكاميليا من حفلتهما فرحين منسجمين تاركين جوزيف العريس مع عروسه وقد اتفقوا أن يكون ميعاد فرحهما بعد أسبوع من تاريخه، ليجدا كمّ الخراب الذي لحق بالمنزل، فأسرع مهرولًا ليطمئن على أخته، فوجدها بين الحطام بالأسفل تستند برأسها على الحائط الذي يعلم جيدًا أن الصندوق مدفون به، أزال كلّ الهوالك من أمامها، اقترب منها واستفهم عن سبب هذا الخراب، فجاوبته بنشيج قلبها:

- أتى رائف وهنوف إلى هنا، كانا سيأخذانني معهما، هما الآن عرفا حقيقتي، وبالتأكيد لن يستسلما، سيؤذيان أمي ويشهران بها، لن يتركانا بحالنا، لا بد أن نهرب يا وحيد، أنا

أصبحت خائفة

حضنها وحيد بشدة وواساها وأظهر أنانية شديدة:

- لا أستطيع ترك كاميليا هنا، وهي بالتأكيد لا تستطيع ترك ابنها بعدما اقتربت منه، أعلم أنكِ تتعذبين هنا لأنك الوحيدة التي تستطيعين كشف حقيقة الأمور، والحقيقة بالتأكيد أسوأ بكثير من الواقع، كنت أشك أن جوزيف متعاون مع رائف، ولكن لم أعتقد أبدًا أن اقترابه من أمه وسيلة لينتقم رائف منكِ، انتظري من أجلي يا أختي، ولا تخافي، لن أتركك ثانية

ذهب إلى الأعلى وهو لا يعلم أن كاميليا سمعت كلّ ما دار بينهما، عرفت الحقيقة، ولكن هل تستطيع مواجهتها، بالطبع لا

وانتهى اليوم، ونام كلٌّ بمكانه ولكنهم أجساد فقط، أرواحهم هائمة في ملكوت حياتهم التي اتضح أنها كذبة

مرت الأيام، وبدأت وئام بالظهور معهما كسابق عهدها، فالسرّ قد انكشف لها وانتهى الأمر، ولا بد أن تبقى معهما، فالقوة في الوحدة وليس التشتت، تزوج جوزيف من عروسه التي يحبها، وازداد تفوق جوزيف حتّى أصبح عالمًا بمجال دراسته، حملت زوجته وأنجبت طفلا جميلًا بهيًّا،

فرحةُ الجدة ومبتغاها، ترددت كامليا كثيرا هي ووئام على بيت ابنها، أحبت وئام الطفل كثيرا حتّى أنها غلفته بتعاويذ الحماية، وكانت كلما زارته قرأت عليه آيات القرآن ليكون بمنأى عن الشر المحيط به، انشغلت الزوجة عنه وتركته لجدته ترعاه، الأمور أصبحت مستقرة نوعًا ما، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة

لجأ رائف لخطته الثانية، التشكيك واختلال الثوابت ونزع الثقة، بدأ في بثّ أفكار مغلوطة في عقل كاميليا عن توماس، الذي مازال توماس بالنسبة لها، فجعل جوزيف يتكلم معها ذات مرة عن الحديث الذي سمعه من قبل من أبيه، وعن الوقعة التي حدثت، وعن حقيقة أن توماس هذا ليس أخاها، فقالت له:

- يا بنيّ، لقد تربيت مع توماس وعشت معه عمري كاملا على أنه أخي، لم أر منه نظرة واحدة توحي بغير ذلك، حتّى بعد معرفتي لحقيقة علاقتنا، يكفي أنه ترك كلّ شيء، ترك هواياته وحبه للموسيقى وشهرته في روما، وأتى معي إلى هنا لأجدك، يكفي أنه حارب لأعود طبيعية بعد ما فقدت عقلي في بعدك

رفع جوزيف جرعة الشك وهو يبخّ سمّ الأفعى التي تسيّره:

- ولكنه مسلم، وهذه خطيئة أن تعيشي مع إنسان ليس

على ديانتك، وأن تعتبريه أخاك "

قالت: الدين الإسلامي يقول:

- "لكم دينكم ولي دين"

وهذا ما يعاملني به توماس منذ أمد طويل، لم يجبرني على ديانته، وكان يصطحبني إلي الكنيسة في أيام الآحاد

ظل جوزيف يزلزل العلاقة بين توماس وكاميليا، حتّى تغيرت كاميليا على توماس، لم يكن رائف يريد مصلحة جوزيف، ولكن يريد أن يحدث خللًا في صفوف العدو فيرتبك، ويظهر بارتباكه المخفي فيقتنصه منهم

تغير جوزيف على أمه ثانية وابتعد عنها، ومنع الصبي عنها، قال إنها تعيش حياة مليئة بالخطيئة ولن يسامحها الرب، بكت كاميليا كثيرًا، دمعت كثيرًا، أهينت من ابنها كثيرًا عندما كانت تذهب له ويصدها ويطردها ويغلق الأبواب في وجهها، خيّرها بين توماس وبينه، وما أصعب الاختيار، كاميليا تعلم حقيقة أمر ابنها وأنه منساق خلف قوى من الظلام يصدقها ويطيعها

اختارت أن تترك توماس وهي تعلم جيدًا أنه لن يتركها ويذهب، وذهبت لتبقى بحضن ابنها، ذهبت وليتها ما ذهبت، عاملها جوزيف ثانية بقسوة، حبسها بغرفة، وقيّدها بسريرها،

وعادت كاميليا للوجع من جديد، صرخت وتألمت ونادت كثيرًا على توماس، هي تُرجِع معاملة ابنها هذه الي إحساس الانتقام لأبيه منها، ولكنها لا تعلم أن رائف تركه وذهب، وأصبح عمله وعلمه على المحكّ، نبوغه وتفوقه أصبح كاذبًا، علاقته بزوجته أصبحت سيئة، تركته وانتقلت لمنزل أهلها

شعر جوزيف بانهيار حياته، فلجأ لوسيلة رائف للإيقاع بوئام ابنة الملكة زمردة، هو وحيد مَن يشعر نحوه بشيء مختلف، رائحة الجان تلمس أنفه كلما اقترب من وحيد، ولكنها رائحة بعيدة آتية من أعماق المحيط، ووحيد وسيلة الضغط عليه كانت كاميليا، وكأن كاميليا جاءت هذه الدنيا لتكون هي الجانب الضعيف في كلّ حكاية، جاءت لتتعذب وتتحمل أخطاء لم ترتكبها، وللأسف فعل جوزيف ما أمره به رائف ليرضى عنه، وسجن كاميليا وفعل بها ما فعله أندريه من قبل

حاول توماس رؤية كاميليا كثيرًا، ولكن في كلّ مرة يخبرونه أنها لا تريد رؤيته، فأصبح الحزن رفيقه، هل يبتعد ويتركها أم يبقى؟ فهو يشعر بغصة لا تنتهي في قلبه، لا يطمئن عليها أبدًا معه

حلم بها وهي تناديه وتصرخ:

- توماس أنقذني، وحيد لا تتركني

سمعها وشعر بها، ذهب لمنزل ابنها متلصصًا، ودار حول البيت ليقتفي أثرًا لحبيبته التي خبأها في القلب عمرًا كاملًا، ذهب للتي لم يرض أن يلوث علاقتهما الشفافة العفيفة بأي شهوات، فاختار المواجهة وسيصير ما يصير، فلن يصير أسوأ مما صار

وجد غرفة مغطاة بستائر سوداء مختلفة عن ستائر بقية البيت الشفافة، فطرق النافذة طرقة خفيفة واختبأ، فلم يفتح الشباك من أحد، فهمس بقرب النافذة بصوت خفيض:

- كاميليا، أنتِ هنا؟

انتظر ليسمع، فسمع أنين صوتٍ منهك، فدقق البصر، وجد فتحة صغيرة بين الستائر قد كشفت عن جسد هامد على سرير الغرفة مكبل اليدين، نظرت لجهة النافذة، فعرف أنها عادت لتكبل بيد فلذة قلبها

ذهب مسرعًا إلى وئام، سقط على الأرض أمامها، قبّل قدمها وتوسل إليها وبكي:

- أرجوكِ أنقذيها وأنقذيني من حياة أصبحت لي ولها كالجحيم

سقطت وئام على الأرض أمامه وأمسكت بذراعيه وقالت:

- انهض يا أخي فداك عمري، ماذا ألم بك؟ ماذا أصابك؟ وماذا أصابها؟

وقف ونظر لعيني أخته وبكي بقهر وألم:

- كاميليا عادت لتتعذب ثانية، يفعل بها جوزيف الآن ما فعله أبوه من قبل

اختطفت أنفاسها ووضعت يديها على قلبها، فبقدر حبها لأخيها أحبت حبيبته، عاشت معها سنوات كأختها التي لم تولد من جنسها :

- كاميليا يا حبيبتي، كم تعذبتِ في هذه الدنيا

قال لها وحيد:

- لا بد أن هناك طريقة لإنقاذها، أرشديني إلى طريقة أهزم به رائف هذا

سكتت وئام دقائق، فصبر عليها وحيد حتّى تكلمت:

- ألا تستطع إخبار الشرطة بتهمة جوزيف بحبس أمه في بيته؟ وهنا ستستطيع ذلك بسبب قوة منظمة حقوق الانسان

قال وحيد:

- لقد خطر لي هذا الحل، ولكنه ابنها، وبسهولة يستطيع

الحصول على إفادة أنها كانت تعالج في مصحة عقلية من قبل، ولذلك لا أستطيع، وبسهولة سيتمكنون من إثبات عدم صلتي بها

تكلمت وئام:

- هناك حل آخر، ولكن لا أعلم هل هو متوفر هنا أو لا

وأكملت:

- الشيوخ أو المعالجة بالقرآن أو بالإنجيل، ولكن لا بد من قوة إيمان تتعدى قوة الجن المتلبس وقابلية الإنسان للتخلّص منه، وهذا أعتقد غير متواجد في جوزيف، جوزيف يفعل كلّ هذا بأمه بسبب رائف وليرضي رائف كما فعل أندريه من قبل

تشتت وحيد ونظر لها بحيرة:

- حتّى هذا الحل سيكون حلًّا ثانويًا، أسمع كثيرًا عن هؤلاء الشيوخ والقساوسة المنتفعين بالأموال خلف كلّ هذه الأعمال، وأعلم مدى الأذى الذي يلمّ بالمريض، وهذا بالتأكيد لن يجدي مع جوزيف لأنه عالم وغير مقتنع بأنه مريض

قالت: لا يوجد إلّا حل واحد قد أجّلتُه للنهاية لخوفي أنا شخصيًا منه، الحل الوحيد لهذا هو إما أن أعود أنا لبني

جنسي وأستردّ قوتي وأطلب المدد من أمي وأحاربه كما حاربته في السابق، وحينها حتّى وإن لم أهزمه فسأسرق منه قوته، ولن يستردها إلّا بعد فترة ليست بالقصيرة، وإما....

وسكتت وئام ودموع الخوف في عينها

قال لها وحيد:

- وإما ماذا يا وئام؟ تكلمي

أسرعت وئام لتخرج قارورة فيروزية أخرى من حقيبتها، وتذكرت حين زارتها أمها آخر مرة للاطمئنان عليها أعطتها هذه القارورة وهي تغادر، وحينما سألتها وئام عن سبب إحضارها قالت:

- ربما يحتاجها وحيد أو ربما سيحنّ لأمه ويريد أن يكون معها

وها هو التوقيت المناسب لها، لا بد أن يختار وحيد لأي عالم سينتمي وصارحته:

- وإمّا أن تختار أنت هويتك وجنسك وتعود لأمك، وحينها ستعيد قوتك وستزودك أمي بقوة وجيش كبير لن يتمكن رائف من هزيمته

صمت وحيد وهو ينظر لعينها المنكسرة ويدها المرتجفة

وتلك القارورة الممتلئة بسائل فيروزي جذاب، وقد عاد ثانية للاختيار الذي ملّه طوال حياته، اختيار هويته، ولكن الآن الاختيار صعب، اختيار مؤلم، اختيار مميت، سيميت إنسانيّته ويتحول لجان هائم بين الخفاء والعلن، ما هذه الروح التي بداخله؟ لقد سئمها وكرهها

نظر وحيد لوئام، وجدها تبكي بحرقة قلب أخت منفطر على أخيها الوحيد وسندها، اقترب منها وحيد وقال لها:

ماذا بك يا أختي تبكي بكل هذه الحرقة؟

قالت:

- يا وحيد، تركت أهلي وجنتي التي كنت أعيش بها لأكون بجانبك، ولكن أنت الآن تتركني وتذهب، ولكن من المتضح لنا أن البعد أصبح لنا واقعًا لابد أن يكون، فإما أنت مَن ستفارق وإما أنا مَن سأذهب

تنهد وحيد وخارت قواه، وجلس على الكرسي مستندا برأسه على المنضدة الدائرية في منتصف الغرفة، وضعت وئام القارورة بجانبه فسألها:

- ما قصة هذه المياة الفيروزية يا وئام؟

فأجابته:

- هذه المياة هي من بحيرة المحاياة، وهي بحيرة غريبة ماؤها يظهر كلّ سنة شهرا واحدا فقط، من يتمكن من الشرب منه يصبح مرئيًا للعالمين، يتمكن من السيطرة على مدى رؤيته، أي عندما يشربها، حتّى بنو الإنس يتمكنون من الحياة معنا، لكل فرد قارورة واحدة للعودة والذهاب، إذا انتهت لا يتمكن من العودة لحالته الأصلية مرة أخرى ويبقى مسجونا داخل جسده المتجسد عليه.

تهكم وحيد على حالته وهو يطرق يديه على المنضدة:

- والآن عليّ الاختيار أن أكون من الإنس أو الجان

ربتت وئام على يده:

- سأتحمل من أجلك يا أخي وسأساعدك على لقائك بأمك

وفجأة انتبه وحيد لكلمة أمك، قال لها:

- يا وئام، أنا سأختار هذا الاختيار فقط من أجل كاميليا، أنا لا أحبها ولن أحبها، هي أمك وحنانك ولكنها ناري وعذابي، أنا أبغضها وأبغض أبي، كلّ ما حدث لي بسببهما، كلّ ما حدث لي بسبب تخليهما عني، حياتي أصبحت لعنة لي ولكل من يقترب مني

حاولت وئام استرضاءه على أمه:

- يا وحيد، غدًا عندما تنخرط بحياتنا، ستعلم مدى اختلاف المقاييس عن حياتكم، الأسس متغيرة، والتفكير متغير، أمي كانت خائفة عليك من بني جنسها، فاطمأنت عليك مع أبيك، وما كانت تعلم أن كلّ هذا سيصيبك، يا وحيد أمي حنونة طيبة قلبها يمتلئ برقيّ العالم أجمع، وحنان العالم أجمع، وحكمة العالم أجمع، وإيمان العالم أجمع

استغرب وحيد الكلمة وقال:

- " إيمان !!"

قالت وئام:

- نعم، أمي أسلمت وحجّت إلى بيت الله، وهي الآن تدير حملة لإسلام شعبها، لا تقسُ عليها يا وحيد، هي الآن وحيدة وتحتاجك بقدر ما أنت تحتاج إليها

***

نشاز موسيـقي حـــاد

تخبط وحيرة بين معلوم وغير معلوم

بين الظلام والنور الآمن

دروب متقاطعة

وخيوط متشابكة

وقلوب نزفت حتّى جفت

تألمت، ارتجفت، ثم توقفت

تحتاج لانتفاضة حياة

وهل تأتي الحياة إلّا من ظلمة الرحم

وهل ينبثق النور إلّا من باطن الظلام

فالاستجارة وحيدة السبيل

ظلام دامس ينبثق من داخله نور الحياة

(٢٩)

معركة الظــلام

إحساس بالتخبط والحيرة، تيه يتبعه تيه، يتبعه طريق لا أعلم نهايته، ولكني مجبر على سلوكه، تبع النور الظلام، أم تبع الظلام النور، ليس هذا هو الفارق معي، ولكن الفارق هل أنا الآن في النور أم في الظلام، ما عدت أستطيع التفرقة بينهما، و مادام النور قاسيًا فلماذا لا ألجأ للظلام ليحميني؟ وها أنا ذا في الظلام أتجول

بعد تلك الليلة التي عرضت عليّ فيها وئام هذه القارورة، تركتها وذهبت أتجول في الشوارع، أحاول أن أجد ما يجعلني أتمسك بهذا العالم بوحشيته وظلمه، حتّى وجدت نفسي أقف أمام بيت جوزيف، أحاول أن اتبين حال كاميليا، سمعتها والناس نيام تصرخ باسمي، لم تناد توماس، بل كانت تصرخ بوحيد، حينها هرولت على بيتي وفتحت القارورة التي كانت بمكانها على المنضدته تنتظرني، وشربت حتّى قادني حماسي لشربها كلها، ولم أتذكر أني لا بد أن أترك شيئا للعودة، أبعدتها عن فمي وتركت بها نقاطًا صغيرة لا تذكر، لا أعلم هل ستساعدني على العودة أم لا، وجدت نفسي قد انتقلت تلقائيًا إلى هنا، في أرض غريبة ومكان أغرب،

بيوت أشكالها مختلفة، حديدية هذه أم فولاذ؟ فالأجسام النارية أين تسكن إلّا في هذه البيوت؟ المكان ليس مظلمًا ولكنه مضاء إضاءة باهتة، وكأن النهار يغيب والسماء ملبدة بالغيوم؟ الأرض لونها أحمر، الكائنات المتحركة حولي أيضا غريبة، كنت أتوشح بالسواد، عباءة سوداء، ورأسي مغطّى أيضًا بشال أسود، أمشي بينهم بخطى مرتجفة، كلّ ما أعلمه أني لا بد أن أتوجه لقصر الملكة زمردة، حاولت أن أسير بين هذه المخلوقات أبتغي أثرًا يصل بي إلى القصر، لا أريد الحديث حتّى لا يظهر أني غريب، سمعت أحد الباعة في الأسواق التي مررت بها، كان يقول إن الملكة مجتمعة بالشعب عند ساحة القصر لأمر عاجل، فانتظرت أتلكأ بالمسير حتّى ساروا إلى باتجاه القصر، وسرت خلفهم، فالجموع متوجهة لاتجاه واحد، حتّى ظهر لنا القصر من بعيد، قصر مهيب أعمدته عملاقة، وأسواره عالية، وقد فتحت أبوابه للعامة، فوقفت بين الجميع وكأني منهم

استمر الحشد في التجمع حتّى انتهى، وبعد ربع ساعة تقريبًا بدأت جحافل من الضباط يطوقون المكان، فانتفض صغير كان يقف بجانبي، فربتث على كتفه أمه وطمأنته:

- لا تخف يا بنيّ، هم يحموننا لكي لا تنقضّ علينا جماعات المردة الشريرة

استقر الجميع بمكانه متحمسين لخروج الملكة من بوابة القصر الداخلية العليا، متشوقين لرؤية إطلالة الملكة زمردة المتألقة، فتحت البوابة، وخرج الحرس الخاص بالملكة، صمت مدقع، الكل متأهب للقاء

وكانت المفاجأة التي ألجمت ألسن الجميع، الملكة تخرج عليهم بزي شرعي إسلامي محتشم، بعد ما كانت الملكة مثالًا للأناقة غير المحتشمة، الشعر المصفف بأحدث صيحات الموضة واللباس الكاشف الواصف.

نادى أحد حراس القصر:

- الملكة زمردة المبجلة

فعزفت لأول مرة أمامي نغمة السوناري من مصدرها الأصلي، فعلمتُ أنها نغمة تحية ملوك المملكة التي أنتمي إليها، وبمجرد أن عزفت النغمة ركع الجميع على ركبهم منكسين رؤوسهم ورافعين أيديهم اليمنى كتحية للملكة زمردة هاتفين:

- تحيا الملكة زمردة، تحيا ملكة العدل والحرية

لم أركع معهم، ونظرتُ نظرة ثقة للملكة وكشفتُ عن وجهي، فتلاقت نظراتنا التي كان ظاهرها التحدي وباطنها الحنين، كان التقليد السائد هو ألّا يستقيم الشعب ولا يرفع

جسده إلّا عند نهاية النغمة، فأشارت الملكة لهم بإطالتها لكي تطيل النظر لي وتتمعن، هل أنا بالفعل من كانت تحلم برؤيته؟ وبيدها أشفقت على ظهور شعبها، فأوقفت النغمة التي كانت تؤذيني، علمت أن هذه النغمة هي حقيقتي، هي عالمي الذي كان يناديني، مهما كنت أتلاعب بها وأغير رتمها كان الأصل واحدًا، الجذر واحد، ولن ينسلخ الفرع من الجذر إلّا سيؤدي إلى هلاك الفرع وموته، حياة الفروع مشروعة ولكن حياة الجذور واجبة

استقام الجميع وتكلمت الملكة:

- شعبي الأصيل المناضل الأبي، شعبي الكريم، شعبي العاقل المتعقل، أعتذر لكم، لقد كانت هذه آخر انحناءة منكم لملك أو لملكة أو لمخلوق مثلكم، لن يكون ركوعنا بعد الآن إلّا للخالق، لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد

تلفتت الأنظار تستشفّ القصد من حديث الملكة:

- علمتُ أن هناك جماعات منتشرة بينكم تدعوكم للإسلام، وأنتم تعلمون جيدًا أنني منكم، مصلحتكم مصلحتي، وميولكم ميولي، وأنتم أمانة عندي، ليس من مملوك، ولكن من الله مالك كلّ شيء، فتقربتُ من هذه الجماعات، فأصابني ما أصابكم، رق قلبي كما رق قلبكم، وارتقت روحي

بارتقاء أرواحكم، فآمنت كما آمنتم، وأسلمت لمن أسلمتم له، الله ربي كما هو ربكم، ومحمد رسولي كما هو رسولكم، ودعوته سنحملها من بعده، وتكون لنا هي قضيتنا التي لا بد أن نتمها حتّى نقابله بضمير هادئ وروح فدته حتّى ارتقت وعلت لتراه "

أكملت الملكة حديثها:

- لقد أعلنت الملكة زمردة ابنة شامير أن مملكة الظلام أصبحت مملكة إسلامية تتبع الدين الإسلامي، وهو سيصبح الدين الرئيسي للدولة، وكما قال الله في كتابه " لكم دينكم ولي دين "، فنحن سنعطي الحرية لمن يدين بدين غير الإسلام، لكي يعيش معنا، لأنهم أصحاب كتاب، وأمرنا الله بإكرامهم، وأما المغرمون بعدم التدين ولا هوية لدينهم فقد نظمت قوافل لنقلهم إلى مملكة مجاورة تستقبل الملحدين من الممالك المظلمة، ولكن المتدينين سيعيشون بيننا بسلام دائم، وستكون مهمتنا أن ننقل ديننا لقرنائنا من الإنس حتّى لا يتمردوا علينا "

أما الآن، فقد أصدرت قرارًا بعدم الركوع لمخلوق، كلنا لا بد أن نركع للخالق فقط

سكت الجميع، وسمعتهم يهمهمون خائفين من مكر الملكة، ظانين بأنها تحيك لهم الخدع لكي تكشف من أسلم ومن لم

يسلم

حركت الملكة يدها لشخص وقد صعد على أعلى مكان بالقصر وأعطت له إشارة البدء، فأذن الصاعد لأعلى أذانًا دمعت العيون من صوته، ورقت القلوب له، فمنهم من بكى، ومنهم من تغيرت ملامحه لطاعة وخشوع، فغلبت رقة قلوبهم على تحذير عقولهم بالتخفي لعدم كشف الإيمان، ولكن التفت الجميع للملكة التي أحنت رأسها، ووضعت قبضة يدها اليمني على قلبها، وظلت في حالة خشوع حتّى انتهى الأذان

رفعت رأسها عندما انتهى الأذان وقالت للجميع:

- ستكون هذه الطريقة هي تحيتنا بعد ذلك، لن أسمح لشعبي بالخضوع والركوع حتّى ولو لي، لن نركع بعد الآن إلّا لله فقط

هتف الجميع:

- الله أكبر الله أكبر، عاشت الملكة زمردة

أشارت بيدها قائلة:

- ولكن مهمتكم لن تكون هكذا فقط، سنبني المساجد في جميع أنحاء المملكة، سنقيم ندوات لتدريس الدين وتأصيل

قواعده، سنعمل لدعوة الجميع وسنرسل للممالك المجاورة، ولا بد أن تعلموا أننا لسنا في حالة سلام، أعلم جيدًا أن بينكم من يفكر الآن بالانقلاب على مملكتنا الجديدة، وأعلم أن هناك هجمات خارجية لعدم توغلنا في الممالك المجاورة، كونوا حذرين وتكاتفوا لتصنعوا مستقبلًا مشرقًا لأبنائكم

وعندما تفوهت أمي بكلمة أبنائكم نظرت لي بنظرة حب، وحينها علمت أنها تعلم أني هنا، فتحدثث سرًّا مع أحد حراسها، وفي ثوانٍ انتقلث إلي غرفة مغلقة فخمة، وكأنها نومتني مغناطيسيًا، لم أشعر كيف انتقلث فجأة إلي هذه الغرفة التي كانت ذات أثاث راقٍ يشبه أثاث قصور الأرض الفخمة، وما زلث أسمع صوتها وهي بالخارج تقول:

- دمتم سالمين شعبي الأبي، مبارك عليكم إسلامكم، ومبارك عليكم إعفاؤكم من الضرائب

هلل الشعب وغنى فرحًا بمحبوبته، وسمعتها تقترب وهي تأمر الحراس بعدم إزعاجها، وجهث وجهي للنافذة، فكانت هي في مقابلة مع ظهري، لا أريد أن تراني ضعيفًا والدموع تسيل من عيني، دخلث وأغلقث الباب من خلفها، اقتربث عدة خطوات وقالت جملتها:

- لماذا أتيت الآن؟

سكتُّ ولم أردّ، في محاولة مني للضغط عليها، فسألت ثانية وهي خائفة:

- هل حدث سوء لناردين ابنتي؟

تكلمتُ وأنا أدير لها ظهري، وكنت أتألم أضعاف ما تألمت في السابق، ما كنت أتخيل أبدًا أن يكون لقائي بأمي الحقيقية بكل هذا الفتور وكل هذه القسوة، فجاوبتها بما أتلقاه منها:

- لكي أحمي كاميليا من سطوة رائف وأعوانه

كنت أحاول مراقبتها بالمرآة أمامي، فرأيتها تمسح دموعها وتحاول أن تهدئ من ضربات قلبها التي هي الآن كالسوط عليها، يداها ترتعشان شوقًا للمسي، تقسو وقلبها يحنّ، وتدعي الفتور وهي تغلي شوقًا وحنينًا

اقتربت مني، وربتت على كتفي بيديها، فانتفضت، فتبادلنا النظرات من السطح العاكس أمامي، فرأت دموعي وهي تسيل على وجهي كالأنهار، فتجمعت حبال صوتها وقالت:

- سامحني

أدرتُ لها جسدي وتنازلتُ عن رؤيتها المزيفة، لأواجه وجه أمي لأول مرة بحياتي وجهًا بوجه، عينا دامعة بأخرى

مقهورة، قلبًا ينزف بآخر محطم، وكانت كلمتي:

- بكل هذه السهولة؟ سامحني؟ سامحتك يا أمي، هل انتهى إلى هنا كلّ شيء؟

حياة كاملة تهث بها بين عذاب وألم وحيرة من شخصية لأخرى، وبين عائلة لأخرى، وبين أرواح أزهقت من أجلي، وأخرى تعذب حتّى الآن من أجلي، وكل هذا لعدم تحملك أنتِ وهذا الرجل مسؤولية شهواتكما وهواكما المريض

تكلمتْ وفي عينيها توسل وإذلال، هذه هي الملكة التي كانت من ثوانٍ تهتف باسمها الجموع، الآن تتوسل لي أنا:

- أنت لا تعرف أي شيء عمّا كنتَ ستلاقيه هنا إن كنت معي، وحتى إن كنت مع أبيك كنت ستعذب من الإنس، ويطلق عليك ابن الخطيئة، فاخترنا لك حياة توَهّمْنا سعادتك بها

ابتعدتُ عنها وعلا صوتي:

- نعم، أشكركما ولن أنسى لكما معروفكما، فسعادتي كانت غامرة حقا، وأنا الآن لأني سئمت عالمي السعيد بين الإنس، أتخلى عنهم لأعيش معك في العالم المظلم، في العالم المخيف المتسلط، في العالم الذي كان سيذيقني أشد العذاب إذا اعترفتِ بي، أنا الآن أتيت لأواجه هذا العذاب بنفسي،

فقط من أجل حبيبتي التي لم تُرِد من الحياة إلّا عيشة سعيدة، وها هي تتعذب من أجلي، فأرجوكِ أعينيني أن أقتله، هذا فقط كلّ ما أريد، لتكون كاميليا سعيدة

قالت الملكة زمردة:

- لن تكون لك أبدًا يا وحيد، حتّى وإن أنقذتها فلن تتمكن من الاقتراب منها بعد الآن

صرخت بها، وبحزن جاوبتها:

- لا أريد الاقتراب منها أبدًا، هي بالنسبة لي مازالت أختي، وأنا لها ما زلتُ أخاها، كلّ ما أريده هو إنقاذها فقط، فهل يمكنك مساعدتي؟

قالت الملكة زمردة:

- بالتأكيد يا بنيّ يمكنني دحر رائف وحمايتها منه، ولكن ما يجعلني أصبر على رائف هو خوفي من أن يؤذيك أنت وأختك بسبب تخليكما عن قوتكما بالتجسد

زودتني الملكة بقوى التخفي وقوى الوسوسة، لكي أتمكن من التعامل في عالم الإنس بقواي الجديدة، تدربت أيامًا وأسابيع، تعلمت تعاويذ وطلاسم قوية، كان الأمر شاقًّا للغاية، فكيف أقتنع الآن بما كنت أتخيله طوال حياتي مجرد

هراء؟ وكيف أتعامل مع من اعتبرتهم مجرد نفس أو عقل يوسوس ليس إلا؟ تعاملت معهم وألفت شكلهم، علمت أن منهم القوي والضعيف، وأن منهم الغني والفقير، وعلمت أن منهم الشرير المارد والطيب المسالم الذي يخاف من البشر، علمت أنهم عالم موازٍ لعالم الإنس، مشابه له تمامًا، ولكنه فقط غير مرئي، ربما يخافون منه ويدافعون عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة، يحاولون استرجاع ميراثهم في الأرض، من الكائن المتجبر الطيني، أذاعت الملكة خبر عودة ابنها من المنفى والذي كان مع أبيه الملك نائل المنفي

وعدتُ إلى الأرض، ولكني غير الذي خرج منها، مختلف تماما بطباعي وقواي وحواسي، أسرعتُ الخطا لوئام التي أصبحت وحيدة بعد غيابي، ولذلك فرحت كثيرًا بعودتي، أخبرتها بخطتي لإنقاذ كاميليا، والتي كانت لوئام شرف البداية، فقد ذهبنا إلى بيت جوزيف، فالمرئي للجميع أن وئام هي وحدها التي ظهرت، ولكني كنت معها ولكن لا أحد يراني، فتح الباب الابن الصغير ذو الثلاث سنوات، فدخلتُ أقتفي أثر كاميليا، ودخلت الغرفة من بابها المغلق وأنا اسمع بالأسفل وئام تسأل زوجة جوزيف عن كاميليا وتنهرهم وتريد أن تطلب الشرطة لهم

دخلت أنا الغرفة فلم أجد كاميليا التي أعرفها بها، هذا الوجه

الضاحك المفعم بالحيوية والأمل انطفأ وأصبحت عظامًا غير ظاهرة الملامح، ولا يظهر منها إلا تجاويف العين والأنف والفم، يكسوها لحمٌ مهترئ ونحيل، روح تصارع الموت، تتنفس بصعوبة بالغة، وهي تهتف بصوت ضعيف: توماس، أين أنت يا توماس؟ كيف تتركني ثانية؟ أنقذني، وعندما ظهرتُ لها فجأة من بين العدم انتفضت بشدة، ومن قوة الانتفاضة وضعف جسدها غابت عن وعيها

اقتربتُ منها وكسرتُ قيود يديها وقدميها، وقرأت عليها بعض الطلاسم التي تعلمتها، فاختفت عن أعين الجميع وحملتها، شممتُ رائحة كريهة، ولامستْ يدي فضلاتها، حينها أقسمتُ على الانتقام من رائف شر انتقام، ومن جوزيف ابنها أيضًا، سأعذبهم كما عذبوها، وسأذيقهم من كأسهم المرير لها

هبطت على السلم، ولاحظتني وئام، فأنهت حديثها مع زوجة جوزيف لتفتح باب المنزل ونخرج، وبالفعل فتحت وئام باب المنزل فوجدنا جوزيف أمامنا، ولم يكن وحده ، كان معه رائف أيضًا، وعندما خطوت أولى خطواتي خارج المنزل هتف صوتٌ أجشّ من خلفي:

- إلي أين تأخذ أمي؟

فعلمتُ أن المعركة بدأت ولا بد من المواجهة، فاستدارت وئام وقالت له:

- أنت تكلمني يا جوزيف؟

قال بثقة ونظراته تشع نارًا وحريقًا هائلًا سيشتعل:

- لا، أنت تعلمين جيدًا مع من أتكلم

لا أريد مواجهته، كلّ ما أريده هو إنقاذ كاميليا أولًا، فتجاهلته ناويًا العودة له ولرفيقه

فتخطيتُ عتبة المنزل بها ولم أستدِر له، ولكني وجدت أمامي جدارًا هائلًا يمنعني من الحركة

التفتُّ إليه وتحركتُ بكاميليا حتّى أسكنت جسدها الهزيل على أريكة قريبة من الباب، ووقفت أمامه وجمعت قوتي، وقبضته من رقبته، ومن قوة القبضة ارتفع معي جوزيف، لا ورائف، فقد تذكرت من قبل مشهد كاميليا وهي بهذا المشهد عند موت زوجها، تكلمت بقوة:

- اتركنا واذهب استردّ ملكك إن عرفت أن تسترده، فأنت ضعيف لا تقوى حتّى على إعادة ما سرق منك، اترك كاميليا ووئام وزمردة والجميع، اتركهم واذهب بعيدًا حتّى لا أوذيك

وعندما رأت زوجة جوزيف المشهد صرخت، فزوجها المرتفع في الهواء ولا ترى من يفعل به كلّ هذا، ومشهد حماتها الملقاة على الأريكة وكيف خرجت من غرفتها المغلقة

ومفتاحها مع جوزيف فقط؟ أشار لها جوزيف: ادخلي احمي ولدنا وكوني بجانبه .

خرج رائف من جوزيف وسكن بزوجته فلم يستطع وحيد ايذاءها، فترك جوزيف يسقط على الأرض، ووقفت زوجته تتكلم بصوت مريع:

- لن أترككم حتّى استردّ منكم كلّ شيء سلبتموه مني، لن أسامحكم، سأكشف وئام وسأكشفك، وسأحارب زمردة وأعيد للشعب ديانته الأصلية

تكلم وحيد بصيغة التحدي:

- لن تستطيع فعل أي شيء لهم طالما أنا موجود، سأحميهم وستكون أنت مسجونًا

لم تستطع زوجة جوزيف التماسك، فأغمي عليها، فأسرعت إليها وئام لتنقذها، وفي الوقت نفسه صرخ جوزيف بشدة:

- زوجتي، ماذا بك؟ لا تتركيني أرجوك

وصرخ رائف أيضًا وقد رأى موت زوجته هنوف في جسد زوجة جوزيف، انشغل جوزيف بزوجته التي أغمي عليها، وانشغل رائف بزوجته التي ماتت بسبب وحيد وتعاويذه

استطاع وحيد أن يهرب منهم لينقذ كامليا، نقلها إلى

المشفى، وظلّ بجانبها هو ووئام شهورًا، ولم يحدث أي تحسن في حالتها، فخارت جميع قواها واكتفت من الحياة بكلّ هذا التعذيب، ولكنه الأمل إذا شق أسوار النفس ينبت بداخلها مروجًا مثمرة، حاول وحيد أن يجعلها تتعلق بالحياة من جديد، علمت بحمل زوجة جوزيف ببنت، حاول وحيد التقرب من جوزيف ومحاولة ترقيق قلبه على أمه وتقريبه منها، ولكن جوزيف كلّ ما كان يهمه هو نبوغه الذي سلب منه بسبب بعد رائف عنه وحزنه على زوجته، ولأن الاستسلام لم يكن يوما من طباع الأشرار ملعوني النفس، فهدوؤهم شحن لطاقة الانتقام، ولن ينتقموا من القوي إلّا في نقطة ضعفة، فطالت لعنة الانتقام الابنة الصغيرة وهي في بطن أمها بفعل تصرفات أمها غير المسؤولة، فولدت مشوهة مصابة بمتلازمة داون، وبالرغم من أن أمها حقنت نفسها بهرمون معالج لهذه الحالة إلّا أن تأثيره جاء عكسيًا وزاد الحالة سوءا، وبالرغم من نفور الناس من الطفلة الوليدة حتّى أبويها، إلّا أنها لم تجد إلّا حضن جدتها يحتويها، كبرت بحضنها وتقربت منها، منذ أن وضعها أبواها في مدرسة داخلية لإخفاء أمرها

ولكن حالة كاميليا ازدادت سوءا وأدركت أنها راحلة، ولم تجد إلّا قصر الإسكندرية ملاذا أخيرًا، لها فطلبت العودة إليه بعد ما فقدت الأمل في حنان ابنها، سافرت هي ووئام رفيقة

عذابها، وبقى وحيد عدة أيام أخرى لسداد آخر ديونه لها، وعندما لحق بهما كانت كاميليا تزفر أنفاسها الأخيرة، كانت لحظات قاسية عليهم جميعا، بكى على يديها كثيرا يطلب الغفران لحياة أظلمت بوجوده فيها، ولكنها فتحت عينيها وأطلقت بفيها رصاصات الرحمة عليه:

- أحبك يا وحيد

ارتجف قلبه لسماعها وحاول تصحيحها:

- توماس !!

فجاهدت لوصل خيوط صوتها المتقطعة:

- لا، أحبك يا وحيد

كنت أعلم طوال الوقت من أنت، ولكن لم أكن أستطيع البوح، كنت أشعر أنك ستبتعد عني، أنت كنت أماني في الحياة

رد وحيد:

- لا، أنا كنت لعنتك، سامحيني أرجوك

فكأنها كانت تسرق لحظات سعادة أخيرة من الحياة لتموت راضية سعيدة:

- وحيد، أنت كنت أماني وسندي، كنت أشعر بالأمان بقربك، وما أهِنتُ إلّا في بعدك عني، أحببتك ورغبت بك، كنت أريد أن أصرخ لك، أريد أن أفرح معك وأريد أن أعيش حياتي مع من أحب، ولكن اشتياقي لابني كان يؤلمني دائمًا

أعلم أن وئام أختك، وأعلم ماهيّتكم، ولكني ما خفت منكم لحظة، كنتم دائمًا سبب سعادتي

تحشرجت أنفاس كاميليا، فبكى بجانبها وحيد وسقطت على يدها دمعة أعلنت عصيانها، وقبّلها لأول مرة بشدة، تنفست كاميليا شهيقًا وكانت تزفره بصعوبة، وحينها تمسكت بيده بشدة وكانت آخر كلماتها:

- أحبك يا وحيد

فصرخ وحيد بشدة عندما أحكمت الحياة قبضتها على آخر لحظات سعادته، فكانت الدنيا أهون عليه بوجودها، ولكن الآن حان وقت الانتقام لتنعم الأرواح في ذلك الأخدود الدائم.

استُدعِي وحيد بعدها إلي مملكة الظلام،عقد اجتماعًا عاجلًا لكل وزراء المملكة وقيادتها، وأعلمته أمه أن رائف ترك جوزيف وذهب يجمع جيشًا هائلًا مسلحًا من الملحدين الذين خرجوا من المملكة، وتجمعوا ليقتحموا المملكة، ولا بد

من محاربتهم والتخلص من رائف

وعندما يفترض العدو أن الحزن نقطة ضعف يهاجم من خلالها عدوه يكون قد سطر بغبائه أول سطور هزيمته، افترض رائف أن موت كاميليا سيضعف وحيد، ولكن للانتقام قوة تشعل طواحين العزيمة وتزلزل كيان المنتقم، قرعت طبول الحرب، واجتمع الجيشان في ساحة المعركة، وارتفعت أصوات البوق تشعل الحماسة في قلوب الجنود، وكانت للسوناري السيادة في تحميسهم، ولكنها لم تشعل في داخل وحيد إلّا طواحين الذكريات المؤلمة، أصبحت الحرب على نفسه وعقله وذكرياته، لا يحارب رائف، كان يحارب ذكرياته ودموعه وأنينه، يحارب من جعلوه يتألم، أظهر قوة هائلة نابعة من غضبه، ثأر لكامليا وناردين وسيلينا ونفسه

وعندما دارت الدائرة وانهزم جيش رائف حاول الهرب، فلحقه وحيد، فهو المقصود من كلّ هذا، ولن يتركه ينعم بحياته بعد الآن، وفي منطقة بعيدة عن ساحة الحرب واجهه وجهًا لوجه، وعذابًا بعذاب، وألمًا بجرح نازف، سيفان مشهوران، وعينان شاخصتان، وعقلان يفكران، لمن الأولوية بالهجوم؟ وفي لحظة تلاعب وحيد بها بالاختفاء، فالتف رائف يبحث عنه، فحاول الهرب ثانية، ولكن وحيد أشهر سيفه أمامه ووضعه بسرعة على رقبته فصرخ رائف:

- لن تتمكن من قتلي

فهمس وحيد بأذنه الطويلتين بخبث:

- لن أقتلك، سأعذبك أولًا

فهتف بوحيد:

- لن تستطيع تعذيبي، فأنت خليط ممسوخ، ليست لك هوية ولا أرض ولا عالم تنتمي إليه

فبادله وحيد استفزازه باستفزاز أكبر:

- ولأني ممسوخ أحبتني ناردين وهربت منك، وضحّت من أجلي زمردة وسلمتني مملكتها، وأفقدتُك هنوف وقتلتها، وقتلتُ جيشك بأكمله وخسرتَ معركة حياتك

صرخ به رائف وهو يحاول التخلص من قبضة وحيد عليه:

- لن تتمكن من أذيتي، سأقتلك وسأسلبك كلّ ما تملك

تركه وحيد، فأسرع رائف ليلتقط سيفه من على الأرض وما إن لمسه حتّى تحول إلى سيف من الماء أحرق يد رائف فابتعد عنه

بدأ وحيد بقراءة القرآن وهو يشكل السيف ليصنع قيودًا على يد رائف، وهو يصرخ:

- اخرس، أغلق فمك، هل تتخيل أني سأخاف من هذا الكلام، لم ولن يخيفني، أبعد هذا عني، الماء يقتلني، اتركني، سأذهب وأدعك لك كلّ ما تريد

لا يريد وحيد قتله، كان يريد إضعافه فقط، ولذلك لم يطلْ عليه قراءة ورد القرآن القاتل لرائف، سحبه وحيد من يده حتّى وصل لساحة المعركة، فهتف الجنود باسم وحيد وكبروا لله، وآمن من أُسِر من الجنود وخضعوا .

عاد الجميع لداخل أسوار المملكة، هتف الشعب بالنصر، وسعدوا بالغنيمة التي وزعت على الشعب بالتساوي، حكم على رائف بالسجن في صندوق في ساحة القصر، قضبانه من ماء مثلج، ومقيد من قيود مائية، تحرق جلوده وعظامه، وكلما تآكلت تجددت من جديد، ليتألم من جديد، شهور وسنوات، يتلقى هذا التعذيب والاستنفار من الشعب المار عليه، ليكون العذاب من جنس العمل، ليتذوق من نفس كأس عذاب كاميليا

تنازلت الملكة عن حكم المملكة لوحيد ابنها، وتفرغت للدعوة ونظمت قوافل للممالك المجاورة، امتلك وحيد زمام الأمور، وأصبح الملك الجديد لمملكة الظلام، والمحبوب بين أفراد شعبه، وذاع صيته بين الممالك المجاورة، وظلت ناردين حبيسة صندوقها تنتظر لحظة تحريرها والعودة

لأهلها، فقد اجتمع الشمل إلّا منها، وظلت وئام هناك كما هي تحمي الإرث وترعى الأمانة، حتّى موعد تسليمها لمستحقيها

***

النغـــمة الرابعـــة عشـــرة

الانـــتـــقـــــام

غضب يتبعه غضب يتبعه شعور بالألم

جراح تنزف، وأنين دائم مؤلم

براكين للظلم تتفجر

نفوس جاحدة، وقلوب متجمدة

تأبي الخضوع

تأبى البكاء

تأبي الاعتراف بالخطأ

مستمرة، متمادية، متكبرة

للحقيقة خافية

خائفة

من انتقام يقترب

فأين المفر؟

(٣٠)

انتفــــاضــــة

انتفضوا من نومهم الهانئ في غرفتهم الفخمة خافتة الإضاءة بعد يوم حافل بالتجارب والتعاقدات والمقابلات الهامة على صراخ الزوج من جديد، فأنارت منال الغرفة لترى ما حدث لزوجها، فوجدته يلهث على مضجعه بجانبها، سقته كوبا من الماء وتساءلت:

- ماذا بك؟ هل أتاك هذا الكابوس من جديد؟

فسألها سؤالًا مقابلًا:

- أين مالك؟ هل قابلتِه قريبًا؟

جاوبته منال بإجابة دبلوماسية لتهرب من شجار فعلي ترى بوادره في الظهور:

- ألم تتخلص من هذا الطبع بعد؟ أسألك سؤالًا تجاوب عليه بسؤال آخر؟ ماذا حدث لك هل تجدد الكابوس القديم؟

جاوبها أخيرا:

- نعم تجدد، ولكن من كان ينقذني هذه المرة هو مالك، أين هو؟

جاوبته بانزعاج:

- لماذا عاد من جديد؟ ألم يكن قد تركك وذهب منذ فترة؟ ماذا فعلت ليعود إليك؟ يكفينا ما أصابنا منه

صرخ بها جوزيف:

- جاوبيني أين مالك؟ هل قابلتِه قريبًا؟

جاوبته منال:

- نعم قابلته منذ مدة، كان ذاهبًا لروما مع أصدقائه ولكنه عاد سالمًا ولكن ..

نهضت منال من مضجعها، وارتدت روبها وتوجهت للأريكة المقابلة لجوزيف وهو يصرخ بها:

- ولكن ماذا؟

فجاوبته وهي تتناول مشروبها من الثلاجة الصغيرة التي بالغرفة:

- ولكن علمت من مصادري أنه تقدم لفتاة وخطبها

تغيرت ملامح جوزيف وعقد جبينه:

- كيف ذلك؟ ألم يكن له أهل ليخبرهم؟

فأردفت بغيظ:

- أنا أعلم لماذا لم يخبرنا

فانتبه لها جوزيف منتظرا حديثها فأكملت:

- (لأنها مصرية)، وسكتت

ثارت الثورة في داخل جوزيف، وانفجرت النيران الملتهبة، وانتفض من مكانه، وأخذ يجول ذهابًا وإيابًا بالغرفة:

- ألم أنهه عن مخالطة المصريين؟ ألم أحذّره منهم؟ لماذا يفعل بي هذا الولد كلّ هذا؟ أحاول أن أبعده عن الماضي وما حدث به، أحاول أن أضمن له معيشة مريحة سعيدة، وهو ما زال يبتعد عني ويذهب ليلقي نفسه بدائرة الخطر، لقد حلمت به يا منال كالسابق

كنتُ حبيسًا مع وحش كاسر في سجن واحد ومعي مالك، فأحاول فداء مالك ولكن الوحش يريد افتراسه، وفجأة أسرع مالك ليحتمي بالوحش مني، فانقضّ الوحش عليّ وأخذ يفترس أجزائي وأنا أصرخ، ولم أجد من ينقذني منه، فقط كاميليا من بعيد تبكي، أنا متأكد أن ابني في خطر ولا بد أن أنقذه .

همّ جوزيف بارتداء ملابسه وعزم على الخروج للقاء مالك وردّه عن أفعاله، فأوقفته منال بهدوئها:

- لا تفعل شيئًا، أعرف ابني جيدًا، فهو عنيد لن يأتي معك، اصبر، سأجعله يأتي هو إلى هنا، وحينها افعل معه ما تريد ...

فهدأ جوزيف لأنه يثق بمنال وقدرتها على التصرف، واستقر على الأريكة التي بجانبها، ولكنه سألها:

- أشعر بأن هناك ما تخبئينه عني، هل تعرفين شيئًا لا أعرفه؟

نظرت له نظرة تردد، هل تخبره أم لا؟ ولكنها استقرت على إخباره:

- هل تتذكر (إلينا) المسؤولة عن ياسمينا بمدرستها الداخلية؟ لقد استدعتني اليوم وهي تحتضر

تعجب جوزيف بخبث:

- هل ماتت إلينا؟ ولكن لماذا استدعتك؟

جاوبته منال:

- لم تحدثني كثيرًا، فقد أعطتني عقدًا كانت تلبسه ياسمينا، وتوسلتُ لها أن تخبرني مكان قبرها، فقالت جملة واحدة فقط: "لن يغفر لكِ الرب أبدًا"، وزفرت أنفاسها الأخيرة، ولم أتمكن من معرفة قبر ابنتي، ولأن إلينا الوحيدة التي كانت تعلم مكانها وقد ماتت الآن فسأعيش عمري كاملًا لا أعرف

ابتسم جوزيف استهزاءً بها وتعجّبًا منها، وتوجه لمضجعه ليستكمل نومه:

- أتنتظرين يا منال غفران الرب لكِ بعد كلّ ما فعلتِه في الماضي؟ أتعتقدين أن خطيئتك تغتفر؟ نامي، ولا تنسي مالك، أريد أن أراه قريبًا في المنزل

وفي الصباح الباكر بعد يومهم الشاق السابق في منزل الأحزان اتفق ماهر ومالك ورقية على الاجتماع في مطعم الفندق لتناول الإفطار وتبادل الأفكار التي تجعلهم يخرجون الماضي الدفين من داخل تلافيف عقل دكتور يوسف أندريه والد مالك، وبعد اتصال صباحي رومانسي بين مالك ورقية طلب من رقية في نهايته سرعة ارتداء ملابسها للقاء ماهر بالأسفل، وخلال تجهيز رقية نفسها، طرق باب غرفة رقية فأسرعت الخطا إلى الباب وهي تنهر مالك ظنًّا أنه الطارق:

- ألم أخبرك أني سأنزل مباشرة عندما أنتهي؟

فتحت رقية الباب لتجد سيدة أنيقة تعرفت عليها من مظهرها ومن حديث مالك عنها، هي السيدة منال والدة مالك، فارتجف قلب رقية واحمرت وجنتاها، ورحبت بها بصوت مرتجف:

- أهلا وسهلا بحضرتك، هل يمكنني مساعدتك؟

لم تستأذن منال بالدخول فدخلت الغرفة مباشرة، فعلمت رقية أنه حان اللقاء المنتظر التي كانت تفكر به كثيرًا، وحدث الصدام شاءت أم أبت

كانت الغرفة غير مرتبة والملابس مبعثرة فتهكمت منال عليها باشمئزاز:

- الطبع المصري المعروف عدم التنظيم

تأسفت رقية منها وأزاحت أشياءها وخبأتها بالخزينة معللة ذلك بأنها مسرعة للحاق بميعاد تأخرت عليه

فباغتتها منال بسؤالها:

- ميعادك مع مالك وماهر بالأسفل؟

أسرعت رقية بالرد غير مظهرة الضعف والخوف ولكن القوة حتّى لا تتمادي السيدة المصون:

- ومن أنتِ حتّى أخبرك بأسراري؟

قالت منال بتحدٍّ وهي تنظر في عينيها:

- أعلم أنك تعلمين جيدًا من أنا، ولكن لكِ أن أعلمك أنا الدكتورة منال والدة مالك ...

ابتسمت رقية ورحبت بها ترحيبًا يليق بمكانة مالك بقلبها فباغتتها منال بالحديث:

- اسمعيني جيدًا ولا تقاطعيني

أنا أكره المصريين ولا أتمنى أن يتزوج مالك منهم أبدًا، وأنتِ تعلمين أننا في صدام مع مالك بسبب معتقداتنا وأفكاره، ولذلك أتوسم أن تكوني أنتِ نقطة الالتقاء بيننا، تجعلينه يقترب منا ثانية، أنا وأبوه نريده أن يعود ليعيش معنا، وإذا حدث هذا سأوافق على زواجكما، وإذا لم يحدث فخافي على أخواتك البنات عندما تفقدين سمعتك وتخسرين وظيفتك، سأجعلك تعودين الي مصر ومعك سمعتك السيئة

اغتاظت رقية من حديثها واحمرّ وجهها غضبًا وقالت لها:

- ألم تلاحظي أنك تهددينني؟ ومثلي لا يهدد أبدًا

فلم تعط لها منال فرصة الكلام، توجهت للباب وهي تقول سأنتظركما غدًا، سنتناول العشاء معًا عندي

وعندها طرق مالك الباب وهو يهتف في الخارج

- رقية، أنتِ بخير تأخرتِ يا حبيبتي

فتحت له منال الباب، فكانت نظرات الاندهاش متبادلة

على وجوههم، ولكن تجاهل مالك أمه، ونظر خلفها لرقية ذات الوجه الشاحب وسألها:

- رقية، أنتِ بخير؟

أومأت رقية برأسها وطمأنته عليها، فغضبت منال وأزاحته من أمامها وخرجت من الغرفة وذهبت

على طاولة بعيدة عن الزحام بجانب الزجاج المطل على الشارع، جلس ماهر مهمومًا خائفًا من اكتشاف أمره، يفكر كيف الهرب وكيف يتنصل منهم؟ وهل الاختفاء الحل أم المواجهة،؟ ولكنه انتبه من شروده على صوت مالك الذي يضحك بتهكم على شكل رقية

فتساءل ماهر عن سبب حالة رقية واصفرار وجهها مع إظهار قلقه عليها، نظرت له نظرة أحالته صامتا، فهي لم تسامحه بعد، ولن يعود الحال لما كان عليه بهذه السهولة إلّا أن يظهر ما كان يخبئه لسنوات، ولكن مالك أنقذ الموقف وقال بطريقة خفيفة:

- لقد تقابلت رقية اليوم مع حماتها لأول مرة

وبعد شرح طريقة التعارف الأولى والصدام الذي حدث، أبدى ماهر استحسانه للموقف ورؤيته أنها الفرصة المناسبة للاجتماع بوالد مالك وسؤاله عن لغز الصورة، وأبدى مالك

أيضًا موافقته على الفكرة، ولكن رقية ما زالت خائفة ترى أن الدكتورة منال تخفي مخططًا عظيمًا للتفرقة بينهما

وفي الميعاد المحدد تجهزت رقية للقاء أهل مالك لأول مرة، فارتدت ثوبًا أنيقًا يليق بأناقة الدكتورة منال، مستشفة من ثيابها أن اللون المفضل لديها هو اللون الأسود الأنيق، فكانت به كالغزال الواثب برشاقة وجمال، فلمعت عيون مالك عند رؤيتها، فانتفض قلبه حبًا واشتاق صدره لاحتضان فتاة أحلامه والتحليق بها بعيدًا عن الأحزان والألغاز، ليسرقوا من الزمن سويعات حب صافٍ طاهر، ولكنه على الوعد الذي قطعه مع أبيها

فتحت البوابة واستُقبِلوا بكثير من الترحاب والأحضان والاشتياق، الوالد ينظر بضيق والأم تتصنع السعادة والانسجام، المعاملة غريبة والأمر يفوق الأذهان، وخصوصًا مالك الذي يرى تغير الأحوال ويستشف خبث النوايا ومكر العقول، ولكن رقية ترى سيدة لم ترها بالأمس القريب والتي كانت سيدة أنيقة متكبرة متعجرفة ذات لسان متسلط وحاد، ولكنها الآن تحولت إلي تمام الود والمرح والبساطة والترحاب، تغير يثير الاضطراب والحذر، ولكن ما أثار حفيظة مالك فتور العلاقة بين والده وبين ماهر، لماذا اضطرب يوسف عند لقاء ماهر؟ لماذا يتجاهله ولا ينظر له؟

الأمر بالتأكيد عظيم، واقتربت الحقيقة من الظهور فليستعد الجميع

ولإسقاط الفريسة لا بد من إعطائها الأمان، فمن طيب الاستضافة شعر الجميع بحنان وحنين زائد، دُعي الجميع للطعام، الأمور تسير بانتظام، وبعد الطعام اجتماعٌ يسرُدون من لطائف المواقف والأحاديث الهضام، ظن الجميع أن الأمر سيمر بسلام، ولكن أين السلام في اجتماع لا يحضره إلا قوى الظلام ...

ملّ مالك من التظاهر بالوفاق، وبدون استئذان أخرج الصورة ووضعها على الطاولة المقابلة لوالديه، ونظر لهما باستفهام

فقال الدكتور يوسف:

- من أين أتتك هذه الصورة؟

قال مالك:

- لا يهم من أين أتتني الصورة، ولكن ما يهمني من هم بالصورة؟ وما علاقتك بهم؟

نظر الدكتور يوسف لمنال زوجته بغضب وحملها المسؤولية، فهي من كانت مخولة بإخفاء آثار الماضي من

منزل الأحزان، فجاوبته بعينها ألّا تتكلم، فلن يجلب لنا الكلام إلّا العذاب، سكت الجميع مثبتين الأنظار منتظرين، رفع الستار عن الكلام غير المسموح المخبّأ بالسنين والأعمار، التفت الجميع للدكتور يوسف، فقد دارت الأيام وجاء وقت الكلام، فحركه غروره وانساب منه الكلام:

- هذه للأسف جدتك يا مالك

صرخت به زوجته:

- جوزيف ماذا ستقول؟

تعجب مالك:

- جوزيف !! من جوزيف هذا؟

تكلم والده وهو ينظر الي والدته وقال:

- لا بد أن يعلم الحقيقة، ما دام قد وصل لهذه الصورة فالحقيقة ستصله حتّى وإن رفضنا نحن الكلام

اندفعت منال للصورة وأرادت تقطيعها، وكانت المفاجأة أن الصورة صامدة لا تنقطع، وكأنها تأبى التلاشي، فصرخت وقالت:

- لا، لن أسمح لابني أن يدخل دائرة ظلامك العفنة، ادخلها وحدك واغرُب عنا

تدخل مالك فقال:

- أنا منساق بداخلها بالفعل يا دكتورة منال، ولن أتمكن من الهروب منها، والآن إما الصدق وإما الخراب الذي سينال من حياة الجميع

خطف منها جوزيف الصورة ووضعها أمامه ثانية، وتكلم اليها بصوت خفيض:

- لا تخافي، لن أفشي سرك حتّى لا يعلم ماذا فعلتِ بأخته

نظرت له بخوف، ونظر الجميع لها، الكل منتظر، الكل متأهب، الكل خائف ومضطرب، فتساءل مالك بصوت مرتجف:

- ماذا فعلتِ لأختي؟

ولكن جوزيف باغته بالإجابة على أسئلته السابقة بنِيّة تشتيته وهو يشير إلى الصورة أمامهم:

- وهذا وحيد عشيقها

اتجه الجميع بأعينهم للصورة، فلم يتأثر بالجملة إلّا اثنان؛ أولهما منال والتي اندفعت ناظرة لمالك تخبره:

- لا يا بني، هذا أخوها بالتبني ما كان يوما عشيقها

ولكن جوزيف لم يكن ينظر إلّا إلى ماهر الذي لاحظ اضطرابه وانصباب العرق منه بمجرد أن سمع اسم وحيد، حتّى طلب الذهاب ليغسل وجهه بمياه نظيفة غير ملوثة بحثًا منه عن مخرج من هذا البيت الذي سيتحول إلي نار مؤججة بعد ثوانٍ، وهربًا من حقيقة تطارده ولا تريد التنصل منه

فنظر له جوزيف نظرة تحدٍّ وقال:

- لن تتمكن من الخلاص منّي، فدية المقتول من القاتل واجبة، وهروبك لن يجدي

فتسعرت أعين جوزيف وأصبحت نيرانًا مشتعلة، وغرق ماهر في عرقه، واندهشت وجوه الجميع طالبة الإجابة على الأسئلة المطروحة

ظلت أعين ماهر وجوزيف معلقة ببعضهما، فردّ ماهر جوابه بثقة:

- دُفعت دية المقتول وانتهى الأمر

انتفض مالك من مجلسه وقال:

- من القاتل؟ ومن المقتول؟ وماذا حدث لأختي؟ ومن بالصورة؟ أريد إجابات محددة وواضحة وإلا ذهبت بدون

عودة أبحث عن الإجابات في الخارج، وحينها لن أعرفكم ثانية

دمعت عيون منال واستغاثت بجوزيف حتّى لا يقذف ابنه بالحقيقة المرعبة، فالجزاء سيكون من جنس العمل، ولم يكن العمل هيّنًا حتّى يكون الجزاء هيّنًا، فخوفها من ردّ فعل مالك جعلها تخفي عنه الحقيقة

قال جوزيف لمالك اجلس يا بنيّ سأخبرك الحقيقة كما رأيتها بعيني، فنظر للصورة وأشار:

- هذه أمي، كانت جميلة رقيقة، ولكنها كانت تعشق وحيد هذا والذي كان مسافرًا إلى روما، أحبها أبي المهندس أندريه ولكنها كانت تحب وحيد، رأيتها وهي تريد قتل أبي من أجل وحيد المختلط، وعندما منعهما أبي من الهرب معًا قتل أبي على يد عم حسن، ومَن عم حسن يا ترى؟ إنه جد ماهر وأبو وحيد، ولكن من هي أم وحيد يا مالك؟ أم وحيد هي ملكة من ملكات الجان، لها من الجبروت والعظمة ما يفوق توقعك

وعند هذا الحد أسكتته منال باعتراضها:

- كفى يا جوزيف كفى، يكفيك ظلم وافتراء، والدك هو من كان يعذب أمك وسرق منها أموالها، وأخوها لم يأت إلّا لينقذها ... وما قتله حسن العجوز إلّا لينقذ أمك من قبضته،

يكفيك انسياق خلف شيطانك الذي ساعدك لتبقى ما بقيت عليه، وأنت بدونه ما كنت حققت شيئًا، أنت لسْتَ سوى عبدٍ لشيطان لا يمتلك لنفسه شيئًا سوى الخراب ...

- اصمتي يا قاتلةَ ابنتك، هذه هي الحقيقة ولا حقيقة سواها

قالها جوزيف يحاول تبرئة نفسه وأبيه وشيطانه، فنهرته منال قائلة:

- أنا لم أقتلها، هي ماتت وحدها

فأخرج من جيبه أداة جريمتها والتي كانت حقنة من الهواء تزيد نسبة الأكسجين في دمائها فتموت

- وماذا تقولين عن هذه يا دكتورة منال؟

سكتت منال ونظرت لما بيده وقالت:

- أنت من قتلت إلينا بالأمس

- لأنها كانت ستفضحك فأردت لكِ النجاة التي تمنيتها دائمًا

صرخت منال:

- ياسمينا ابنتي كانت ستتعذب إن عاشت على هذه الحالة، أعلم أن جيناتها كانت متطورة، ومع إصابتها بمتلازمة داون

كانت ستغير من شكلها إلى الأسوأ بل الأقبح، وكانت ستعاني كثيرًا إن كبرت، كنت أنقذ ابنتي

فسألها جوزيف:

- ومن فعل بها هذا غيرك وغير طمعك العلمي؟ ألم أمنعك أن تحقني نفسك بهذا العقار وأنتِ حامل؟

كان مالك ورقية يسمعان ما يحدث وهما خائفان متعجبان من النفوس الجاحدة أمامهما، قتل وخيانة وعبدة شياطين، ما هذا المستنقع الذي سقطا به؟ اختنق مالك ودمعت عينه، فلاحظت رقية انهزام نفسه، فلمست كفه بلمسة حنان توحي له أن الحياة ما خلت من الأنقياء بعد، ولكن للحظة نظرت رقية للصورة فرأت شبح السوناري الذي يظهر لها، فأشارت لمالك عليه، فرآه وسمع نغمة السوناري التي بدأت تعلو فأصمت سمع الجميع، فقال ماهر لها:

- هذا وحيد عمي، الأخ غير الشقيق لأبي، رجل مختلط نصفه إنسيّ ونصفه جنّيّ، وهو الذي كان يظهر لكم

شخصت عيون رقية ومالك لكلام ماهر الذي كان يدرك الحقيقة منذ وقت طويل ولكنه خبأها وخان العهد معهما

سكت الجميع لثوانٍ، فتكلمت منال:

- يكفي لهذا الحد، والآن لقد علمت الحقيقة كاملة يا مالك، أرجوك ابتعد عنا واذهب بعيدًا عن هذا المستنقع، فالقرب لن يزيدك إلّا ذهولًا

فأسكتها جوزيف وقال:

- لا، لن يخرجا من هنا حتّى يسلمني الصندوق الكائن في حقيبة رقية، هذا فدائي لأخي الذي يتعذب على يد وحيد

فضغطت رقية على يد مالك طلبًا منه للخروج من هذا المكان، فقاما وتوجها لباب المنزل، ولكنهما فجأة توقفا وثبتا، وكأن أقدامهما تسمرت في أماكنها، وسمعا صوت جوزيف الذي تغير وازداد غلظة واهتزازة مخيفة

- أنا رئيف الأخ الأصغر لرائف أكبر أعداء وحيد، جئت إلي هنا لكي أفتديه بصندوق روح ناردين، اتركوه واذهبوا إلّا وسيكون الهلاك مصيركم

تغيرت الأجواء فجاءة، وصارت حرارة الغرفة عالية، الكل يتصبب عرقًا، وفجأة تغيرت ملامح ماهر وتوسعت حدقة عينه، ونظر لجوزيف نظرة تحذير وتكلم بصوت غريب يميل إلي صوت النساء الجهوري:

- اذهب يا رئيف لجحورك، الصندوق لهما ولن تستطيع إيذاءهما بشيء

الكل تسمر بمكانه لا يستطيع الهرب، المواجهة اشتدت وتجمعت قوى الظلام مع قوى النور، وكان التفكير السائد لعقول كلّ من مالك ورقية ومنال كيف الهرب؟ انتبه الجميع لرد رئيف الذي بجسد جوزيف على الملكة الظاهرة على جسد ماهر:

- لن أتركه لكِ، هذا دليل براءة رائف، سأنقذ أخي وأسجن ابنتك المتجسدة في الجسد البشري طوال عمرها وأقتل وحيد ابنك، سأحيلكم إلي بحور الخزي والخطيئة، ستكونون عبرة لممالك الجان أجمعين

انقضت عليه الملكة زمردة بجسد ماهر والتي ضعفت بحكم سنها الكبير، ولكنها أحكمت قبضتها على رئيف الذي بجسد جوزيف وأجلسته مقيدًا، لم يكن رئيف وحيدًا، كان معه جيشٌ من الجان الموالي لرائف المسجون المعذب من سنوات، كلّ ما يريدونه هو الحصول على الصندوق المخبأ به روح ناردين

وبينما أوهمهم رئيف بالخضوع للملكة والهدوء، كانت بالخلف رقية يطوقها مجموعة من جنود رائف، حتّى أخفوا الرؤية عنها، هي لم ترهم ولكنها شعرت بهم، شعرت باختناق مفاجئ وحرارة آتية من كلّ اتجاه، تمسكت بالصندوق وحضنته وصرخت بمالك:

- أنقذني يا مالك، لا أرى شيئًا

خدعهم رئيف بخطة محكمة، فصلهم عن الواقع، وجعل كلًّا يرى رؤية بعين الخدعة، يتعامل مع واقعه كما ترى عينه، فصلهم عن حسهم عن شعورهم، جعلهم منومين بالظلام، لغى من عقولهم التفكير، الكل مطوق بالجنود، يظن الجميع أن الظلام حل، ولكنه الانتقام، يغير الألوان الطبيعية إلي سواد حالك، سواد الكره والضغينة والغضب

قيد الجميع بقيود الظلام، الكل يصرخ يستغيث، ولكن الملكة زمردة الوحيدة هي التي لم تطوق، حاولت إنقاذ الصندوق من رقية، حاولت الاحتفاظ بحق ابنتها بالعودة، ولكن قد فات الأوان، وأخذ رئيف الصندوق من رقية بعد ما غيبها وأفقدها قوتها، وهناك بجانب الغرفة رأت الملكة زمردة رئيف يحاول فتح الصندوق، والجنود من حوله، روح ابنتها ناردين الآن بين أيديهم، ولا بد من تجميع قوتها الهائلة لتفرق الجمع، حتى وإن كانت القوة المدخرة لحياتها، فحياة ابنتها أولى منها ولا بد أن تحيلهم موتى، ولكن تبدلت الأماكن وأصبح الصندوق بيد رئيف الآن، وقد بدأ ينفتح و ينبثق منه النور، وحينها أزيلت ستائر الظلام واتضحت الرؤيا، البيت يتصدع وينهار، صرخت منال:

- جوزيف، أخرِج هذا من بيتي، البيت سينهار، أرجوك عد

لرشدك،

رقية مغمى عليها في جانب الغرفة، ومالك يسرع إليها لينقذها، وعندما فتحت عينيها قالت لمالك:

- الصندوق، اللعنة ستحلّ

ماهر يقف أمام جوزيف يتكلم بكلمات غير مفهومة يتمتم، ولكن جوزيف يتكلم:

- أنا رئيف أخو رائف الأصغر، لن أنصاع لكِ أيتها الملكة المسلمة، سأنقذ أخي من قبضتكم وسأحيلكم في السجون، سأعذبكم كما تعذبون أخي، روح ابنتك ستهيم بدون مأوى، سأسحقها كما سحق ابنك روح هنوف زوجة أخي

تكلمت الملكة زمردة على لسان ماهر بكلمات غير مفهومة علمنا أنها توسل أو تحذير من فتح الصندوق، وقبل الفتح بثوانٍ كان مالك يقترب ببطء من أبيه جوزيف ليأخذ منه الصندوق، وعندما شعر جوزيف بنية ابنه، وجه له بيده طاقة كبيرة دحرته إلى جانب رقية أرضًا يتأوه من جسده، فأسرعت إليه أمه

فأبعدها عنه وقال لها:

- ابتعدي عني فما عدتِ أمي، أمي ماتت مع ياسمينا

ولكن منال لم تبال برد ابنها فقالت له:

- اهرب سريعًا أنت ورقية، فالبيت سينهار

وفجأة تغير كلّ شيء، صرخ جوزيف صراخًا شديدًا وترك الصندوق أرضًا، فانقض مالك عليه فأنقذه منه، وألقاه لرقية المخولة بحماية الصندوق، أخذته رقية وخرجت هي ومالك وأمه مسرعين قبل انهيار البيت والذي كان قد بدأ في الانهيار الفعلي، وتبعهم ماهر والذي أصبح غير مرغوب به، فانسحق البيت على جوزيف جزاءً لظلمه لأمه وانصياعه لقوى الشر التي وإن نفعت كانت قد نفعت نفسها من الأساس وخرجت للنور

شاهد الجميع جوزيف وهو يصرخ ويقول:

- اتركني، سأنتقم منكم، اتركني

وهو يضع يده حول رقبته في محاولة منه لفك قبضة الملك وحيد من عليه، فانتقم وحيد منه وأخذ الثأر، وصدق عندما أقسم على أنه سيعذب جوزيف ورائف كما تعذب الجميع بسببهما، وسقط البيت عليه وهرول كلٌّ من مالك ورقية وخلفهما منال وماهر في النهاية يلهثون أنفاس النجاة الأخيرة

وفي مملكة الظلام صرخ وحيد صرخة الألم والفقد، عندما

وجد أمه صريعة من جراء الطاقة المستنفدة منها لإنقاذ روح ابنتها ناردين، وذهبت الملكة زمردة قبل لقاء ابنتها إلى ربها بعد ما جعلت الدين الإسلامي هو السائد، وانتشر في جميع الممالك بفضلها ومجهودها، فانقض الملك وحيد على رائف والذي أصبح هزيلًا في صندوق سجنه، فقتله انتقامًا لأمه وخلاصًا للعالم من أذاه، وبهذا فقد انتقم لكاميليا من ابنها الجاحد، وبقي فقط تسليم امانتها لحفيدها

وبينما صار المنزل ركامًا، وأصوات سيارات الإسعاف والشرطة، والإعلام والصحافة مجتمعون ليغطوا الحدث المؤلم للدكتور يوسف أندريه وزوجته الدكتورة منال رءوف، والذي راح ضحيته الدكتور يوسف، وتوالت الأخبار على القنوات الإذاعية والصحف، لقد خسرت الإنسانية عالمًا فذًا لن يتكرر مرتين، كانت رقية ومالك يحتضنان الأمل الضائع وخيبة الرجاء في الأهل وحتى الأصدقاء، مشهد جبار عاشه الجميع، خارج أسوار العقل، ولا يصدقه الوجدان، حقائق تشق القلب بخناجر الخيانة وتزيد الجراح جراحًا لا تلتئم، الأب والأم والصديق، عالم شرير وأصبح أحمق تحركه الغرائز، وتعبث به الشهوات، عقول منساقة لشياطين الإنس قبل أن تكون عابدة لشياطين الجن، نفوس مريضة وأخرى ضعيفة، وأخرى مظلومة محكوم عليها بالعيش بين هؤلاء وهؤلاء

وبينما هما صامتان يحاولان تفسير ما حدث وما سيحدث لهما، اهتز الكتاب في حقيبة مالك لينذر بانتهاء الحيرة وبداية مرحلة جديدة لم تكن بالحسبان، لم يتحرك مالك من مكانه وظل ينظر للكتاب وهو واجم، لم يقترب منه، ربتت رقية على كتفه وقالت:

- لا بد أن ننتهي منه يا مالك، أصبح ثقلًا، فماذا سيحدث لنا أكثر مما حدث؟

فنظر لها مالك بملامح مرهقة وعيون دامعة وقال بصوت منهك:

- كنت دومًا أشعر أن هناك سرًّا عظيمًا يخبأ عليّ، كنت دائمًا أسعى خلف الحقيقة، قاطعتهما وفي كلّ مرة كنت أنتظر لحظة افشائهما لأسرارهما، ولكن الآن عندما علمت الحقيقة تمنيت ألّا أعلمها، تمنيت ان يبقيا في نظري كما كانا، فقط مغرورين مغرمين بالعلم أكثر من حياتهما الشخصية، ولكن ما علمته الآن عظيم لا يستطيع عقلي استيعابه، فكم من مخبأ إذا عُلم تساقطت من عنفوانه الأشجار وثارت الوحوش له غضبًا وانحسرت من خذلانه البحار، ولكن لا بد من استكمال ما بدأته، فهو طريق مظلم لا بد أن أصل منه إلى نور

فطلبت منه رقية استخراج الكتاب لتعلم ماذا يريد منهما، فقال لها:

وماهر ماذا سنفعل معه؟

قالت له رقية:

- لا أعلم يا مالك، شعرتُ أنه مجبر على أمره، وأنه في هذا الأمر مسير وليس مخيرًا، ولكن لا أعلم لماذا لم يخبرنا من قبل عن كلّ ما يحدث له

وفي ركن بعيد عنهما، كان ماهر يجلس على الأرض وحيدًا يبكي، لا يريد خسارة أصدقائه الذين خسرهم بالفعل، ولا يريد أن يعيش حياته بخزي ما خبأه، ولكنه كان مجبرًا، وعند رؤيته مكسورًا إلى هذا الحد منهك القوى، رق قلب رقية له، فطلبت من مالك أن يذهبا له، وبالفعل اقتربا منه، وعندما شعر بهما أمامه بكى بشجن ونحيب قاتل لأنفاسه، فسقطت أمامه رقية وكذلك فعل مالك، وطلبا منه الهدوء والسكينة، فقال بصوت يهتز ألمًا:

- سامحاني، ما كنت أريد أن أخفي عليكما حقيقة الأمر والتي ما عرفتها إلّا قريبًا، ولكني كنت مجبرًا على الإخفاء، طلبتُ منها أن أخبركما، ولكنها رفضت وقالت لم يحن وقت الحقيقة بعد، والأمر معي قديم، حاولتُ أن أهرب منه لكي لا

أوذي ابنتي وزوجتي وأعيش بعيدًا عن كلّ هذا العبث الذي ما كنت أصدق أن أكون جزءا منه

ولكنها ماتت وانتهى الأمر

تعجبت رقية من بكائه فقالت له:

- ما الذي يبكيك يا ماهر؟ لا بد أن تفرح لأنك تخلصت من هذه اللعنة

جاوبها ماهر بأسى:

- لأني كنت أحبها يا رقية، الملكة زمردة كانت لا تريد إيذائي أبدًا، هي فقط كانت تريد أن تحمي ابنتها وابنها، حافظا على الصندوق حتّى تصلا به إلى صاحبته

اهتزت حقيبة مالك ففتحها وأخرج الكتاب منها والذي ما لبث أن لمسه حتّى انفتح على مصراعيه يغزل بخيوطة الذهبية كلمات باقية:

" للقدر أقوال أخري، ربما أقوال مؤجلة، انتظرت الفرصة، أو تهيأت لها الفرصة، أسرع إليها، فاقتناصها واجب عليك، أعد أمانتها تستلم أمانتك"

شعر الجميع أن الكلام لمالك فاهتز قلبه، وارتجفت أوصاله، لماذا يخاطبني الكتاب هذه المرة؟ أعد الأمانة جملة معروفة،

بالتأكيد يقصد الصندوق، وهذا سيجعلني أقابل ابنة الملكة المتجسدة، ولكن ما هي أمانتي عندها؟

وماهي إلّا لحظات حتّى اختفت الجملة المكتوبة من الكتاب، وظهرت تدريجيًا الخريطة التالية لتوجه الجميع إلى وجهتم، كانت الوجهة القادمة إلى الإسكندرية عاصمة الجمال والحب، فرحت رقية فرحًا شديدًا لأنها ستعود إلى وطنها بعد رحلة عناء شديدة غيرتها كثيرًا، ولكنها أكسبتها ملاذ حياتها ووطنها الصغير، ستذهب لوطنها عائدة إليه بطير مهاجر عائد بشغف وشوق لحياة كان يحلم بها طوال حياته

انتقلا إلى الوصف المكتوب في الجهة المقابلة للخريطة فكانت باسم (قصر البداية)

" ميراث الأجداد، سيحفظه الأبناء، ويعمره الأحفاد، فيه كانت البداية، ولن تكون فيه نهاية، ستتوارثه الأجيال، فيه سراديب تنبض بالحياة، أغلقت أبوابه بالصبر، وأحكمت نوافذه بالتضحية، ينتظر العودة من جديد، على أيدي المحببين العاشقين، لتتجدد الأسطورة، واستمرار الحياة "

وبعدها أغلق الكتاب وحده وعلم الجميع أن من هناك من الاسكندرية ستكتمل الأسطورة وتتجدد، ولكن ما زالت هناك حلقة مفقودة والتي سأل مالك رقية عنها:

- الآن علمنا كلّ من بالصورة وسبب وجودهم به، إلّا جدك يا رقية، لماذا وجد معهم؟

قالت له رقية:

- وهذا ما أحاول أن أفسره، لماذا هو معهم؟ ولكن بالتأكيد أبي عنده جواب لكل الاسئلة

***

النغمـة الأخيـــرة

مـيراث الأجــداد

ذكريات ماضٍ فات، مليئة بالعبر والعظات،

توالت عليها السنوات فأصبحت تفاهات

أو أموال وعقود وتركات

وفي الثراء نتقلب ونزداد

منهم الباقيات ومنهم الزائلات

فأما نحن فتائهون بين هذا وذاك

هم قد اختاروا العظات وذللوا الصعوبات

حتى ورثوا من الصالحات الباقيات

أما نحن فما اخترنا إلّا التركات الزائلات

فما لنا أثر، فقط مجرد تفاهات

(٣١)

قـصـر الـبـدايـة

كانت الرحلة من برلين إلى القاهرة ممتعة بالرغم من نفوسهما الجريحة وأجسادهما المنهكة، إلّا أنهما ما زالا مغلفين قلوبهما بغلاف آمن من الحب والأمل، وعندما هبطت الطائرة واستقرت بمطار القاهرة حلقت رقية في سماء وطنها سعيدة كطير فتحت له أسوار قفصه ليغدو سعيدًا في سماء الحرية، واستنشق مالك نسمات الوطن فكانت له كقبلة الحياة

وبعد العشاء والمداولات الطريفة مع أخوات رقية وحسن الضيافة والجو العائلي الذي أعاد له دفئًا قد نسيه، حانت لحظة الحقيقة، وبينما انشغلت الأم والأخوات بتحضير غرفة النوم وإنهاء أعمال المنزل، اجتمع مالك ورقية بوالد رقية في بلكونة المنزل الواسعة ذات الأريكة المتحركة والطاولة الخشبية والزروع الخضراء والورود المبهجة، لاحظ الأب شرودهما فسألهما:

- ماذا بكما يا أولاد؟ أراكما شاردين

نظر مالك لرقية وأعطى لها إشارة البدء بالحديث، فأخرجت الصورة ووضعتها أمام والدها، والذي ما إن رآها

حتى أعاد ظهره مستقيمًا للخلف ونظر لها بوجوم، وسأل سؤاله:

- من أين حصلتِ على هذه الصورة يا رقية؟

فارتجفت أوصال رقية وتلجلجت حروفها:

- هذا موضوع سيطول شرحه يا أبي، الآن فقط نريد أن نعلم ما علاقة جدي بالذين حوله

نظر السيد محفوظ لها بحزم، وبعد نظرة ثاقبة أرعبتها سألها ثانية:

- سؤال واحد سأسأله والجواب عليه لا بد أن يكون صادقًا، من أين حصلت على هذه الصورة يا رقية؟ هذا الأمر قديم وخطير سيجعلك بداخل دائرة الخطر، ولن أسمح لكِ بدخولك فيها، يكفي ما حدث لكِ بالسابق

نظرت رقية لمالك نظرة استغاثة، فأسرع مالك بالجواب:

- يا سيد محفوظ، لقد دخلنا عنوة بدائرة الخطر هذه منذ وقت ليس بقصير، وتكشفت لنا حقائق كثيرة لم تتكشف لنا ونحن بخارجها، ولكننا اقتربنا من الخروج منها ونحتاج مساعدتك

فتكلمت رقية محاولة طمأنة أبيها وهي تعلم جيدًا الجراح

التي ستفتح بكلامها:

- يا أبي، لقد هربتُ من الماضي ونسيته، ولكنه واجهني بمجرد ذهابي لبرلين وانفرد بي، كان لا بد لي من مواجهته وإلّا قضى عليّ كما فعل بأخي، هذا الكتاب الذي وجد مع جابر عند خروجه من القصر فرض نفسه علينا وأذاقنا الويلات عندما أردنا التخلي عنه، ولكن عندما انسقنا خلفه كشف لنا من الحقائق التي لم نعلمها وما زال يكشف لنا، ولكني أشعر أننا اقتربنا من الحقيقة، اقتربنا من مراده، فأرجوك ساعدنا يا أبي، فأنت لا تتخيل بشاعة ما مرّ علينا

سكت محفوظ وسألها بخوف من الإجابة:

- ما حدث لكِ كان بسببه صحيح؟

فأومأت برأسها وأعلمته أن الخطر ما زال يحوطها ما داموا لم ينتهوا مما يريده الكتاب، فثار الأب وانتفض من مجلسه، واستند على سور البرندة ناظرًا للطريق الذي خلا من المارة، فالليل قد انتصف ولجأ الجميع للراحة، ولكن مع محفوظ فقد استيقظ الألم والجراح القديمة وهجرت الراحة مضجعه

ومن خلفه رقية ومالك ينتظران الحقيقة ويأملان بأن تكون أهون مما تتكشف من قبل، اتخذ محفوظ قراره بأن الحقيقة لا بد وأن تظهر ولا يجب إخفاؤها أكثر من هذا.

عاد محفوظ لكرسيه واقترب منهما خافضًا صوته كيلا تسمع زوجته وبناته حديثه

- سأقص عليكما ما أعرفه، وفي البداية لا بد أن تعلما أن هذه الصورة مزورة، لأن أبي لم يكن موجودًا معهم في هذا المكان

قال مالك:

- ربما تكون هذه الصورة مجمعة للشخصيات المعنية باللغز، وأنا أشعر بذلك

قال محفوظ وهو ممسك بالصورة:

- وهذا ما أرجحه

نظر لها نظرة تمعن وبدأ الحديث:

- هذه السيدة كاميليا جميلة القصر، الطفلة المدللة لعائلة الخواجة أنطوان الإيطالي الذي كان يمتلك القصر المجاور لمنزل الإسكندرية، ذات يوم شاهد أبي الخواجة أنطوان وهو يهرب الصناديق بطريقة مريبة، ظن جدي أنها الآثار المسروقة، فسكت وقال هذا شأنهم، ولم يتدخل، ولكن بعد فترة استدعى الخواجة أنطوان أبي بالقصر، وعرض عليه شراء المنزل منه بثمن باهظ، فرفض أبي لأنه ميراث

أجداده، ولكن أبي هدده بأنه سيفضح أمره، ومن بعدها لم ينم أبي قط، كان كلّ ليلة يوصيني على أمي وأخواتي، حتّى هجمت علينا مجموعة مسلحة ليلا أخرجتنا من المنزل عنوة وطردتنا، وضربت أبي ضربًا مبرحًا، وقالوا إنهم أصحاب المنزل وإن أبي باعه لهم، صرخ أبي بهم ولم يصدق ما فعله الخواجة الطيب الوديع، الذي لا يعرفه أحد إلّا وكان المدح من نصيبه، انتقلنا بعدها إلي منزل جدي، وبعدها توفى أبي من أثر واقعة إهانته أمام أولاده، وبعد سنوات وسنوات عشت أنا أحمي أخواتي الصغار حتّى زوجتهم و تزوجت، وصل لي مظروف بعقد موثق للبيت باسم أبي مجهول المرسل، وبعدها انتقلت للعيش هناك، علم جابر بأمر الآثار، تطلع لها، ولكنه عندما عاد قبل وفاته قال لي:

" يا أبي أنا هالك لامحالة، إن السر عظيم، وما رأيته كان غريبًا حقًّا، فكنت مخيرًا بين الاستمرار بداخله وإما الخروج الهالك، فلم أطِق العيش بالداخل وكنت ضعيف القلب والنية "

وهذا كلّ ما أعرفه عن القصر وعمّن بالصورة

تقطّب حاجبا رقية وسألته:

- مَن الذي خيّر أخي بالداخل يا أبي؟

أبدى لها الأب عدم معرفته، فسادت لحظات الصمت على الجميع، وحاول كلٌّ من رقية ومالك ربط الأحداث، وإخراج صورة لمن بالقصر، فشعر مالك أن اللغز والميراث سيكون بالآثار المدفونة أسفل القصر، ولكن رقية لا تصدق أن هذا اللغز وما حدث من قبل كان لمجرد كنز وآثار وأموال، هناك شيء أكبر من كلّ هذا، فقالت لمالك:

- فلنذهب غدًا يا مالك لنتخلص من قصة هذا الكتاب

رفض الأب رفضًا قاطعًا دخولهما القصر، فهو ليس مستعدا لخسارة ابنته كما حدث لابنه من قبل، ولكن مالك كان عقله يتجول بمنطقة بعيدة كلّ البعد عن عقولهما وتفكيرهما، فنظر لرقية:

- لا، لن نذهب غدًا للقصر

تعجبت رقية من ردّه، فقد خمنت أنه هو من سيكون على عجله لمعرفة ما يكمن بالقصر، ولكنه نظر للسيد محفوظ:

- لن أذهب للقصر هذه المرة إلّا ورقية زوجتي

تورّد وجه رقية وابتسمت ابتسامة حب وخجل، وكان كما تعودت عليه رقية له القدرة الفائقة على قذفها من آبار حيرتها إلى أبراج حبه في ثوانٍ، انخفضت حدة الأجواء وهدأ السيد محفوظ، ولكنها قالت:

- ولكن العرس والتجهيزات ستأخذ وقتًا طويلًا

فوافقها مالك ولكنه اقترح:

- غدًا وبعد إذن السيد محفوظ سنعقد القران، وبعد زيارتنا للقصر سيتم العرس

فوافق الأب، وبمجرد معرفة الأم والأخوات حتّى علت الزغاريد وارتفعت أصواتهم بالأغاني، فكانت فرحة مالك متمثلة في نظرة السعادة في عين حبيبته، والتي تجهزت لتكون عروسًا رقيقة بسيطة فاتنة، وهو العريس الأنيق، وحضر المأذون وعقد القران، وباتا ليلتهما لا يفكران إلّا في قلوبهما النابضة بحب وسعادة وأحلام تسع العالم.

و في صباح اليوم الموعود تحرك مالك وزوجته رقية إلى الإسكندرية، عروس البحر وزينة البلاد، يرافقهما السيد محفوظ والذي رفض أن يتركهما حتّى بعد معرفته بعدم دخوله للقصر، إلا أنه خاف أن يتركهما في براثن هذا القصر

نسيم البحر يحرك أنفاسهما ويعلو بهما إلي أبراج الأمل، حبهما جعل من الماضي مرحلة وانتهت مستبشرين بما سيأتي عليهما من أحداث

توقفت السيارة عند منطقة على الكورنيش فترجلا ووقفا

ناظرين للبحر الذي أمامهما مضطربين، متمسكين بالأمل خائفين من ضياعه، ولكنهما عندما أدارا ظهورهما للبحر وجداه أمامهما، قصرٌ مهيب يحيطه سور حديديٌ عالٍ، وتظهر من داخله الأشجار الكثيفة، والتي تعجب مالك من تورقها وكثافة فروعها، ولكن رقية ارتعشت واهتزت عندما تذكرت مشهد أخيها وهو خارج من المنزل مسرعًا هاربًا مما وجده بالداخل، يشغلها المصير الذي سيجدانه بالداخل، شعرت بشعور ماهر عندما حدثها قبل ذلك عن خوفه من ضياع سعادته، فالسعادة كالماء إن لم تحافظ عليها انسابت وجفت ولم تتمكن من العيش بدونها، وبعد تذوقها تشتهيها وتخاف ضياعها

ربت مالك على يديها:

- مستعدة يا رقية؟

فاهتزت رأسها بالموافقة، وشرعا بالتوجه للقصر تاركين السيد محفوظ في مكانه بعد الأحضان والاستيداع ينظر لهما بخوف شديد وارتياب، ولكنه اطمئن عندما وجد الباب يفتح لهما بسهولة ويسر، بعكس ما كان يحدث في السابق، حتّى الشرطة لم تتمكن من فتحه، أغلق خلفهما فاستودعهما الله، ووقف ينتظر خروجهما، ولكن هناك من ارتجف قلبه بمجرد دخولهما وشعر أن النهاية اقتربت، وخاف من الفراق

والوداع

دخل مالك ورقية القصر، وكانت دهشتهما كسابق عهدهما بقصر الحنين، هذا القصر يشبهه تمامًا، الديكور والأعمدة الإيطالية القديمة، وما لفت انتباههما أن القصر منظف ولا وجود للأتربة به، الحديقة منظمة، والأشجار مثمرة، وكأن هناك من يعيش به بالفعل

توجها إلي بوابة القصر الداخلية ففتحت بيسر وبدون أي معاناة، كان القصر فخمًا رقيق الأثاث، ذا رائحة ذكية، بهي الطلة، أحبته رقية ووقعت في غرامه، وشعر فيه مالك بشعور آخر، شعور بالانتماء، أنا من هنا، أنا جذري هنا

اهتز الكتاب في حقيبته فأخرجه مالك سريعًا ووضعه على منضدة موضوعة بمنتصف الردهة المؤدية للسلم، بالتأكيد المؤدي للغرف

كتب الكتاب كلماته بحروفه الذهبية:

" للوصول سرداب من الذكريات، تغلفه الآهات، وتحيطه القلوب بكثير من الانتظار، ضفائر متناثرة على ظهر نقي، هي وديعتكم وأنتم لها الملاذ "

نظر مالك لرقية:

- أين سنجد هذا السرداب؟

قالت رقية له:

- بالتأكيد في الأسفل

نظرا حولهما فوجدا بابًا خلف السلم الصاعد للأعلى، فتحه مالك فوجد أنه سلم من عشر درجات، فهبطا عليه، العتمة قاتمة، حاولا لمس الحائط لتحسس مفتاح لإنارة المكان فلم يجدا، فتمسكا يدًا بيد محاولين إحاطة قلوبهما بقليلٍ من أمان زائف

وفجأة أضيئت الردهة، نظرا حولهما لم يجدا إلّا مجرد قبو لا يوجد به أي شيء لافت، ولكن في نهايته باب، فتقدما إليه، حاولا فتحه لم يفتح، فأشارت رقية لمالك بالمفتاح الذي وجده في قصر الحنين، فأخرجه وفتح الباب، فوجدا سلمًا أخر يهبط بهما إلى الأسفل، فهبطا عليه، فكان مظلمًا أيضًا، تحسسا الحائط كالسابق، ولكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة، فبمجرد أن خطوا خطواتهما الأولى انغلق الباب العلوي للسرداب، وأضاءت الأنوار تدريجيًا، فهذا السرداب ما هو إلا مدخل أنيق مفروش بالسجاد الأحمر الفاخر، وعلى الجانبين صور مرسومة بإتقان رهيب، وما اكتشفاه أنها ليست مجرد صور، هي قصة حياة أهل البيت رسمت وبروزت لتكون ميثاقًا أو دليلًا لمن يخصه الأمر، وها هو الحفيد وزوجته،

يتفقدان سلسال العائلة، كلما انتهيا من مرحلة أضيئت لهما المرحلة التالية، ريح طيب يهلّ عليهما لا يعلمان مصدره، ولكن يهتز له قلب مالك، هل ما أشك به صحيح؟

في نهاية السرداب باب حديدي كبير لا يوجد به أي مدخل لوضع المفتاح، فاحتارا، كيف يتم فتحه؟ وانتظرا قول الكتاب، ولكن ما اهتز كان شيئًا آخر، ما اهتز كان صندوق الأمانة، فأخرجته رقية من حقيبتها، فوجدا طلاسمه تضيء، ودوائره تلمع، ومكان المفتاح يخرج منه النور، فأسرع مالك لوضع المفتاح الذي بحوزته والذي بمجرد وضعه اهتزت الغرفة، وسمعت أقفال الباب تفتح، فاندفع مالك لفتحه، كان من فولاذ كأبواب الخزائن الحاوية لكنوز عظام، لم ينتبها لمحتوى الصندوق تركاه خلفهما واندفعا مستبشرين.

ولكن ما زال هناك ظلام، خطوا خطواتهم فما عادا يخافان الظلام، فتدرج الظلام ليكشف عن سرداب صغير تزين حائطه بقية الحقيقة، ويستكمل فيها قصة عشق طاهر لوحيد المختلط عندما ترك كاميليا لتسافر مع وئام، وذهب هو لمبنى قديم، حاول مالك قراءة اسمه ولكنه لم يتمكن إلّا من تخمين أنها المدرسة الداخلية التي كانت بها أخته، وفي الصورة الأخرى كان وحيد يتسلم طفلة من سيدة محذرا لها بيده وبجانبه طفلة صغيرة، وعندما تمعن مالك النظر منها

وجدها أخته، فتهللت أساريره ونطق باسمها:

- ياسمينا

فعاد سريعًا يتتبع أثرها في الصور ويدعو الله أن تصدق ظنونه، فوجد في الصورة التالية كاميليا على فراش الموت وبجانبها وحيد وهي تنظر للطفلة التي بيده، ففرح مالك وقال لرقية:

- أختي هنا، أختي لم تمت يا رقية

وفي هذه اللحظة انفتح الستار الأسود فكشف الحقيقة، صورة كبيرة لكاميليا بطول الحائط وبجوارها صورة لوحيد أخيها بالتبني، وبأسفله تقف فتاة عشرينية أنيقة ذات شعر أسود ناعم ينسدل على ظهرها كشلالات الأنهار تنظر للصورة بتجلي، فاقترب منها مالك وعيناه دامعة وقلبه ينتفض ويده ترتعش، ومن خلفها ينادي بصوت مرتعش:

- ياسمينا

فالتفتت له، فوجد القمر في كماله والضياء في تمامه، وجهها يشع نورًا وصفاءً، عيون واسعة خضراء، وأنف صغيرة، ملاك من ذوي الاحتياجات الخاصة، خبئت لسنوات في سرداب ليحميها من غدر النفوس، والعقول المريضة تهاب الاختلاف وتعشق النمطية، نظرت ياسمينا بعينين

دامعتين محتارة بين الحزن والفرح، وثام غادرتها في لحظة عودة أخيها، فرحبت برقة:

- اشتقت لك يا أخي

فدمعت عين رقية لدفء اللقاء، وانفطر قلب مالك باكيًا فاندفع إليها حاضنًا عمره الذي مضى وعمره الآتي معها، حاضنًا أيامًا مرت عليه بخوف الوحدة واشتياق الأخوة، فحضنها وبكى بكاء الطفل التائه، ظل يحضنها ويبكي ويتوقف ليشاهد وجهها ثم يحضنها ثانية، كان كالمجنون، اقتربت رقية منهما تربت على كتفه وتهنئه بعودة أخته له، وما كادت أن تنظر إلى ياسمينا لترحب بها حتّى وجدت ياسمينا تقول لها:

- مرحبًا بكِ يا زوجة أخي

ولم ينته الأمر بهذا، فعندما حضنتها رقية وكان ثلاثتهم في حيز واحد، فتحت الأرض من تحتهم وسقطوا جميعهم إلى حيث يريد الجد وحيد، ليجدوا أنفسهم بوسط غرفة مليئة بأرفف الذهب والأوراق التي تثبت حقوقهم، وأنهم الورثة الشرعيون لجميع أملاك توماس وأملاك أندريه وكذلك جوزيف.

برقت عينا مالك فقط لرؤية أخته، ولم يشغله الذهب

والمجوهرات المرصوصة حوله، اهتز الكتاب في حقيبته التي على ظهره، فأخرجه ليقرأ كلمات الكتاب الأخيرة:

" إلي هنا وقد ردت أمانتكم، وعادت لي أمانتي، وعادت الحقوق إلى أهلها، ميراثكم أنفسكم، فحافظوا عليها من عبث الزمان "

ومن بعدها أغلق الكتاب دفتيه للأبد، فتركه مالك بهذا المخزن وانطلق مع أخته السعيدة القابضة على يده، لتريه كم كانت تستعد للقائه، فصعدا للمنزل وأرته غرفته التي جهزتها ياسمينا له ولرقية، وغرفتها التي بجوارهما، والغرفة التي جهزتها لأبناء مالك، وهناك كانت الغرفة المغلقة، الغرفة التي ماتت بها كاميليا، وقالت لهما ياسمينا إن بها سيكون لقائي بهم

قالت رقية لها:

- بمن ستلتقين يا ياسمينا؟

- لقائي بماما وئام التي ربتني وما تركتني إلّا عند عودتكما، وعدتني أنها ستأتيني عندما أريد لقاءها هي وجدي وحيد

أما هناك في شق العالم الآخر كان وحيد يرحب بناردين لعودتها لوطنها من جديد، أما هي فقد سلمته قارورته التي تبقى بها بضع قطرات من سائل العودة، وخيرته أن يعود

من حيث أتى وهي تئن بلهيب الافتراق، أما هو فقد التقط قارورته وكسرها:

- لا يهم في أي عالم، أو زمان، أو مكان سنعيش، لا يهم إن كنا إنسًا أو حتّى جانًّا، ولكن الأهم أن تحفظ الأمانة لنستطيع أن نقف أمام الله يوم القيامة وقد أدينا حقه، وعمرنا أرضه وأورثناها للصالحين.

امتلأ القصر من جديد بالزغاريد، وازدان بزينة الأعراس، فلقد زف مالك ورقية في قصر أجدادهما، ودبت به الحياة، فعرف الجميع أن الروح أمانة، وأن عظمة الميراث لا تكمن في الأموال بالأساس وإنما تكمن في الإخلاص، إخلاص دون قيد أو شرط، حب دون شح أو بخل، عطاء بلا حدود، وطريق للسعادة غير مسدود، وتصبح النهاية ماهي إلّا مجرد بداية، وسلسال لا ينتهي من التضحيات والآمال التي لا تنال إلّا بالصدق والخلاص من وسوسات ما كانت ولا ستكون صحيحة بالأساس

***

الخــاتــمــة

توقفت الألحان

فزفرت الأنفاس تنهيدة الخلاص

فسكنت للحظات ثم اتبعت بالتصفيق وأحر التحيات

واختلطت الهمهمات

بين مستبشر وعابث وحائر القرار

استدار الموسيقار يتبادل التحيات للعازفين والأبطال

ليعلن نهاية سيمفونية عشق لا ينهار

تشابكت ألحانه وتقاطعت نغماته ووقع على الجميع الاختيار

بين الظلام والنور احتار الأبطال

أشرار هم أم كانوا أخيار

وكان للبيب العقل القرار

فلم يختف بعد الموسيقار فانحنى تحية تقدير واحترام

لأخت انتظرت الأخ المغوار

قطع الدروب وقاتل الأشرار

وحبيبة تحملت الصعاب والمرار

تحمل بين أحشائها سلسال الضياء و الأنوار

ومن بعيد يقف مراقبون للأشهاد

تهمس أحدهم هل تراهم فهموا المراد

قال الآخر نعم فما تملكوها إلّا بعد الشداد

هيا بنا نحن نحمي أرضنا ونحافظ على إرث الأجداد

فما ورثنا الظلام إلّا بالصافنات الجياد

وليشهد الأشهاد أنا متربصون بهم حتّى يوم الحساب

[تمت بحمد الله]

شكر

إلى جروب كلام روايات

لكم مني كامل الشكر والتقدير والاحترام